تاريخ ابن خلدون
المجلد الخامس
صفحة 179 حتى صفحة 342

وفاة طغركين وولاية ابنه بوري

ثم توفي أتابك طغركين صاحب دمشق في صفر سنة اثنتين وعشرين وكان من موالي تاج الدولة تتش وكان حسن السيرة مؤثرا للعدل محبا في الجهاد ولقبه ظهير الدين ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الدولة بوري أكبر أولاده بعهده إليه بذلك وأقر وزير أبيه أبي علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته وكان المزدغاني يرى رأي الرافضية الإسماعيلية وكان بهرام ابن أخي إبراهيم الاستراباذي لما قتل عمه إبراهيم ببغداد على هذا المذهب لحق بالشام وملك قلعة بانياس ثم سار إلى دمشق وأقام بها خليفة يدعو إلى مذهبه. ثم فارقها وملك القدموس وغيره من حصون الجبال، وقابل البصرية والدرزة بوادي التيم من أعمال بعلبك سنة اثنتين وعشرين. وغلبهم الضحاك وقتل بهرام. وكان المزدغاني قد أقام له خليفة بدمشق يسمى أبا الوفاء فكثر اتباعه وتحكم في البلد وجاء الخبر إلى بوري بأن وزيره المزدغاني والاسماعيلية قد راسلوا الإفرنج بأن يملكوهم دمشق فجاء إليها، وقتل المزدغاني ونادى بقتل الإسماعيلية وبلغ الخبر إلى الإفرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب أنْطاكِية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الإفرنج وساروا لحصار دمشق. واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان وجاء الإفرنج في ذي الحجة من السنة وبثوا سراياهم للنهب والاغارة ومضت منها سرية إلى خوارزم فبعث تاج الدولة بوري سرية من المسلمين مع شمس الخواص من أمرائه لمدافعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا منهزمين وأحرقوا مخلفهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون والله تعالى ولي التوفيق.

أسرتاج الملك لدبيس بن صدقة وتمكين عماد الدين زنكي منه

كان بصرخد من أرض الشام أميرا عليها فتوفي سنة خمس وعشرين وخلف سريته واستولت على القلعة، وعلمت أنه لا يتم لها استيلاؤها إلا بتزويج رجل من أهل العصابة فوصف لها دبيس فكتبت إليه تستدعيه وهو على البصرة منابذا للسلطان عندما

رجع من عند سنجر فاتخذ الأدلاء وسار إلى صرخد فضل به الدليل بنواحي دمشق ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة فحملوه إلى تاج الملك فحبسه وبعث به إلى عماد الدين زنكي يستدعيه ويتهدده على منعه وأطلق سريج بن تاج الملوك والأمراء الذين كانوا مأسورين معه فبعث تاج الملك بدبيس إليه وأشفق على نفسه. فلما وصل إلى زنكي خالف ظنه وأحسن إليه وسد خلته وبسط أمله. وبعث فيه المسترشد أيضاً بطلبه وجاء فيه الأنباري وسمع في طريقه بإحسان زنكي إليه فرجع، ثم أرسل المسترشد يشفع فيه فأطلق.

وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه شمس الملوك إسمعيل

كان تاج الملوك بوري قد ثار به جماعة من الباطنية سنة خمس وعشرين، وطعنوه فأصابته جراحة واندملت. ثم انتقضت عليه في رجب من سنة ست وعشرين لأربع سنين ونصف من إمارته وولي بعده ابنه شمس الملوك إسمعيل بعهده إليه بذلك. وكان عهد بمدينة بعلبك وأعمالها لابنه الآخر شمس الدولة وقام بتدبير أمره الحاجب يوسف ابن فيروز شحنة دمشق وأحسن إلى الرعية وبسط العدل فيهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء شمس الملوك علي الحصون

ولما تولى شمس الملوك إسمعيل وسار أخوه محمد إلى بعلبك خرج اليها وحاصر أخاه محمدا بها، وملك البلد. واعتصم محمد بالحصن وسأل الابقاء فأبقي عليه ورجع إلى دمشق. ثم سار إلى باشاش ، وقد كان الإفرنج الذين بها نقضوا الصلح وأخذوا جماعة من تجار دمشق في بيروت فسار إليها طاويا وجه مذهبه، حتى وصلها في صفر سنة سبع وعشرين وقاتلها ونقب أسوارها وملكها عنوة، ومثل بالافرنج الذين بها. واعتصم فقهم بالقلعة حتى استأمنوا، وملكها ورجع إلى دمشق. ثم بلغه انّ المسترشد زحف إلى الموصل طمع هو في حماة وسار آخر رمضان وملكها يوم الفطر من غده فاستأمنوا إليه وملكها واستولى على ما فيها. ثم سار إلى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحاصرها، وصانعه صاحبها بمال حمله إليه فأفرج عنه

وسار إلى دمشق في ذي القعدة من السنة. ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين إلى حصن شقيق في

الجبل المطل على بيروت وصيدا، وبه الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به وتحاماه المسلمون والافرنج يحتمي من كل طائفة بالأخرى فسار إليه وملكه من وقته وعظم ذلك على الإفرنج فساروا إلى حوران وعاثوا في نواحيها فاحتشد هو واستنجد بالتركمان، وسار حتى نزل قبالتهم وجهز العسكر هنالك وخرج في البرّ وأناخ على طبرية وعكا فاكتسح نواحيها وامتلأت أيدي عسكره بالغنائم والسبي. وانتهى الخبر إلى الإفرنج بمكانهم من بلاد حوران فأجفلوا إلى بلادهم، وعاد هو إلى دمشق وراسله الإفرنج في تجديد الهدنة فهادنهم.

مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب الدين محمود

كان شمس الملوك سيء السيرة كثير الظلم والعدوان على رعيته مرهف الحد لأهله وأصحابه، حتى إنه وثب عليه بعض مماليك جده سنة سبع وعشرين وعلاه بالسيف ليقتله فأخذ وضرب فأقر على جماعة داخلوه فقتلهم وقتل معهم أخاه سونج فتنكر الناس له، وأشيع عنه بأنه كاتب عماد الدين زنكي ليملكه دمشق واستحثه في الوصول لئلاً يسلم البلد إلى الإفرنج فسار زنكي فصدق الناس الإشاعة وانتقض أصحاب أبيه لذلك، وشكو لامّه فأشفقت ثم تقدمت إلى غلمانه بقتله فقتلوه في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين، وقيل أنه اتهم أمه بالحاجب يوسف بن فيروز فاعتزم على قتلها فهرب يوسف، وقتلته أمه. ولما قتل ولي أخوه شهاب الدين محمود من بعده، ووصل أتابك زنكي بعد مقتله فحاصر دمشق من ميدان الحصار، وجدوا في مدافعته والامتناع عليه. وقام في ذلك معين الدين أنز مملوك جده طغركين مقاماً محمودا وجفى في المدافعة والحصار. ثم وصل رسول المسترشد أبو بكر بن بهثر الجزري إلى أتابك زنكي يأمره بمسالمة صاحب دمشق الملك ألب ارسلان شهاب الدين محمود، وصلحه معه فرحل عن دمشق منتصف السنة.

استيلاء شهاب الدين محمود على حمص:

كانت حمص لقيرجان بن قراجا ولولده من بعده والموالي بها من قبلهما، وطالبهم عماد الدين زنكي في تسليمها، وضايقهم في نواحيها فراسلوا شهاب الدين صاحب دمشق في أن يملكها ويعوضهم عنها بتدمر ؛ فأجاب واستولى على حمص، وسار إليها سنة ثلاثين وأقطعها لمملوك جده معين الدين أنز، وأنزل معه حامية من عسكره ورجع إلى دمشق واستأذنه الحاجب يوسف بن

فيروز في العود من تدمر إلى دمشق وقد كان هرب إليها كما قدمناه. وكان جماعة من الموالي منحرفين عنه بسبب ما تقدم في مقتل سونج فنكروا ذلك فلاطفهم ابن فيروز واسترضاهم، وحلف لهم أنه لا يتولى شيئا من الأمور. ولما دخل رجع إلى حاله فوثبوا عليه وقتلوه، وخيموا بظاهر دمشق واشتطوا في الطلب فلم يسعفوا بكلمة فلحقوا بشمس الدولة محمد بن تاج الملوك في بعلبك، وبثوا السرايا إلى دمشق فعاثت في نواحيها حتى أسعفهم شهاب الدين بكل ما طلبوه فرجعوا إلى ظاهر دمشق، وخرج لهم شهاب الدين وتحالفوا ودخلوا إلى البلد. وولى مرواش كبيرهم على العساكر، وجعل إليه الحل والعقد في دولته والله أعلم.

استيلاء عماد الدين زنكي على حمص وغيرها من أعمال دمشق

ثم سار أتابك زنكي إلى حمص في شعبان سنة إحدى وثلاثين، وقدم إليه حاجبه صلاح الدين الباغيسياني وهو أكبر أمرائه مخاطبا واليها معين الدين أنز في تسليمها فلم بفعل. وحاصرها فامتنعت عليه فرحل عنها آخر شوال من السنة. ثم سار سنة اثنتين وثلاثين إلى نواحي بعلبك فملك حصن المحولي على الأمان، وهو لصاحب دمشق. ثم سار إلى حمص وحاصرها، وعاد ملك الروم إلى حلب فاستدعى الفرنج، وملك كثيراً من الحصون مثل عين زربة وتل حمدون ، وحاصر أنْطاكِية ثم رجع وأفرج أتابك زنكي حلال ذلك عن حمص. ثم عاود منازلتها بعد مسير الروم وبعث إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه مرد خاتون ابنة جاولي طمعاً في الاستيلاء على دمشق فزوجها له، ولم يظفر بما أمله من دمشق. وسلموا له حمص وقلعتها، وحملت إليه خاتون في رمضان من السنة والله أعلم.

مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه محمد:

لما قتل شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاث وثلاثين، إغتاله ثلاث من مواليه

في مضجعه بخلوته وهربوا فنجا واحد منهم وأصيب الآخران، كتب معين الدين أنز إلى أخيه شمس الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك بالخير

فسارع ودخل دمشق، وتبعه الجند والأعيان وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز مملوك جده وأقطعه بعلبك واستقامت أموره

استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق

ولما قتل شهاب الدين محمود وبلغ خبره إلى أمه خاتون زوجة أتابك زنكي بحلب

عظم جزعها عليه، وأرسلت إلى زنكي بالخبر، وكان بالجزيرة، وسألت منه الطلب بثأر ابنها فسار إلى دمشق، واستعدوا للحصار فعدل إلى بعلبك. وكانت لمعين الدين أنز كما قلناه، وكان أتابك زنكي دس إليه الأموال ليمكنه من دمشق فلم يفعل فسار إلى بلده بعلبك، وجد في حربها ونصب عليها المجانيق حتى استأمنوا إليه، وملكها في ذي الحجة آخر سنة ثلاث وثلاثين. واعتصم جماعة من الجند بقلعتها ثم استأمنوا فقتلهم وأرهب الناس بهم. ثم سار إلى دمشق وبعث إلى صاحبها في تسليمها والنزوك عنها على أن يعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك، فزحف إليها ونزل داريا منتصف ربيع الأول سنة أربع وثلاثين. وبرزت إليه عساكر دمشق فظفر بهم وهزمهم ونزل المصلى، وقاتلهم فهزمهم ثانيا. ثم أمسك عن قتالهم عشرة أيام، وتابع الرسل إليه بأن يعوضه عن دمشق ببعلبك أو حمص أو ما يختاره فمنعه أصحابه، فعاد زنكي إلى القتال واشتد في الحصار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وفاة جمال الدين بن بوري وولاية ابنه مجير الدين أنز:

ثم توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق رابع شعبان سنة أربع وثلاثين وزنكي محاصر بها، وهو معه في مراوضة الصلح وجمع زنكي فيما عساه أن يقع بين الأمراء من الخلاف فاشتد في الزحف فما وهنوا لذلك، وولوا من بعد جمال الدين محمداً ابنه مجير الدين أنز وأقام بتربيته وتدبير دولته معين الدين أنز مدبر دولته.وأرسل إلى الإفرنج يستنجدهم على مدافعة زنكي على أن يحاصر قاشاش فإذا فتحها أعطاهم إياها فأجابوا إلى ذلك حذراً من استطالة زنكي بملك دمشق، فسار زنكي للقائهم قبل إتصالهم بعسكر دمشق ونزل حوران في رمضان من السنة فخام الإفرنج

عن لقائه، وأقاموا ببلادهم فعاد زنكي إلى حصار دمشق في شوال من السنة، ثم أحرق قرى المرج والغوطة ، ورحل عائدا إلى بلده. ثم وصل الإفرنج إلى دمشق بعد رحيله فسار معهم معين الدين أنز إلى قاشاش من ولاية زنكي ليفتحها ويعطيها للافرنج كما عاهدهم عليه، وقد كان واليها أغار على مدينة صور، ولقيه في طريقه صاحب

أنْطاكِية وهو قاصد إلى دمشق لإنجاد صاحبها على زنكي فقتل الوالي ومن معه من العسكر، ولجأ الباقون.إلى قاشاش، وجاء معين الدين أنز أثر ذلك في العساكر فملكها وسلمها للافرنج. وبلغ الخبر إلى أتابك زنكي فسار إلى دمشق بعد أن فرق سراياه وبعوثه على حوران وأعمال دمشق، وسار هو متجردا إليها فصبحها وخرج العسكر لقتاله فقاتلهم عامة يومه. ثم تأخر ا إلى مرج راهط وانتظر بعوثه حتى وصلوا إليه، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، ورحل عائدا إلى بلده.

مسير الإفرنج لحصار دمشق

كان الإفرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه، تسير إليهم أمم الإفرنج من كل ناحية من بلادهم مددا لهم على المسلمين لما يرونه من تفرد هؤلاء بالشام بين عدوهم. وسار في سنة ثلاث وأربعين ملك الالمان من أمراء الإفرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصدا بلاد الإسلام لا يشك في الغلب والإستيلاء، لكثرة عساكره وتوفر عدده وأمواله. فلما وصل الشام اجتمع عليه عساكر الإفرنج الذين له ممتثلين أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق، فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين وحاصروها، فقام معين الدين أنز في مدافعتهم المقام المحمود. ثم قاتلهم الإفرنج سادس ربيع الأول من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدة والمصابرة، واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجة الدين يوسف العندلاوي المغربي، وكان عالماً زاهداً. وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضعفه وسنه فقال له: " قد بعت واشترى مني فلا أقيل ولا أستقيل " يشير إلى آية الجهاد وتقدم حتى استشهد عند أسرت على نصف فرسخ من دمشق.

واستشهد معه خلق، وقوي الإفرنج، ونزل ملك الألمان الميدان الأخضر. وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة إحدى وأربعين، وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب فبعث معين الدين أنز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده، فجاء لإنجاده ومعه أخوه نور الدين، وانتهوا إلى مدينة حمص. وبعث إلى الإفرنج يتهددهم فاضطروا إلى قتاله، وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين، وأرسل معين الدين إلى الألمان يتهددهم بتسليم البلد إلى ملك المشرق يعني صاحب الموصل،

وأرسل إلى فرنج الشام يحذرهم من إستيلاء ملك الألمان على دمشق فإنه لا يبقى لكم معه مقام في الشام. ووعدهم بحصن قاشاش فاجتمعوا إلى ملك الألمان وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد، وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش، وعاد ملك الألمان إلى بلاده على البحر المحيط في

أقصى الشمال والمغرب. ثم توفي معين الدين أنز مدبر دولة أرتق، والمتغلب عليه سنة أربع وأربعين لسنة من حصار ملك الألمان والله أعلم.

استيلاء نور الدين محمود العادل على دمشق وإنقراض بني تتش من الشام

كان سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة أربع وأربعين، وملك أخوه قطب الدين، وانفرد أخوه الآخر نور الدين محمي بحلب وما يليها. وتجرد لطلب دمشق ولجهاد الإفرنج. واتفق أن الإفرنج سنة ثمان وأربعين ملكوا عسقلان من يد خلفاء العلوية لضعفهم كما مر في أخبار دولتهم. ولم يجد نور الدين سبيلاً إلى إرتجاعها منهم لاعتراض دمشق بينه وبينهم. ثم طمعوا في ملك دمشق بعد عسقلان. وكان أهل دمشق يؤدون إليهم الضريبة فيدخلون لقبضها ويتحكمون فيهم، ويطلقون من أسرى الإفرنج الذين بها كل من أراد الرجوع إلى أهله فخشي نور الدين عليها من الإفرنج، ورأى أنه إن قصدها استنصر صاحبها عليه بالإفرنج، فراسل صاحبها مجير الدين واستماله بالهدايا حتى وثق به، فكان يقريه بأمرائه الذين يجد بهم القوة على المدافعة واحداً واحداً، ويقول له: أن فلاناً كاتبني بتسليم دمشق فيقتله مجير الدين حتى كان آخرهم عطاء بن حافظ السلمي الخادم، وكان شديداً في مدافعة نور الدين فأرسل إلى مجير الدين بمثلها فيه فقبض عليه وقتله. فسار حينئذ نور الدين إلى دمشق بعد أن كاتب الأحداث الذين بها واستمالهم فوعدوه، وأرسل مجير الدين إلى الإفرنج يستنجده من نور الدين على أن يعطيهم بعلبك فأجابوه وشرعوا في الحشد وسبقهم نور الدين إلى دمشق فثار الأحداث الذين كاتبهم وفتحوا له الباب الشرقي فدخل منه وملكها. واعتصم مجير الدين بالقلعة فراسله في النزول عنها، وعوضه مدينة حمص فسار إليها، ثم عوضه عن حمص بالس فلم يرضها. وسار إلى بغداد واختط ا بها داراً قرب النظامية وتوفي بها. واستولى نور الدين على دمشق وأعمالها، واستضافها إلى ملكه حتى حلب. وانقرض ملك بني تتش من الشام والبلاد الفارسية أجمع والبقاء لله وحده، والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه وتعالى

.

خريطة

الخبر عن دولة قطلمش وبنيه ملوك قونية وبلاد الروم من السلجوقية ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوا لهم

كان قطلمش هذا من عظماء أهل هذا البيت ونسبه فيهم مختلف، فقيل قطلمش بن بيقو، وابن الأثير تارة يقول قطلمش ابن عم طغرلبك، وتارة يقول قطلمش بن اسرائيل من سلجوق، ولعله بيان ذلك الاجمال. ولما انتشر السلجوقية في البلاد طالبيين للملك، دخل قطلمش هذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأقصرا ونواحيهما، وبعثه السلطان طغرلبك بالعساكر مع قريش بن

بدران صاحب الموصل، في طلب دبيس بن مزيد عنده أظهر الدولة العلوية في الحلة وأعمالها، فهزمهم دبيس والبساسيري كمما تقدم في أخبارهم. ثم عصى على السلطان ألب ارسلان بعد طغرلبك وقصد الري ليملكه، وقاتل ألب ارسلان سنة ست وخمسين فانهزم عسكرقطلمش، ووجد بين القتلى فتجمع ألب ارسلان وقعد للعزاء فيه كما تقدم في أخبارهم. وقام بأمره ابنه سليمان وملك قونية وأقصرا وغيرهما من الولاية التي كانت بيد أبيه، وافتتح أنْطاكِية من يد الروم سنة سبعوسبعين وأربعمائة، وقد كانوا ملكوها منذ خمس وخمسين وأربعمائة فأخذها منهم وأضافها إلى ملكه.وقد تقدم خبر ملكه إياها في دولتهم، وكان لمسلم بن قريش صاحب الموصل ضريبة على الروم بأنْطاكِية، فطالب بها سليمان بن قطلمش فامتعض لذلك وأنف منه. فجمع مسلم العرب والتركمان لحصار أنْطاكِية، ومعه جق أمير التركمان، والتقيا سنة ثمان وسبعين. وانحاز جق إلى سليمان فانهزم العرب، وسار سليمان بن قطلمش لحصار حلب فامتنعت عليه، وسألوه الإمهال حتى يكاتب السلطان ملك شاه. ودسوا إلى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعونه فأغذ السير، واعترضه سليمان بن قطلمش على غير تعبئة فانهزم، وطعن نفسه بخنجر فمات، وغنم تتش معسكره.وملك بعده ابنه قليج ارسلان ، وأقام في سلطانه. ولما زحف الإفرنج إلى سواحل الشام سنة تسعين وأربعمائة جعلوا طريقهم على القسطنطينية فمنعهم من ذلك ملك الروم، حتى شرط عليهم أن يعطوه أنْطاكِية إذا ملكوها فأجابوا لذلك، وعبروا خليج القسطنطينية ومروا ببلاد قليج ارسلان بن سليمان بن قطلمش فلقيهم في جموعه قريباً من قونية فهزموه، وانتهوا إلى بلاد ابن ليون الأرمني فمروا منها إلى أنْطاكِية، وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فاستعد للحصار، وأمر بحفر الخندق فعمل فيه المسلمون يوماً، ثم عمل فيه النصارى الذين كانوا بالبلد من الغد. فلما جاؤا للدخول منعهم وقال: أنا لكم في مخلفكم حتى ينصرف هؤلاء الإفرنج. وزحفوا إليه فحاصروه تسعة أشهر.ثم عدا بعض الحامية من سور البلد عليهم فادخلوهم من بعض مسارب الوادي، وأصبحوا في البلد فاستباحوه، وركب باغيسيان للصلح فهرب، ولقيه حطاب من الأرمن فجاء برأسه إلى

الإفرنج، وولى عليها بمشد من زعماء الإفرنج. وكان صاحب حلب وصاحب دمشق قد عزما على النفير إلى أنْطاكِية لمدافعتهم فكاتبهم الإفرنج بالمسالمة، وأنهم لا يعرضون لغير أنْطاكِية فأوهن ذلك من عزائمهم، وأقصروا عن إنجاد باغيسيان. وكان التركمان قد انتشروا في نواحي العراق، وكان كمستكين بن طبلق المعروف أبوه بمالوانشمند، ومعناه المعلم عندهم، قد ملك سيواس من بلاد الروم مما يلي أنْطاكِية.وكان بملطية مما يجاورها متغلب آخر من التركمان، وبينه وبين الوانشمند حروب،

فاستنجد صاحب ملطية عليه الإفرنج، وجاء بيضل من أنْطاكِية سنة ثلاث وتسعين في خمسة آلاف فلقيه ابن الوانشمند وهزمه وأخذه أسيراً. وجاء الإفرنج لتخليصه فنازلوا قلعة أنكورية وهي أنقرة فأخذوها عنوة. ثم ساروا إلى أخرى فيها إسمعيل بن الوانشمند وحاصروها فجمع ابن الوانشمند وقاتلهم، وأكمن لهم وكانوا في عدد كثير. فلما قاتلهم استطرد لهم حتى خرج عليهم الكمين، وكر عليهم فلم يفلت منهم أحد. وسار إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها، وجاءه الإفرنج من أنْطاكِية فهزمهم.

استيلاء قليج ارسلان على الموصل

كانت الموصل وديار بكر والجزيرة بيد جكرمس من قواد السلجوقية فمنع الحمل

وهم بالإنتقاض، فأقطع السلطان الموصل وما معها لجاولي بن سكاوو، والكل من قوادهم، وأمرهم بالمسير لقتال الإفرنج. فسار جاولي وبلغ الخبر لجكرمش فسار من الموصل إلى اربل، وتعاقد مع أبي الهيجاء بن موشك الكردي الهدباي صاحب اربل، وانتهى إلى البواريج فعبر إليه جكرمس دجلة، وقاتله فانهزمت عساكر جكرمس، وبقي جكرمس واقفاً لفالج كان به فأسره جاولي، ولحق الفل بالموصل فنصبوا مكانه ابنه زنكي صبياً صغيراً وأقام بأمره غزغلي مولى أبيه، وكانت القلعة بيده، وفرق الأموال والخيول . واستعد لمدافعة جاولي، وكاتب صدقة بن مزيد والبرسقي شحنة بغداد، وقليج ارسلان صاحب بلاد الروم يستنجدهم، ويعد كلأ منهم بملك الموصل إذا دافعوا عنه جاولي فأعرض صدقة عنه ولم يحتفل بذلك. ثم سار جاولي إلى الموصل وحاصرها وعرض جكرمس للقتل أو يسلموا إليه البلد فامتنعوا، وأصبح جكرمس في بعض أيام حصارها وسمع جاولي بأن قليج ارسلان سار في عساكره إلى نصيبين فأفرج عن الموصل، وسار إلى سنجار وسبق البرسقي إليها بعد رحيل جاولي، وأرسل إلى أهلها فلم يجيبوه بشيء. وعاد إلى بغداد، واستدعى رضوان صاحب دمشق جاولي سكاوو لمدافعة الإفرنج عنه، فساروا إليه. وخرج من الموصل عسكر جكرمس إلى قليج ارسلان بنصيبين فتحالفوا معه، وجاؤا به إلى الموصل فملكها آخر رجب من سنة خمسمائة.وخرج إليه ابن جكرمس وأصحابه وملك القلعة من

غزغلي وجلس على التخت وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر، وسار في الناس بالعدل. وكان في جملته إبراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد

، ومحمد بن جق التركماني صاحب حصن زياد، وهو خرت برت. وكان إبراهيم بن نيال قد ولى تتش على آمد حين ولي ديار بكر، وكانت بيده. وأما خرت برت فكانت بيد القلادروس ترجمان الروم، والرها وأنْطاكِية من أعماله، فملك سليمان بن قطلمش أنْطاكِية. وملك فخر الدولة بن جهير ديار بكر فض حف الفلادروس ، وملك جق خرت برت من يده. وأسلم القلادروس على يد السلطان ملك شاه وأمره على الرها فأقام بها حتى مات. وملكها جق ، هي وما جاورها من الحصون، أورثها ابنه محمدا بعد موته، والله تعالى ولي التوفيق.

الحرب بين قليج ارسلان وبين الإفرنج:

كان سمند صاحب أنْطاكِية من الإفرنج قد وقعت بينه وبين ملك الروم بالقسطنطينية وحشة واستحكمت. وسار سمند فنهب بلاد الروم وعزم على قصد أنْطاكِية، فاستنجد ملك الروم بقليج ارسلان فأمده بعساكره. وسار مع ذلك الروم فهزموا الإفرنج وأسروهم، ورجع الفل إلى بلادهم بالشام فاعتزموا على قصد قليج ارسلان بالجزيرة فأتاهم خبر مقتله فأقصروا ، والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل قليج ارسلان وولاية ابنه مسعود:

وقد تقدم لنا استيلاء قليج ارسلان على الموصل وديار بكر وأعمالها، وجلوسه على التخت، وإن جاولي سكاوو سار إلى سنجار ثم سار منها إلى الرحبة. وكان قليج ارسلان خب له بها صاحبها محمد بن السباق من بني شيبان بعد مهلك دقاق، وانتقاضه على أبيه. فلما حاصرها جاولي بعث إليه رضوان بن تتش صاحب حلب في النجدة على الإفرنج لما ساروا إلى بلاده، فوعده لإنقضاء الحصار. وجاء رضوان فحضر عنده واشتد الحصار على أهل الرحبة وغدر بعضهم فأدخل أصحاب جاولي ليلا ونهبوها إلى الظهر. وخرج إليه صاحبها محمد الشيباني فأطاعه ورجع عنه.وبلغ الخبر إلى قليج ارسلان فسار من الموصل لحرب جاولي، واستخلف عليها ابنه ملك شاه صبياً صغيراً مع أمير يدبره. فلما إنتهى إلى الخابور هرب عنه إبراهيم بن نيال صاحب آمد ولحق ببلده. واعتزم قليج ارسلان على المطاولة، واستدعى

عسكره الذين أنجدهم ملك الروم على الإفرنج فجاؤا إليه، واغتنم جاولي قلة عسكره فلقيه آخر القعدة من السنة، واشتدت الحرب. وحمل قليج ارسلان على جاولي بنفسه. وصرع صاحب الراية وضرب جاولي بسيفه. ثم حمل أصحاب جاولي عليه فهزموه، وألقى نفسه في الخابور فغرق.

وسار جاولي إلى الموصل فملكها، وأعاد خطبة السلطان محمد. وبعث إليه ملك شاه بن قليج ارسلان وولى مكان قليج ارسلان في قونية وأقصرا وسائر بلاد الروم ابنه مسعود، واستقام له ملكها.

استيلاء مسعود بن قليج ارسلان على ملطية وأعمالها:

كانت ملطية وأعمالها وسيواس لابن الوانشمند من التركمان كما مر وكانت بينه وبينهم حروب وهلك كمستكين بن الوانشمند وولي مكانه ابنه محمد. واتصلت حروبه مع الإفرنج كما كان أبوه معهم. ثم هلك سنة سبع وثلاثين فاستولى مسعود بن قليج ارسلان على الكثير منها وبقي الباقي بيد أخيه باغي ارسلان بن محمد.

وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج أ رسلان:

ثم توفي مسعود بن قليج ارسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وملك مكانه ابنه

قليج ارسلان فكانت بينه وبين باغي ارسلان بن الوانشمند وصاحب ملطية وما جاورها من ملك الروم حروب، بسبب أن قليج ارسلان تزوج بنت الملك طليق بن علي بن أبي القاسم فزوجها إليه بجهاز عظيم، وأغار عليه باغي ارسلان صاحب ملطية فأخذها بما معها وزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بين الوانشمند أن أشار عليها بالردة لينفسخ النكاح. ثم عادت إلى الإسلام وزوجها بابن أخيه فجمع قليج ارسلان عساكره، وسار إلى باغي ارسلان بن الوانشمند فهزمه باغي ارسلان ، واستنجد ملك الروم فأمده بعسكر. وسار باغي ارسلان خلال ذلك.وولي إبراهيم ابن أخيه محمد، وملك قليج ارسلان بعض بلاده واستولى أخوه ذوالنون بن محمد بن الوانشمند على قيسارية. وانفرد شاه بن مسعود أخو قليج ارسلان بمدينة انكورية، وهي انقرة، واستقرت الحال على ذلك. ثم وقعت الفتنة بين قليج ارسلان وبين نور الدين محمود بن زنكي، وتراجعوا للحرب. وكتب الصالح بن رزبك المتغلب على العلوي بمصر إلى قليج ارسلان ينهاه عن ذلك. ثم

هلك إبراهيم بن محمد بن الوانشمند وملك مكانه أخوه ذو النون، وانتقض قليج ارسلان عليه، وملك ملطية من يده، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين العادل إلى بلاد قليج ارسلان :

ثم سار نور الدين محمود بن زنكي سنة ثمان وستين إلى ولاية قليج ارسلان بن مسعود

ببلاد الروم، وهي ملطية وسيواس وأقصرا، فجاءه قليج ارسلان متنصلا معتذراً فأكرمه وثنى عزمه عن قصد بلاده. ثم أرسل إليه شفيعاً في ذي النون بن الوانشمند يرد عليه بلاده فلم يشفعه، فسار إليه. وملك مرعش ونهسنا وما بينهما في ذي القعدة من السنة. وبعث عسكراً إلى سيواس فملكوها فمال قليج ارسلان إلى الصلح. وبعث إلى نور الدين يستعطفه، وقد بلغه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه على أن يمده بالعساكر للغزو، وعلى أن يبقي سيواس، بيد نواب نور الدين، وهي لذي النون بن الوانشمند. ثم جاءه كتاب الخليفة بإقطاع البلاد، ومن جملتها بلاد قليج ارسلان وخلاط وديار بكر. ولما مات نور الدين عادت سيواس لقليج ارسلان ، وطرد عنها نواب ذي النون.

مسير صلاح الدين لحرب قليج ارسلان :

كان قليج ارسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم، قد زوج بنته من نور الدين محمود بن قليج ارسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، وأعطاه عدة حصون فلم يحسن عشرتها وتزوج عليها، وهجر مضجعها، وامتعض أبوها قليج ارسلان لذلك. واعتزم على غزو نور الدين في ديار بكر وأخذ بلاده فاستجار نور الدين بصلاح الدين بن أيوب، واستشفع به فلم يشفعه. وتعلل بطلب البلاد التي أعطاه عند المصاهرة فامتعض صلاح الدين لذلك. وكان يحارب الإفرنج بالشام فصالحهم، وسار في عساكره إلى بلاد الروم. وكان الصالح إسمعيل بن نور الدين محمود بالشام فعدل عنه ومر على تل ناشر إلى زغبان، ولقي بها نور الدين محمد صاحب كيفا. وبعث إليه قليج ارسلان رسولا يقرر غدره بابنته فاغتاظ على الرسول، وتوعده بأخذ بلادهم فتلطف له الرسول. وخلص معه نجياً فقبح له ما إرتكبه من أجل هذه المرأة من ترك الغزو، ومصالحة العدو، وجمع العساكر وخساره ، وأن بنت قليج ارسلان لو بعثت إليه بعد وفاة أبيها تسأل منه النصفة بينها وبين زوجها لكان أحق ما تقصده فامتنعت. وعلم أن على نفسه الحق فأمر الرسول أن يصلح بينهم، ويكون هو عوناً له على ذلك فداخلهم ذلك الرسول في الصلح على أن يطلق هذه المرأة بعد سنة، ويعقد

بينهم ذلك. ورجع كل إلى بلده، ووفى نور الدين بما عقد على نفسه، والله سبحانه وتعالى أعلم

.

قسمة قليج ارسلان أعماله بين ولده وتغلبهم عليه:

ثم قسم قليج ارسلان سنة سبع وثمانين أعماله بين ولده: فأعطى قونية بأعمالها

لغياث الدين كسنجر وأقصرا وسيواس لقطب الدين، ودوقاط لركن الدين سليمان وأنقرة وهي أنكورية لمحيي الدين وملطية لعز الدين قيصر شاه ولغيث الدين وقيسارية لنور الدين محمود، وأعطى تكسار وأماساً لابني أخيه. وتغلب عليه ابنه قطب الدين وحمله على انتزاع ملطية من يد قيصر شاه فانتزعها، ولحق قيصر شاه بصلاح الدين بن أيوب مستشفعاً به فأكرمه، وزوجه ابنة أخيه العادل. وشفع له عند أبيه وأخيه فشفعوه وردوا عليه ملطية. ثم زاد تغلب ركن الدين وحجر عليه وقتل دائبة في مدينته وهو إختيار الدين حسن فخرج سائر بنيه عن طاعته، وأخذ قطب الدين أباه، وسار به إلى قيسارية ليملكها من أخيه فهرب قليج ارسلان ودخل قيسارية. وعاد قطب الدين إلى قونية وأقصرا فملكهما وبقي قليج ارسلان ينتقل بين ولده من واحد إلى آخر، وهم معرضون عنه حتى استنجد بغياث الدين كسنجر صاحب منهم فأنجده، وسار معه إلى قونية فملكها. ثم سار إلى أقصرا وحاصرها، ثم مرض قليج ارسلان ، وعاد إلى قونية فتوفي فيها. وقيل إنما إختلف ولده عليه لأنه ندم على قسمة أعماله بينهم، وأراد إيثار ابنه قطب الدين بجميعها وانتقضوا عليه لذلك وخرجوا عن طاعته، وبقي يتردد بينهم وقصد كسنجر وصاحب قونية فأطاعه، وخرج معه بالعساكر لحصار محمود أخيه في قيسارية، وتوفي قليج ارسلان وهو محاصر لقيسارية ورجع غياث الدين إلى قونية.

وفاة قليج ارسلان وولاية ابنه غياث الدين:

ثم توفي قليج ارسلان بمدينة قونية أو على قيسارية كما مر من الخلاف منتصف

ثمان وثمانين لسبع وعشرين سنة من ملكه، وكان مهيباً عادلاً حسن السياسة كثير الجهاد. ولما توفي واستقل ابنه غياث الد ين كسنجر بقونية وما إليها. وكان قطب الدين أخوه صاحب أقصرا وسيواس. وكان كلما سار من إحداهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، وبها أخوه نور الدين محمود

يتلقاه بظاهرها حتى استنام إليه مدة فغدر به وقتله، وامتنع أصحابه بقيسارية. وكان كبيرهم حسن فقتله مع أخيه، ثم أطاعوه وأمكنوه من البلد، ومات قطب الدين أثر ذلك.

استيلاء ركن الدين سليمان على قونية وأكثر بلاد الروم وفرار غياث الدين:

ولما توفي قليج ارسلان ، وولي بعده في قونية ابنه غياث الدين كسنجر، وبنوه

يومئذ على حالتهم في ولايتهم التي قسمها بينهم أبوهم. وملك قطب الدين منهم قيسارية بعد أن كدر بأخيه محمود صاحبها. ومات قطب الدين أثر ذلك فسار ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى التغلب على أعمال سلفه ببلاد الروم، فسار إلى سيواس وأقصرا وقيسارية أعمال قطب الدين فملكها. ثم سار إلى قونية فحاصر بها غياث الدين وملكها، ولحق غياث الدين بالشام كما يأتي خبره. ثم سار إلى نكسار وأماساً فملكهما وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين فملكها من يد معز الدين قيصر شاه، ولحق معز الدين بالعادل أبي بكر بن أيوب. ثم سار إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن حليق من بيت ملك قديم، وخرج إليه صاحبها ليقرر معه صلحاً فقبض عليه، وملك البلد فاجتمع لركن الدين سائر أعمال أخوته ما عدا أنقرة لحصانتها فجمر عليها الكتائب، وحاصرها ثلاثاً. ثم دس من قتل أخاه، وملك البلد سنة إحدى وستمائة، وتوفي هو عقب ذلك والله تعالى أعلم.

و فاة ركن الدين وولاية ابنه قليج ارسلان :

ثم توفي ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان أوائل ذي القعدة من تمام سنة إحدى وستمائة، وولي بعده ابنه قليج ارسلان فلم تطل مدته. وكان ركن الدين ملكاً حازماً شديداً على الأعداء، إلا أنه ينسب إلى التزين بالفلسفة، والله تعالى أعلم.

استيلاء غياث الدين كسنجر على بلاد الروم من أخيه ركن الدين:

كان غياث الدين كسنجر بن قليج ارسلان ، لما ملك أخوه ركن الدين قونية من يده

لحق بحلب، وفيها الظاهر غازي بن صلاح الدين فلم يجد عنده قبولا، فسار إلى القسطنطينية وأكرمه

ملك الروم، وأصهر إليه بعض البطارقة في إبنته. وكانت له قرية حصينة في أعمال قسطنطينية فلما استولى الإفرنج على القسطنطينية سنة ستمائة لحق غياث الدين بقلعة صهره البطريق. وبلغ إليه خبر أخيه تلك السنة، وبعث إليه بعض الأمراء من قونية يستدعيه للملك فسار إليه، واجتمعوا على حصار قونية. وخرجت إليهم العساكر منها فهزموه ولحق ببعض البلاد فتحصن بها. ثم قام أهل أقصرا بدعوته وطردوا واليهم، وبلغ الخبر إلى أهل قونية فثاروا بقليج ارسلان بن ركن الدين، وقبضوا عليه واستدعوا غياث الدين فملكوه وأمكنوه من ابن أخيه. وكان أخوه قيصر شاه قد لحق بصهره العادل أبي بكر بن أيوب فاستنصر به على أخيه ركن الدين عندما ملك ملطية من يده، فأمر له بالرها. واستفحل ملك غياث الدين، وقصده علي بن يوسف صاحب شميشاط، ونظام الدين بن ارسلان صاحب خرت برت وغيرهما. وعظم شأنه إلى أن قتله أشكر صاحب قسطنطينية سنة سبع وستمائة، والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل غياث الدين كسنجر وولاية ابنه كيكاوس:

ولما قتل غياث الدين كسنجر وولي بعده ابنه كيكاوس ، ولقبوه الغالب بالله. وكان

عمه طغرل شاه بن قليج ارسلان صاحب أرزن الروم طلب الأمر لنفسه وسار إلى قتال كيكاوس ابن أخيه وحاصره في سيواس وقصد أخوه كيغباد بن كسنجر بلد أنكورية من أعماله فاستولى عليها وبعث كيكاوس صريخه إلى الملك العادل صاحب دمشق فانفذ إليه العساكر وأفرج طغرك عن سيواس قبل وصولهم فسار كيكاوس إلى أنكورية وملكها من يد أخيه كيغباد وحبسه، وقتل أمراءه وسار إلى عمه طغرل في أرزن الروم فظفر به سنة عشر، وقتله وملك بلاده.

مسير كيكاوس إلى حلب واستيلاؤه على بعض أعمالها ثم هزيمته وإرتجاع البلد من يده

كان الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قد توفي، وملك بعده ابنه طفلاً صغيراً، وكان بعض أهل حلب قد لحق بكيكاوس فراراً من الظاهر،

وأغراه بملك حلب، وهون عليه أمرها وملك ما بعدها. ولما مات الظاهر قوي عزمه وطمعه في ذلل و، واستدعى الأفضل بن صلاح الدين من شميشاط للمسير معه، على أن تكون الخطبة لكيكاوس ، والولاية للأفضل في جميع ما يفتحونه من حلب وأعمالها. فإذا فتحوا بلاد الجزيرة مثل حران والرها من يد الأشرف تكون ولايتها لكيكاوس، وتعاقدوا على ذلك. وساروا سنة خمسة عشرة فملكوا قلعة

زغبان، وتسلمها الأفضل على الشرط ثم ملكوا قلعة تل ناشر فاستأثر بها كيكاوس، وارتاب الأفضل. ثم بعث ابن الظاهر صاحب حلب إلى الأشرف بن العادل صاحب الجزيرة وخلاط يستنجده على أن يخطب له بحلب، وينقش إسمه على السكة فسار لإنجاده، ومعه أحياء طيء من العرب فنزل بظاهر حلب. وسار كيكاوس والأفضل إلى منبج، ولقيت طليعتهم طليعة الظاهر فاقتتلوا. وعاد عسكر كيكاوس منهزمين إليه فأجفل وسار الأشرف إلى زغبان وتل ناشر وبهما أصحاب كيكاوس فغلبهم عليهما. وأطلقهم إلى صاحبهم فأحرقهم بالنار وسلم الأشرف الحصنين إلى شهاب الدين بن الظاهر صاحب حلب، وبلغه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل بمصر فرجع عن قصد بلاد الروم.

وفاة كيكاوس وملك أخيه كيغباد:

كان كيكاوس بعد الواقعة بينه وبين الأشرف قد اعتزم على قصد بلاد الأشرف بالجزيرة، واتفق مع صاحب آمد وصاحب اربل على ذلك، وكانا يخطبان له. ثم سار إلى ملطية يشغل الأشرف عن الموصل، حتى ينال منها صاحب اربل. ومرض في طريقه فعاد. ومات سنة ست عشرة وخلف بنيه صغاراً. وكان أخوه كيغباد محبوساً منذ أخذه من أنكورية فأخرجه الجند من محبسه وملكوه وقيل بل أخرجه هو من محبسه وعهد إليه. ولما ملك خالف عليه عمه صاحب أرزن الروم فوصل يده بالأشرف، وعقد معه صلحاً.

الفتنة بين كيغباد وصاحب آمد من بني أرتق وفتح عدة من حصونه

كانت الفتنة قد حدثت بين الأشرف صاحب الجزيرة والمعظم صاحب دمشق،

وجاء جلال الدين خوارزم من الهند سنة ثلاث وعشرين بعد هروبه أمام التتر فملك أذربيجان واعتضد به المعظم صاحب دمشق على الأشرف، وظاهرهما الملك مسعود صاحب آمد من بني أرتق فأرسل الأشرف إلى كيغباد ملك الروم يستنجده على صاحب أمد، والأشرف يومئذ محاصر لماردين فسار كيغباد وأقام على ملطية، وجهز العساكر من هناك إلى آمد

ففتح حصوناً عدة. وعاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف فكتب إلى كيغباد أن يرد عليه ما أخذه فامتنع، فبعث عساكره إلى صاحب آمد مدداً على كيغباد. وكان محاصراً القلعة الكحنا فلقيهم وهزمهم، وأثخن فيهم، وعاد ففتح القلعة والله أعلم.

استيلاء كيغباد على مدينة أرزنكان:

كمان صاحب أرزنكان هذه بهرام شاه من بني الأحدب بيت قديم في الملك،وملكها ستين سنة، ولم يزل في طاعة قليج ارسلان وولده. وتوفي فملك بعده ابنه علاء الدين داود شاه، وأرسل عنه كيغباد سنة خمس وعشرين ليعسكر معه فسار إليه وقبض عليه، وملك مدينة أرزنكان. وكان من حصونه كماح، فامتنع نائبه فيه، وتهدد داود شاه فبعث إلى نائبه فسلم له الحسن. ثم قصد أرزن الروم، وبها ابن عمر طغرل شاه بن قليج ارسلان فبعث بن طغرك شاه بطاعته للأشراف، واستنجد نائبه بخلاط حسام الدين علي فسار إليه فخام كيغباد عن لقائه، وعاد من أرزنكان إلى بلاده فوجد العدو من الإفرنج قد ملك قلعة منها تسمى صنوباً مطلة على بحر الخزر فحاصرها براً وبحراً، وارتجعها المسلمون والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

فتنة كيغباد مع جلال الدين:

كان صاحب أرزن الروم وهو ابن عم كيغباد صار إلى طاعة جلال الدين خوارزم

شاه، وحاصر معه خلاط، وفيها أيبك مولى الأشرف فملكها جلال الدين، وقتل ايبك كما يأتي في أخباره. فخافهما كيغباد صاحب الروم فاستنجد الملك الكامل، وهو بحران فأمده بأخيه الأشرف من دمشق فجمع عساكر الجزيرة والشام، وسار إلى كيغباد فلقيه بسيواس واجتمعوا في خمسة وعشرين ألفاً. وساروا من سيواس إلى خلاط فلقيهم جلال الدين في نواحي أرزنكان فهاله منظرهم، ومضى منهزماً إلى خلاط. ثم سار منها إلى أذربيجان فنزلوا عند خوي. وسار الأشرف إلى خلاط فوجد جلال الدين قد خربها فعادوا إلى بلادهم، وترددت الرسل في الصلح فاصطلحوا.

مسير بني أيوب إلى كيغباد وهزيمتهم

كان علاء الدين كيغباد قد استفحل ملكه ببلاد الروم، ومد يده إلى ما يجاوره من البلاد فملك خلاط، بعد أن دافع عنها مع الأشرف بن العادل جلال الدين خوارزم شاه فنازعه الأشرف في ذلك، واستصرخ بأخيه الكامل فسار

في العساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين. وسار معه الملوك من أهل بيته، وإنتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم. وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيغباد وهزمه، وحصره في خرت برت وكانت لبني أرتق. ورجع

الكامل بالعساكر إلى مصر سنة إثنتين وثلاثين، وكيغباد في اتباعهم. ثم سار إلى حران والرها فملكهما من يد نواب الكامل وولى عليهما من قبله، وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين فارتجعهما.

وفاة كيغباد وملكه ابنه كنجسرو:

ثم توفي علاء الدين كيغباد سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ابنه غياث الدين كنجسرو، وقارن ذلك إنقراض الدولة السلجوقية من ممالك الإسلام وإختلال دولة بني خوارزم شاه وخرج التتر من مفازة الترك وراء النهر، واستيلاء جنكزخان سلطانهم على الممالك وانتزاعها من يد بني خوارزم شاه. وفر جلال الدين آخرهم إلى الهند، ثم رجع واستولى على أذربيجان وعراق العجم. وكان بنو أيوب يومئذ بممالك الشام وأرمينية كما نذكر ذلك كله في أماكنه إن شاء الله تعالى. وانتشر التتر في سائر النواحي وعاثوا فيها وتغلبوا عليها. واستفحل ملكهم فسارت منهم طوائف إلى بلاد الروم سنة إحدى وأربعين، فبعث غياث الدين كنجسرو بالصريخ إلى بني أيوب وغيرهم من الترك في جواره. وجاء المدد من كل جانب فسار للقائهم، ولقيتهم المقدمة على قشمير زنجان فانهزمت المقدمة، ووصلوا إليه فانهزم، ونجا بعياله وذخيرته إلى مدينة على مسيرة شهر من المعترك ونهبوا سواده ومخلفه وانتشروا في نواحي بلاد الروم وعاثوا فيها، وتحصن كباث الدين بهذه المدينة، واستولى التتر على خلاط وآمد. ثم استأمن لهم غياث الدين ودخل في طاعتهم واستقامت أموره معهم إلى أن مات قريباً من رجوعه. وملك التتر قيسارية والله أعلم.

وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيغباد:

ثم توفي غياث الدين كنجسرو سنة أربع وخمسين وترك ثلاثاً من الولد، أكبرهم

علاء الدين كيغباد وعز الدين كيكاوس، وركن الدين قليج ارسلان . وولى علاء الدين كيغباد بعهده إليه، وكان يخطب لهم جميعاً وأمرهم واحد. وكان جنكزخان ملك التتر قد هلك، وكان كرسي سلطانهم بقراقروم ، وولي مكانه ابنه طلوخان وجلس على كرسيه وهو الخان الأعظم عندهم وحكمه

ماض في ملوك الشمال والعراق من أهل بيته وسائر عشيرته- ثم هلك طلوخان وولي مكانه في كرسيه ابنه منكوخان فبعث أخاه هلاكو لفتح العراق وبلاد الإسماعيلية

سنة خمسين وستمائة، فسار لذلك وملك العراقين وبغداد. ثم جرد الخان الأعظم منكوخان إلى بلاد الروم سنة أربع وخمسين أميراً من أمراء المغل إسمه بيكو في العساكر فسار إلى أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى السلطان علاء الدين فحاصرها شهرين ونصب عليها المجانيق. ثم ملكها عنوة، وأسر ياقوت، واستلحم الجند بأسرهم واستبقى الباعة والصناع. ثم سار إلى بلاد الروم فملك قيسارية ومسيرة شهر معها ورجع. ثم عاد سنة خمس وخمسين وعاث في البلاد واستولى على أكثر من الأولى والله تعالى أعلم.

وفاة كيغباد وملك أخيه كيكاوس:

ولما كثر عيث التتر الذين مع بيكو في مملكة علاء الدين كيغباد، واعتزم على المسير إلى الخان الأعظم منكوخان يؤكد الدخول في طاعته، ويقتضي مراسمه إلى بيكو ومن معه من المغل بالكف عن البلاد، سار من قونية سنة خمس وخمسين ومعه سيف الدين طرنطاي من موالي أبيه. واحتمل معه الأموال والهدايا وسار. ووثب أخوه عز الدين كيكاوس على أخيه الاخر قليج ارسلان فاعتقله بقونية، واستولى على الملك. وكتب في أثر أخيه إلى سيف الدين طرنطاي مع بعض الأكابر من أصحابه أن يمكنوه من الهدايا التي معهم يتوجه بها إلى الخان ويردوا علاء الدين فلم يدركوه حتى دخل بلاد الخان، ونزل على بعض أمرائه فسعى ذلك الرسول في علاء الدين وطرنطاي بأن معهم سما فكبسهم الأمير فوجد شيئاً من المحمودة، فعرض عليهم أكلها فامتنعوا فتخيل تحقيق السعاية فسألوه إحضار الأطباء فأزالوا عنه الشك، وبعث بهم إلى الخان. ومات علاء الدين أثناء طريقة. ولما اجتمعوا عند الخان اتفقوا على ولاية عز الدين كيكاوس وأنه أكبر، وعقدوا له الصلح مع الخان فكتب له وخلع عليهم. ثم كتب بيكو إلى الخان بأن أهل بلاد الروم قاتلوه ومنعوه العبور فأحضر الرسل، وعرفهم الشبر فقالوا إذا بلغناهم كتاب السلطان اذعنوا. فكتب الخان بتشريك الأميرين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان على أن تكون البلاد قسمة بينهما. فمن سيواس إلى القسطنطينية غرباً لعز الدين، ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً المتصلة ببلاد التتر ركن الدين، وعلى الطاعة وحمل الأتاوة

لمنكوخان ملكهم صاحب الكرسي بقراقروم، ورجعوا إلى بلاد الروم وحملوا معه شاه كيغباد إلى أن دفنوه.

استيلاء التتر على قونية:

ثم سار بيكو في عساكر المغل إلى بلاد الروم ثالثة فبعث عز الدين كيكاوس العساكر للقائه مع ارسلان أيدغمش من أمرائه فهزمه بيكو، وجاء في إتباعه إلى قونية فهرب عز الدين كيكاوس إلى العلايا بساحل البحر فنزل بيكو على قونية، وحاصرها حتى استأمنوا إليه على يد خطيبهم. ولما حضر إليه أكرمه ورفع منزلته، وأسلمت أمرأته على يده، وأمن أهل البلد. ثم سار هلاكو إلى بغداد سنة خمس وستين، وبعث عن بيكو وعساكره من بلاد الروم بالحضور معه فاعتذر بالأكراد الذين في طريقه من الفراسلية والياروقية فبعث إليهم هلاكو العساكر فأجفلوا وانتهت العساكر إلى أذربيجان، وقد أجفل أهلها أمام الاكراد فاستولوا عليها. ورجعوا صحبة بيكو إلى هلاكو فحضر معه فتح بغداد وقد مر خبرها في أخبار الخلفاء. ويأتي في أخبار هلاكو ونيال أن بيكو لما بعث هلاكو لم يحضر معه فتح بغداد، واستمر على غدره فلما انقضى أمر بغداد بعث إليه هلاكو من سقاه السم فمات لأنه اتهمه بالإستبداد. ثم سار هلاكو بعد فتح بغداد إلى الشام سنة ثمان وخمسين وحاصر حلب، وبعث عن عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج ارسلان ، وعن معين الدين سليمان البرنواه صاحب دولتهم. وكان من خبره أن أباه مهذب الدين علي كان من الديلم، وطلبط. العلم ونبغ فيه. ثم تعرض للوزير سعد الدين المستوفي أيام علاء الدين كيغباد يسأله أجراء رزقه. وكان وصافا فاستحسنه وزوجه أبنته فولدت سليمان، ونشأ في الدولة. ومات سعد الدين المستوفي فرقى السلطان مهذب الدين إلى الوزارة، وألقى إليه بالمقاليد. ونوفي مهذب الدين وترقى أبنه سليمان مهذب الدولة وكان يلقب معين الدين وترقى في الرتب إلى أن ولي الحجابة وكان يدعى البرنواه، ومعناه الحاجب بلغتهم. وكان مختصاً بركن الدين فلما حضر معهما عند هلاكو كما قلناه حلا بعينه، وقال لركن الدين لا يأتيني في أموركم إلا هذا فرقت حاله إلى أن ملك بلاد الروم أجمع.

الفتنة بين عز الدين كيكاوس وأخيه قليج ارسلان واستيلاء قليج ارسلان على الملك

ثم وقعت الفتنة سنة تسع وخمسين بين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان ، وسار ركن الدين ومعه البرنواه إلى هلاكو يستمده على أخيه فأمده بالعساكر، وحارب أخاه فهزمه عز الدين أولا، ثم أمده هلاكو فانهزم عز الدين ولحق بالقسطنطينية. واستولى ركن الدين

على سائر الأعمال. وهرب التركمان إلى أطراف الجبال والثغور والسواحل، وبعثوا إلى هلاكو يطلبون الولاية منه على أحيائهم فولاهم، وأذن لهم في أتخاذ الآلة فصاروا ملكوكاً من حينئذ. وكان محمد بك أميرهم وأخوه علي بك رديفه فاستدعى هلاكو محمد بك فلم يأته فأمر قليج ارسلان وعساكر التتر الذين معه بقتاله فساروا وقاتلوه فانهزم. ثم استأمن إلى السلطان ركن الدين فأمنه وجاء به إلى قونية فقتله، واستقر علي بك أميراً على التركمان، وأورثها بنيه. واستولى التتر على البلاد إلى أن كان ما سنذكره إن شاء الله.

خبر عز الدين كيكاوس

ولما انهزم عز الدين كيكاوس، ولحق بالقسطنطينية أحسن إليه مخاييل الشكري صاحب قسطنطينية، وأجرى عليه الرزق. وكان معه جماعة من الروم أخواله فحدثتهم أنفسهم بالثورة، وتملك القسطنطينية. ونمي ذلك عنهم فقبض الشكري عليه، وعلى من معه، واعتقله ببعض القلاع. ثم وقعت بين الشكري وبين منكوتمر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان فتنة، وغزا منكوتمر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب إليه كيكاوس من محبسه فمضى معه إلى كرسيه بصراي فمات هنالك سنة سبع وسبعين. وخلف أبنه مسعودا وخطب منكوتمر ملك صراي أمه فمنعها وهرب عنه، ولحق بابق بن هلاكو ملك العراق فأحسن إليه، وأقطعه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان فاستقر بها.

مقتل لكن الدين قليج ارسلان وولاية ابنه كنجسرو:

كان معين الدين سليمان البرنواه قد استبد على ركن الدين قليج ارسلان . ثم تنكر له ركن الدين فخاف سليمان البرنواه على مكان أخيه عز الدين كيكاوس بالقسطنطينية أن يحدث فيه أمراً. فلما بلغه خبر كيكاوس واعتقاله بالقسطنطينية أحكم تدبيره في ركن الدولة فقتله غيلة، ونصب للملك ابنه غياث الدين في كفالته وتحت حجره، واستقل بملك بلاد الروم، واستقامت أموره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر ملك مصر علي قيسارية ومقتل البرنواه

كان هلاكو قد زحف إلى الشام سنة ثمان وخمسين مراراً، وزحف ابنه إبقا كذلك، وقاتلهم الملك الظاهر صاحب مصر والشام. وكان كثيراً ما يخالفهم إلى بلادهم فدخل سنة خمس

وسبعين إلى بلاد الروم، وأميرها يومئذ من التتر طغا. وأمده إبقا بأميرين من التتر وهما كداون وترقوا لحماية بلاد الروم من الظاهر فزحفوا إلى الشام. وسار إليهم الظاهر من مصر في مقدمته سقر الأسقر فلقيت مقدمته مقدمتهم على كوكصو فانهزم التتر، وتبعهم الظاهر، والتقى الجمعان على إبليش فانهزموا ثانية.أثخن فيهم الظاهر بالقتل والأسر إلى قيسارية فملكها. وكان البرنواه قد دسق إليه واستحثه للوصول إلى بلاده فأقام الظاهر على قيسارية ينتظره، وبلغ ملك التتر إبقا خبر الواقعة فزحف في جموع المغل إلى قيسارية بعد منصرف الظاهر إلى بلاده. فلما وقف على مصارع قومه وجد على البرنواه وصدقت عنه السعاية فيه، وأنه الذي استحث الظاهر لأنه لم ير في المعركة مصرع أحد من بلاد الروم، ورجع إلى معسكره ومعه سليمان البرنواه واستبد بملكه. والله تعالى ولي التوفيق، وهو نعم الرفيق، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه سبحانه.

خلع كنجسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه كيكاوس

كان قنطغرطاي بن هلاكو مقيماً ببلاد الروم مع غياث الدين كنجسرو ملك بلاد

الروم وصار أمير المغل بها منذ عهد أبقا. ولما ولي أحمد تكرار بن هلاكو بعد أخيه أبقا بعث عن أخيه قنطغرطاي فامتنع من الوصول إليه خشية على نفسه. ثم حمله غياث الدين على إجابة أخيه، وسار معه فقتل تكرار أخاه قنطغرطاي، واتهم المغل غياث الدين بأنه علم برأي تكرار فيه واعتمد. فلما ولي أرغون بن إبقا بعد تكرار عزل غياث الدين عن بلاد الروم وحبسه بارزنكاي، وولي مكانه على المغل ببلاد الروم هولاكو وذلك سنة إثنتين وثمانين. وأقام مسعود ملكاً ببلاد الروم سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأصابه الفقر وانحل أمره، وبقي الملك بها للتتر. ثم فشل أمرهم واضمحلت دولتهم إلا بقايا بسيواس من بني أرثا مملوك دمرداش بن جومان. واستولى التركمان على تلك البلاد أجمع،وأصبح ملكها لهم، والله غالب على أمره يؤتي الملك من يشاء وهو العزيز الحكيم

خريطة

الخبر عن بني سكمان موالي السلجوقية ملوك. خلاط وبلاد أرمينية ومصير الملك إلى مواليهم من بعدهم ومبادي أمرهم وتصاريف أحوالهم:

كان صاحب مزيد من أذربيجان اسمعيل بن ياقوتي بن داود أخو ألب ارسلان، وداود أخو طغرلبك كما مر ولقب إسمعيل قطب الدولة. وكان له مولى تركي إسمه سكمان بالكاف والقاف. وكان ينسب إليه فيقال سكمان القطبي، وكان شهماً عادلا في أحكامه. وكانت خلاط وأرمينية لبني مروان ملوك ديار بكر، وكانوا في آخر دولتهم قد اشتد عسفهم وظلمهم، وساء حال أهل البلد معهم فاجتمع أهل خلاط وكاتبوا سكمان واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار إليهم سنة اثنتين وخمسمائة إلى ميافارقين من ديار بكر فحاصرها حق استأمنوا إليه وملكها.ثم أمر السلطان محمد شاه بن ملك شاه الأمير مودود بن مزيد ابن صدقة صاحب الموصل بغزو الإفرنج وانتزاع البلاد من أيديهم وأمر أمراء الثغور بالمسير معه فسار معه برسق صاحب همذان، وأحمد بك صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل وأبو الغازي صاحب ماردين، وسقمان القطبي صاحب ديار بكر. فساروا لذلك وفتحوا عدة حصون، وحاصروا الرها فامتنعت عليهم، ثم تل ناشر كذلك. واستدعاهم رضوان بن نتش صاحب حلب فلما ساروا إليه امتنع من لقائهم. ومرض سكمان القطبي هنالك فرجع عنهم وتوفي في طريقه ببالس. وافترقت العساكر، وملك خلاط وبلاد ارمينية بعد مهلكه ابنه ظهير الدين إبراهيم، وسار فيهم بسيرة أبيه إلى أن هلك سنة إحدى وعشرين. وملك بعده أخوه أحمد بن سكمان عشرة أشهر. ثم توفي فنصب أصحابه للملك بأرمينية وخلاط شاه أرمن سكمان ابن أخيه إبراهيم بن سكمان صبياً دارجا. واستبدت عليه جدته أم إبراهيم. ثم أزمعت قتله فقتلها أهل الدولة.وعمد سنة ثمان وعشرين، واستبد شاه أرمن، وكانت بينه وبين الكرج وقائع.وساروا سنة ست وخمسمائة إلى مدينة أنى من أعمال أزان فاستباحوها. وسار إليهم في العساكر فهزموه ونالوا منه، وكانت عنده أخت طليق بن علي صاحب أرزن الروم، ووقعت بينه وبين الكرج حرب فانهزم طليق وأسر وبعث شاه أرمن إلى ملك الكرج وفادى طليقاً ورده إلى ملكه

بارزن.ثم استولى صلاح الدين بن أيوب على مصر والشام واستفحل ملكه، وكاتبه مظفرالدين كوكبري وأغراه بملك الجزيرة، ووعده بخمسين ألف دينار. وسار صلاح الدين إلى سنجار فحاصرها وهو جمع المسير إلى الموصل، وبها يومئذ عز الدين مودود بن زنكي فاستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط فبعث شاه أرمن مولاه مكتمر إلى صلاح الدين شفيعاً في صاحب الموصل، ووفد عليه وهو محاصر لسنجار، ولم يشفعه صلاح الدين فرجع عنه مغاضباً. وسار شاه أرمن لقتاله واستدعى قطب الدين نجم الدين إلى صاحب ماردين وهو ابن أخيه، وابن خال عز الدين. وحضر معه دولة شاه بن طغرك شاه بن قليج ارسلان صاحب . وسار سنة ثمان وسبعين وقد ملك صلاح الدين سنجار وافترقت العساكر. فلما بلغه مسيرهم بعث عن تقي الدين ابن أخيه شاه من حماة فوافاه سريعا، ورحل إلى رأس عين وافترقت جموعهم. وسار صلاح الدين إلى ماردين فعاث في نواحيها ورجع. ثم سار إلى الموصل آخر إحدى وثلاثين، وعبر إلى الجزيرة، وانتهى إلى حران. ولقيه مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ولم يف له بالخمسين ألفاً التي وعده بها. وأخذ منه حران والرها. ثم أطلقه بما نفذه من مكاتبته وعاد عليه بلدته، وسار من حران فحضر عنده عساكر الحصن وداراً، ولقيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ابن أخي عز الدين مودود مفارقا لطاعة عفه، وسار معه إلى الموصل. ولما انتهى إلى مدينة بله بعث إليه عز الدين ابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة راغبين في الصلح فأكرمهم، واستشار أصحابه من أعيان الدولة فأشار علي بن أحمد المشطوب كبير الهكارية بالامتناع من ذلك فردهم صلاح الدين واعتذر، وسار فنزل على فرسخين من الموصل واشتدوا في مدافعته فامتنعوا عليه فندم على عدم الصلح. ورجع على علي المشطوب ومن وافقه باللائمة. وخاطبه القاضي الفاضل البيساني من مصر، وعزله في ذلك. وجاء زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فتلقاهما بالتركمه، وأنزلهما مع الحشود الوافدة بالجانب الشرقي. وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحاصرها، واجتمع عليه الاكراد ولم يزل محاصرا لها حتى عاد صلاح الدين من الموصل. وأقام صلاح الدين

على حصارها مدة. وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود إليها، وكان يقتدي برأي مجاهد الدين وبعثه في الصلح فسعى فيه إلى أن تحمله ووصل صلاح الدين إلى ميارفارقين

.

وفاة شاه أرمن سكمان وولاية مكتمر مولى أبيه

ثم لوفي شاه أرمن سقمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط سنة ست وسبعين، وكان مكتمر مولى أبيه بميافارقين فأسرع الوصول بمن معه من المماليك، واستولى على كرسي بني سكمان. وولى على ميافارقين أسد الدين برتقش من موالي شاه أرمن. وكان البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهمذان مر بقائد ملوك السلجوقية وقد زوج ابنته من شاه أرمن طمعا في ملك خلاط. فلما توفي شاه أرمن سار إليها في عساكره فكاتب أهل خلاط صلاح الدين بن أيوب، ودافعوا كلا منهما بالاخر. وسار صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما. ونزلوا قريباً من خلاط فتردد الرسل من صلاح الدين، ومن شمس الدين البهلوان إلى أهل خلاط وهم يدافعون الفريقين. وكان قد بلغه وفاة صاحبها قطب الدين، وأن برتقش نصب ابنه طفلا صغيراً واستبد عليه، فسار صلاح الدين إليها وحاصرها حتى تسلمها على الأمان، وأقام مكتمر أميراً بخلاط، وطالت مدته، وجرت بينه وبين صلاح الدين فتن وحروب إلى أن توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين. فأظهر الشماتة به وتسمى عبد العزيز، وتلقب سيف الدين وتوفي أثر ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة مكتمر وولاية اقسنقر

كان مكتمر لأول ولايته قد اختص اقسنقر من موالي شاه ارمن وتلقب هزار ديناري وزوجه ابنته، وجعله أتابكه فأقام على ذلك مدة. ثم استوحش من مكتمر وتربص به حتى إذا توفي صلاح الدين تجهز مكتمر من ميافارقين فامكنته فيه الفرصة فقتله لعشر سنين من ولايته ؛ وذلك بعد وفاة صلاح الدين بشهرين واستبد بملك خلاط وارمينية، واعتقل ابن مكتمر وأمه في بعض القلاع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة اقسنقر وولاية محمد بن مكتمر :

ثم هلك اقسنقر صاحب خلاط وارمينية سنة أربع وتسعين، لخمس سنين من

ملكه. وقام بملك خلاط بعده حجر اشتد قطلغ الأرمني، ولم يرضه أهل خلاط فوثبوا به لسبعة أيام من ولايته وقتلوه. واستدعوا محمد بن مكتمر من محبسه وملكوه ولقبوه الملك المنصور، وقام بدولته

شجاع الدين قطلغ القفجاقي دوادار شاه أرمن، وأقام تحت استبداده إلى سنة ثلاث وستمائة. ثم دبر على الدوادار وقبض عليه، وكان حسن السيرة فاستوحش لذلك الجند والعامة. وعكف بعد نكبة الدوادار على لذاته فاجتمع أهل خلاط والجند، وكبيرهم بلبان مملوك شاه ارمن. وكتبوا إلى أرتق بن أبي الغازي بن إلى صاحب ماردين يستدعونه للملك، بما كان ابن أخت شاه أرمن. وجاهر بلبان بالعصيان إلى ملازكرد واجتمع الجند عليه.

نكبة ابن مكتمر واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها

ولما ملك بلبان مدينة ملازكرد وأعمالها، واجتمع عليه الجند وسار يريد خلاط،

ووصل أرتق بن أبي الغازي صاحب ماردين لموعدهم، ونزل قريباً من خلاط فبعث إليه بلبان أن الجند والرعية اتهموني فيك فارجع، وإذا ملكت البلد سلمته إليك فتنخ قليلا فبعث إليه يتوعده على مقالته وبطئه. فعاد إلى ماردين، وكان الأشرف موسى بن العادل بن أيوب صاحب الجزيرة وحران لما سمع بمسير أرتق إلى خلاط طمع فيها لنفسه، وخشي أن يزداد بملكها قوة عليهم فخالفه إلى ماردين، وأقام بتدليس، وجبى ديار بكر حتى استوعبها وعاد إلى حران. ثم جمع بلبان العساكر، وسار إلى خلاط فحاصرها. وبرز ابن مكتمر فيمن عنده فانهزم بلبان وعاد إلى ولايته بملازكرد وأرجيش وغيرها. ثم جمع ورجع إلى خلاط فحاصرها وضيق عليها، وابن مكتمر عاكف على لذاته. فلما جهدهم الحصار ثاروا به وقبضوه، ومكنوا بلبان منه. ودخل إلى خلاط واستولى عليها وعلى سائر أعمالها، وحبس ابن مكتمر في قلعة هناك واستبد بملكهما. وكان الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل بن أيوب قد ولي على ميافارقين من قبل أبيه إلى خلاط سنة أربع وستمائة، وقصد مدينة سوس وحاصرها وملك ما يجاورها، وعجز بلبان عنه. ثم ملك سوس وقصد خلاط فبرز له بلبان وهزمه فعاد إلى ميافارقين وجمع واستمد أباه العادل فأمده بالعساكر، ونهض إلى خلاط فبرز له بلبان ثانية، وهزمه الاوحد وحاصره في خلاط فبعث بلبان إلى طغرك يستنجده فانهزم الأوحد أمامهما. وسار بلبان مع طغرل إلى مراش فحاصرها وغدر به طغرك وقتله، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فسار إلى

ملازكرد فمنعوه كذلك فعاد إلى أرزن. وأرسل خلاط بطاعتهم إلى الأوحد نجم الدين فجاء وملك خلاط، واستولى على أعمالها. وزحف الكرج فأغاروا على خلاط وعاثوا في نواحيها، والأوحد مقيم بخلاط لم يفارقها. وانتقض عليه جماعة من العسكر بحصن رام، وساروا إلى مدينة ارجيش فملكوها واجتمع إليهم المفسدون. وبعث نجم الدين إلى أبيه العادل يستنجده

فأمده بابنه الآخر شرف الدين موسى فحاصر حسن رام حتى استأمن إليه من كان به من الجند، ورجع الأشرف إلى عمله بحران والرها، واستقر نجم الدين بخلاط. ثم سار إلى ملازكرد ليطالع أمورها ويمهدها فثار أهل خلاط بعسكره فأخرجوهم، وحصروا أصحاب نجم الدين بالقلعة، ونادوا بشعار شاه أرمن وقومه فرجع الأوحد، ولاقاه عسكر الجزيرة وحاصر خلاط. ثم اختلف أهلها فدخلها عليهم عنوة واستباحها. ونقل جماعة من أعيانها إلى ميافارقين، وقتل كثيراً منهم هنالك. واستكان أهل خلاط بعدها وانمحى منها حكم المماليك بعد أن كانوا مستحكمين فيها يولون ملوكها ويخلعونهم. وانقرضت دولة بني سكمان من خلاط، وصارت لبني أيوب والبقاء لله وحده، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وإليه المرجع.

خريطة

أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغوره وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك ومصائره

قد تقدم لنا أول الكتاب الكلام في أنساب هذه الأمة، عند ذكر أنساب الأمم، وأنهم من ولد يافث بن نوح، ثم من ولد ريفات بن كومر بن يافث أخوة الصقالبة والخزر والترك. وقال هروشوش أنهم من عصر ابن غومر. وأمّا مواطنهم من بلاد المعمور فإنهم من شمال البحر الرومي من خليج رومة إلى ما وراء النهر غرباً وشمالاً ، وكانوا أوّلا يدينون لليونان والروم بالطاعة عند استفحال أمرهم فلما إنقرضت دولة أولئك استقلّ هؤلاء الإفرنج بملكهم وافترقوا دولاً مثل دولة القوط بالأندلس والجلالقة بعدهم، وملك اللمانين بالتفخيم من جزيرة إنكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي وما يحاذيه ويقابله من المعمور، ومثل ملوك إفرنسة وهو عندهم إسم إفرنجة بعينه والجيم ينطقون بها سينا. وهم ما وراء خليج رومة غرباً إلى الثنايا المفضية إلى جزيرة الأندلس في الجبل المحيط من شرقيها وتسمى تلك الثنايا البردت. وكانت دولة هؤلاء الإفرنس منهم من أعظم دولهم، واستفحل أمرهم بعد الروم وصدرا من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها. وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة. وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم إلى صقلية، وملكها من يد المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة. ثم سموا إلى ملك ما وراء النهر من أفريقية وبلاد الشام والإستيلاء على بيت المقدس، وطال ترددهم في ذلك ثم استحثهم وحرضهم عليه فيما يقال خلفاء العبيديين بمصر لما استفحل ملك السلجوقية وانتزعوا الشام من أيديهم، وحاصروهم في مصر فيقال أنّ المستنصر منهم دس إلى الإفرنج بالخروج، وتسهيل أمرهم عليه ليحولوا بين السلجوقية وبين مرامهم فتجهز الإفرنج لذلك، وجعلوا طريقهم في البرّ على القسطنطينية. ومنعهم ملك الروم من العبور عليه من الخليج حتى شرط عليهم أن يسلموا له إنْطاكِية لكون المسلمين كانوا أخذوها من مماليكهم فقبلوا شرطه، وسهل لهم العبور في خليجه فأجازوا سنة تسعين وأربعمائة في العدد والعدّة وانتهوا إلى بلاد قليج

ارسلان وجمع للقائهم فهزموه وفرّ بلاد ابن اليون الأرمني ووصلوا إنْطاكِية، وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فحاصروه بها وخذلوا صاحب حلب ودمشق على صريخه بأن لا يقصدوا غير إنْطاكِية

فأسلموه حتى ضاق به الحصار وغدر به بعض الحامية فملك الإفرنج البلاد، وهرب باغيسيان فقتل وحمل إليهم رأسه وكان ملوكهم الحاضرون لذلك خمسة بردويل وصنجيل وكبريري والقمص وإسمند وهو مقدم العساكر فردّوا إليه أمر إنْطاكِية وبلغ الخبر إلى المسلمين فسافروا إليهم شرقاً وغرباً وسار قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجمع عساكر الشام، وسار إلى دمشق فخرج إليهم دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان صاحب سنجار، وسكمان أرتق وغيرهم من الأمراء، وزحفوا إلى إنْطاكِية فحاصروها ثلاثة عشر يوماً ووهن الإفرنج واشتدّ عليهم الحصار لما جاءهم على غير استعداد، وطلبوا الخروج على الأمان فلم يسعفوا. ثم اضطرب أمر عساكر المسلمين، وأساء كربوقا السيرة فيهم، وأزمعوا من استكثاره عليهم ، فخرج الإفرنج إليهم، واستماتوا فتخاذل المسلمون، وإنهزموا من غير قتال، حتى ظنها الإفرنج مكيدة فتقاعدوا عن إتباعهم، واستشهد من المسلمين ألوف، والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على معرّة النعمان ثم على بيت المقدس

ولما حصلت للإفرنج هذه النكاية في المسلمين طمعوا في البلدا وساروا إلى معرّة النعمان وحاصروها. واشتدّ القتال في أسوارها حتى داخل أهلها الجزع فتحصنوا بالدور، وتركوا السور فملكه الإفرنج ودخلوا عليهم فاستباحوها ثلاثاً. وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا إلى غزة وحاصروها أربعة أشهر، وامتنعت عليهم فصالحهم ابن منقذ عليها. وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم عليها جناح الدولة. وساروا إلى عكا فامتنعت عليهم. وكان بيت المقدس قد ملكه السلجوقية وصار لتاج الدولة تتش، وأقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان. فلما كانت واقعة الإفرنج بإنطاكية طمع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر الجُمال المستولي على العلويين بمصر إلى بيت المقدس، وبها سكمان وأبو الغازي إبناً أرتق وابن عمهما سوع ، وابن أخيهما ياقوتي فحاصروه نيفا وأربعين يوماً ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقاً، وملكوه بالأمان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وأحسن

الأفضل إلى سكمان وأبي الغازي وأصحابها، وسرحهم إلى دمشق وعبروا الفرات وأقام سكمان بالرها، وسار أبو الغازي إلى العراق، واستناب الأفضل عليها افتخار الدولة الذي كان بدمشق فقصده الإفرنج بعد أن حاصروا عكا، وامتنعت عليهم

فحاصروه أربعين ليلة، وافترقوا على جوانب البلد فملكوها من الجانب الشمالي آخر شعبان من السنة. واستباحوها وأقاموا فيها أسبوعاً. واعتصم بعض المسلمين بمحراب داود، وقاتلوا فيه ثلاثاً حتى استأمنوا ولحقوا بعسقلان وأحصى القتلى من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين بالمسجد فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون وأخذ من المناور المعلقة عند الصخرة أربعون قنديلا من الفضة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة وستون درهماً من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي ومائة وخمسون قنديلاً من الصغار، وما لا يحصى من غير ذلك وجاء الصريخ إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي ووصف في الديوان صورة الواقعة فكثر البكاء والأسف، ووسم الخليفة بمسير جماعة من الأعيان والعلماء، فيهم القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو الوفاء بن عقيل إلى السلطان بركيارق يستصرخونه للإسلام. فساروا إلى حلوان، وبلغهم إضطراب الدولة السلجوقية، وقتل محمد الملك ألب ارسلان المتحكم في الدولة، واختلاف السلاطين فعادوا. وتمكن الإفرنج من البلاد وولوا على بيت المقدس كندفري من ملوكهم.

عساكر مصر وحرب الإفرنج

مسير العساكر من مصر لحرب الإفرنج

ولما بلغ خبر الواقعة إلى مصر جمع الأفضل الجيوش والعساكر، واحتشد وسار إلى عسقلان. وأرسل إلى الإفرنج بالنكير والتهديد فأعادوا الجواب، ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على غير أهبة فهزموه واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم، ودخل الأفضل عسقلان وافترق المنهزمون. واستبدّوا وابخر الحمير، ووصل الأفضل من عسقلان إلى مصر، ونازلها الإفرنج حتى صانع أهلها الإفرنج بعشرين ألف دينار، وعادوا إلى القدس.

إيقاع ابن الدانشمند بالإفرنج

كان كمستكين بن الدانشمند من التركمان، ويعرف بطابوا. ومعنى الدانشمند المعلم كان أبوه يعلم التركمان، وتقلبت به الأحوال حتى ملك

سيواس وغيرها. وكان صاحب ملطية يعاديه فاستنجد عليه إسمند صاحب إنْطاكِية فجاءه في خمسة آلاف، وسار إليه ابن الدانشمند وأسره. ثم جاء الإفرنج إلى قلعة أنكورية فملكوها، وقتلوا من بها من المسلمين. ثم حاصروا إسماعيل بن

الدانشمند فلقيهم كمستكين وهزمهم واستلحمهم، وكانوا ثلثمائة ألف. ثم ساروا إلى ملطية فملكوها وأسروا صاحبها. وزحف إليه إسمند من إنْطاكِية في الإفرنج فهمّ بهم ابن الدانشمند. فأتاح الله للمسلمين على يده هذا الظهور في مدد متقاربة، حتى خلص إسمند من الأسر. وجاء إلى إنْطاكِية والإفرنج بها، وبعث إلى قيس والعواصم وما جاورها يطلب الإمارة فامتعض المسلمون لذلك، وقلدوه بعد العهد الذي إلتزمه.

حصار الإفرنج قلعة جبلة

كانت جبلة من أعمال طرابلس، وكان الروم قد ملكوها، وولوا على المسلمين بها

ابن رئيسهم منصور بن صليحة يحكم بينهم. فلما صارت للمسلمين رجع أمرها لجمال الملك أبي الحسن علي بن عمار المستبدّ بطرابلس، وبقي منصور بن صليحة على عادته فيها. ثم توفي منصور فقام إليه أبو محمد عبد الله مقامه وأظهر الشماتة فارتاب به ابن عمار، وأراد القبض عليه فعصى هو في جبلة وأقام بها الخطبة العباسية، واستنجد عليه ابن عمار دقاق بن تتش فجاءه، ومعه أتابك طغركين فامتنع عليهم ورجعوا. ثم جاء الإفرنج فحاصروها فامتنعت عليهم أيضاً وشاع أن بركيارق جاء إلى الشام فرحلوا. ثم عادوا وأظهروا أن المصريين جاؤا لإنجاده فرحلوا. ثم عادوا فتقدّم للنصارى الذين عنده أن يداخلوا الإفرنج في نقب البلد من بعض أسواره فجهزوا إليهم ثلثمائة من أعيانهم فرفعهم بالحبال واحداً بعد واحد، وهو قاعد على السور حتى قتلهم أجمعين فرحلوا عنه ثم عادوا إليه فهزمهم وأسر ملهم كبرانيطل، وفادى نفسه منه بمال عظيم ثم ابن صليحة وجهده الحصار فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق. وبعث ابن عمار في طلبه إلى الملك دقاق على أن يدفعه إليه بنفسه دون ماله، ويعطيه ثلاثين ألف دينار فلم يفعل. وسار ابن صليحة إلى بغداد فوعده إلى وصول رحله من الأنبار فبعث الوزير من استولى عليها فوجد فيها ما لا يحصى من الملابس والعمائم والمتاع، وانتزع ذلك كله. ولما ملك تاج الملوك جبلة أساء فيها السيرة فراسلوا فخر الملك أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستدعوه

لملكها فبعث إليهم عسكراً وقاتلوا تاج الملك ومن معه فهزموه وأخذوه أسيرا

ً

وملكوا جبلة بدعوة ابن عمار وحملوا تاج الملك إلى ابن عمار فأحسن إليه، وبعث إلى أبيه بدمشق واعتذر له بأنه خاف على جبلة من الإفرنج.

استيلاء الإفرنج علي سروج وقيسارية وغيرهما

ثم سار كبريري ملك الإفرنج من بيت المقدس سنة أربع وتسعين لحصارها فأصابه

منهم سهم فقتله، فسار أخوه بغدوين في خمسمائة فارس إلى القدس. ونهض دقاق صاحب دمشق، ومعه جناح الدولة صاحب حمص لاعتراضه فهزموا الإفرنج وأثخنوا فيهم ثم كاتب أهل المدينة الإفرنج وكان أكبرهم، ودخل في طاعتهم. وكان سقمان بن أرتو صاحب سروج جمع جموعه من التركمان، وسار إلى الرها فلقيه الإفرنج وهزموه في ربيع سنة أربع وتسعين. وساروا إلى سروج فحاصروهم حتى ملكوها عنوة واستباحوها. ثم ملكوا حصن كيفا بقرب عكا عنوة، وملكوا أرسوف بالأمان. ثم ساروا في رجب إلى قيسارية فملكوها عنوة واستباحوها، والله تعالى ولي التوفيق بمنّه كرمه.

حصار الإفرنج طرابلس وغيرها

كان صنجيل من ملوك الإفرنج المذكورين قبل قد لازم حصار طرابلس، وزحف

إليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به. وعاد صنجيل مهزوماً فأرسل فخر الدولة بن عمار صاحب طرابلس، إلى أمير آخر، نائب جناح الدولة بحمص إلى دقاق بن تتش يدعوه إلى معالجته. فجاء تاج الدولة بنفسه، وجاء العسكر مدداً من عند دقائق، واجتمعوا على طرابلس. وفرّق صنجيل الفلّ الذين معه على قتالهم فانهزموا كلهم، وفتك هو في أهل طرابلس وشدّ حصارها. وأعانه أهل الجبل والنصارى من أهل سوادها. ثم صالحوه على مال وخيل. ورحل عنهم إلى طرطوس من أعمال طرابلس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها إلى حصن الطومار ومقدمه ابن العريض فامتنع عليهم، وقاتلهم صنجيل فهزموا عسكره، وأسروا زعيماً من زعماء

الإفرنج بدل صنجيل فيه عشرة آلاف دينار وألف أسير، ولم يعاوده. وذلك كله سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ثم سار صنجيل إلى حصن الأكراد وحاصره جناح الدولة لغزوه فوثب عليه

باطني بالمسجد وقتله. ويقال أنّ رضوان بن تتش وضعه عليه فسار صنجيل إلى حمص، وحاصرها وملك أعمالها. ثم نزل القمص على عكا في جمادي الأخيرة من السنة فنفر المسلمون من جميع السواحل لقتاله، وهزموه وأحرقوا أهله والمنجنيقات التي نصبت للحرب. ثم سار القمص صاحب الرها إلى السروج وحاصرها فامتنعت عليه، وزحف عساكر مصر إلى عسقلان للمدافعة عن سواحلهم فزحف إليهم بردويل صاحب القدس فهزمه المسلمون، ونجا إلى الرملة، وهم في أتباعه فحاصروه وخلص إلى يافا، وفشل القتل والأسر في الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حصار الإفرنج عسقلان وحروبهم مع عساكر مصر

لما طمع الإفرنج في عسقلان، واستفحل أمرهم بالشام، جهز الأفضل أمير الجيوش عساكره من مصر لحربهم سنة ست وتسعين مع سعد الدولة القواسي مولى أبيه. وزحف بغدوين ملك الإفرنج من القدس فلقيهم بين الرملة ويافا وهزمهم. ومات سعد متردّياً عن فرسه، واستولى الإفرنج على سواده. وبعث الأفضل بعده إبنه شرف المعالي فلقيهم في العساكر على بازور قرب الرملة فهزمهم ونال منهم، ونجا كثير من أعيانهم إلى بعض الحصون هنالك فحاصرهم شرف المعالي خمس عشرة مرة ليلة، وملك الحصن فقتل وأسر ونجا بغدوين إلى يافا ، ثم إلى القدس فصادف وصول جمع كثير من الإفرنج لزيارة القدس فندبهم للغزو فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي فامتنعت ورجعوا وبعث شرف المعالي إلى أبيه فبعث العساكر في البرّ مع تاج العجم مولى أبيه، والأسطول في البحر لحصار يافا مع القاضي ابن دقاوس. فلما وصل الأسطول إلى يافا بعث عن تاج العجم ليأتيه بالعساكر فامتنع، فأرسل الأفضل من قبض عليه، وولّى على العساكر وعلى عسقلان جمال الملك من مواليهم فانصرفت السنة، وبيد الإفرنج بيت المقدس غير عسقلان، ولهم أيضاً من الشام يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والأردن واللاذقية وإنْطاكِية، ولهم بالجزيرة الرها وسروج وصنجيل محاصر فخر الملك بن عمار بمدينة طرابلس، وهو يرسل أسطوله للإغارة على بلاد الإفرنج في كل ناحية. ثم دخلت سنة سبع وتسعين فخرج الإفرنج

الذين بالرها فأغاروا على الرقة وقلعة جعفر، واكتسحوا نواحيها. وكانت لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد منذ ملكه السلطان ملك شاه إياها سنة تسع وسبعين كما مرّ الله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وصلت مراكب من بلاد الإفرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجّار والحجّاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس فحاصروها حتى يئسوا منها فارتحلوا إلى جبيل وملكوها بالأمان. ثم غدروا بأهلها وأفحشوا في استباحتها. ثم استنجدهم بغدوين ملك القدس على حصار عكا فحاصروها برّاً وبحراً وفيها بهاء الدولة الجيوشي من قبل ملك الجيوش الأفضل صاحب مصر فدافعهم حتى عجزوا، وهرب عنها إلى دمشق وملك الإفرنج عكا عنوة وأفحشوا في استباحتها، والله تعالى أعلم.

غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الفرنج

كان المسلمون أيام تغلب الإفرنج على الشام في فتنة واختلاف تمكن فيها الإفرنج واستطالوا وكانت حرّان وحمص لمولى من موالي ملك شاه إسمه قراجا، والموصل لجكرمش وحصن كيفا لسقمان بن أرتق وعصى في حران على قراجا بأمته فيها فاغتاله جاولي، مولى من موالي الترك وقتله فطمع الإفرنج في حرّان وحاصروها. وكان بين جكرمش وسقمان فتنة وحرب فوضعوا أوزارها لتلافي حران، واجتمعا على الخابور وتحالفا، ومع سقمان سبعة آلاف من قومه التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف من قومه الترك، ومن العرب والأكراد. وسار إليهم الإفرنج من حران فاقتتلوا، واستطرد لهم المسلمون بعيداً، ثم كروا عليهم فأثخنوا فيهم واستباحوا أموالهم وكان إسمند صاحب أنْطاكِية وشكرى صاحب الساحل قد أكمنوا للمسلمين وراء الجبل فلم يظهر لهم أنهم أصحابهم، وأقاموا هنالك إلى الليل. ثم هربوا وشعر بهم المسلمون فاتبعوهم وأثخنوا فيهم. وأسر في تلك الواقعة القمص بردويل صاحب الرها، أسره بعض التركمان من أصحاب سقمان فشق ذلك على أصحاب جكرمش لكثرة ما امتاز به التركمان من الغنائم، وحسنوا له أخذ القمص من سقمان فأخذه وأراد التركمان محاربة جكرمش وأصحابه عليه فمنعهم سقمان حذراً من إختلاف المسلمين وسار مفارقاً لهم وكان يمرّ

بحصون الإفرنج فيخرجون إليه ظناً بنصر أصحابهم فملكها عليهم. وسار جكرمش إلى حران فملكها وولى عليها من قبله. ثم سار إلى الرها وحاصرها أياماً وعاد إلى الموصل وفادى القمص برديل بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين أسيراً، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه.

حرب الإفرنج مع رضوان بن تتش صاحب حلب

ثم سار شكري صاحب إنْطاكِية من الإفرنج سنة ثمان وتسعين إلى حصن أريام من حصون رضوان صاحب حلب فضاقت حالهم واستنجدوا برضوان فسار إليهم، وخرج الإفرنج للقائه. ثم طلب الصلح من رضوان فمنعه أصبهبد صباوو، من أمراء السلجوقية كان نزع إليه بعد قتل صاحبه أياز، ولقيهم الإفرنج فانهزموا أوّلاً ثم استماتوا وكرّوا على المسلمين فهزموهم وأفحشوا في قتلهم، وقتل الرجالة الذين دخلوا عسكرهم في الحملة الأولى. ونجا رضوان وأصحابه إلى حلب، ولحق صباوو بطغركين أتابك دمشق، ورجع الإفرنج إلى حصار الحصن فهرب أهله إلى حلب وملكه الإفرنج ، والله تعالى ولي التوفيق.

حرب الإفرنج مع عساكر مصر

كان الأفضل صاحب مصر قد بعث سنة ثمان وتسعين إبنه شرف المعالي في العساكر إلى الرملة فملكها، وقهر الإفرنج. ثم اختلف العسكر في إدعاء الظفر وكادوا يقتتلون، وأغار عليهم الإفرنج فعاد شرف المعالي إلى مصر فبعث الأفضل إبنه الآخر سناء الملك حسيناً مكانه في العساكر، وخرج معه جمال الدين صاحب عسقلان، واستمدوا طغركين أتابك دمشق فجهز إليهم أصبهبد صباوو من أمراء السلجوقية. وقصدهم بغدوين صاحب القدس وعكا فاقتتلوا وكثرت بينهم القتلى، واستشهد جمال الملك نائب عسقلان وتحاجزوا، وعاد كل إلى بلده. وكان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكباش بن تتش ذهب مغاضباً عن دمشق لما عدل عنه طغركين الاتابك بالملك إلى ابن أخيه دقاق، وأقام عند الإفرنج، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بِمنّه.

حرب الإفرنج مع طغركين

كان قمص من قمامصة الإفرنج بالقرب من دمشق، وكان كثيراً ما يغير عليها ويحارب عساكرها

فسار إليه طغركين في العساكر، وجاء بقدوين ملك القدس لإنجاده على المسلمين فرده ذلك القمص ثقة بكفاءته فرجع إلى عكا وسار طغركين إلى الإفرنج فقاتلهم وحجزهم في حصنهم. ثم خرب الحصن وألقى حجارته في الوادي وأسر الحامية الذين به، وقتل من سواهم من أهله وعاد إلى دمشق ظافراً. ثم سار بعد أسبوع إلى وبه ابن أخت صنجيل فملكه وقتل حاميته.

استيلاء الإفرنج على حصن أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي متغلباً على حمص وملكها منه تتش كما مر، وانتقلت الأحوال إلى مصر. ثم أن رضوان صاحب حلب إنتقض عليه وإليه بحصن أفامية، وكان من الرافضة فبعث بطاعته إلى صاحب مصر، واستدعى منهم والياً فبعثوا خلف بن ملاعب لإيثاره الجهاد وأخذوا رهنه فعبى في أفامية واستبدّ بها واجتمع عليه المفسدون. ثم ملك الإفرنج من أعمال حلب وأهله رافضة، ولحق قاضيها بابن ملاعب في أفامية. ثم اعمل التدبير عليه، وبعث إلى أبي طاهر الصائغ من أصحاب رضوان وأعيان الرافضة ودعاتهم، وداخله في الفتك بابن ملاعب وتسليم الحصن إلى رضوان. وشعر بذلك إبنا ابن ملاعب وحذرا أباهما من تدبير القاضي عليه وجاء القاضي فحلف له على كذبه، وصدّقه وعاد القاضي إلى مداخلة أبي طاهر ورضوان في ذلك التدبير، وبعثوا جماعة من أهل سرمين بخيول وسلاح يقصدون الخدمة عند ابن ملاعب فأنزلهم بربض أفامية حتى تمّ التدبير، وأصعدهم القاضي وأصحابه ليلاً إلى القلعة فملكوها وقتلوا ابن ملاعب. وهرب ابناه فلحق أحدهما بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر وقتل الآخر. وجاء أبو طاهر الصائغ إلى القاضي يعتقد أن الحصن له فلم يمكنه القاضي وأقام عنده. وكان بعض بني خلف بن ملاعب عند طغركين بدمشق مغاضباً لأبيه فولاه حصناً من حصونه فأظهر الفساد والعيث فطلبه طغركين فهرب إلى الإفرنج، واستحثهم لملك أفامية فحاصروه حتى جهد أهله الجوع وقتلوا القاضي المتغلب فيه والصائغ، وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

خبر الإفرنج في حصار طرابلس

كان صنجيل من ملوك الإفرنج ملازماً لحصار طرابلس، وملك جبلة من يد ابن أبي صليحة وبنى على طرابلس حصنا وأقام عليها. ثم هلك وحمل إلى القدس ودفن. وأمر ملك الروم أهل اللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الإفرنج المحاصرين طرابلس فحملوها في السفن. وظفر أصحاب ابن عمار ببعضها فقتلوا وأسروا واستمّر الحصن خمس سنين فعدمت الأقوات. واستنفد أهل الثروة مكسوبهم في الانفاق وضاقت أحوالهم، وجاءتهم سنة خمسمائة ميرة في البحر من جزيرة قبرص وإنْطاكِية وجزائر البنادقة فحفظت أرماقهم. ثم بلغ ابن عمار إنتظام الأمر للسلطان محمد بن ملك شاه بعد أخيه بركيارق فارتحل إليه صريخاً، واستخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب في طرابلس. وخيم ابن عمار على دمشق وأكرمه طغركين. ثم سار إلى بغداد فأكرمه السلطان محمد وأمر بتبليغه والإحتفال لقدومه ووعده بالإنجاد

ولما رحل عن بغداد أحضره عنده بالنهروان، وأمر الأمير حسين بن أتابك قطلغتكين بالمسير معه، وأن يستصحب العساكر التي بعثها مع الأمير مودود إلى الموصل لقتال جاولي سكاوو وأمره بإصلاح جاولي والمسير مع ابن عمار حسبما مرّ في أخبارهم. ثم وقعت الحرب بين السلطان محمد وبين صدقة بن مزيد واصطلحوا وودّعه ابن عمار بعد أن خلع عليه، وسار معه الأمير حسين فلم يصل إلى قصده من عساكر الموصل مودود والإنتقاض فعاد فخر الدين بن عمار إلى دمشق في محرّم سنة إثنتين وخمسمائة وسار منها إلى فملكها. وبعث أهل طرابلس إلى الأفضل أمير الجيوش بمصريستمدّونه ويسألون الوالي عليهم فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب بالمدد والأقوات والسلاح وعدّة الحصار، واستولى على ذخائر ابن عمار، وقبض على جماعة من أهله، وحمل الجيمع في البحر إلى مصر.

خبر القمص صاحب الرها مع جاولي ومع صاحب إنْطاكِية

كان جاولي قد ملك الموصل من يد أصحاب جكرمس، ثم إنتقض فبعث السلطان إليه مودود في العساكر فسار جاولي عن الموصل، وحمل معه القمص بردويل صاحب الرها الذي كان

أسره سقمان وأخذه منه جكرمش وأصحابه، وترك الموصل. ثم أطلق جاولي هذا القمص في سنة ثلاث وخمسمائة بعد خمس سنين من أسره على مال قرره عليه وأسرى من المسلمين عنده يطلقهم، وعلى أن يمدّه بنفسه وعساكره وماله متى أحتاج إلى ذلك ولما إنبرم العقد بينهما بعث يوالي سالم بن مالك بقلعة جعفر حتى جاءه هناك ابن خاله جوسكين تل ناشر فأقام رهينة مكانه. ثم أطلقه جاولي ورهن مكانه أخا زوجته وزوجة القمص. فلما وصل جوسكين إلى منبج أغار عليها ونهبها وسبى جماعة من أصحاب جاولي إلى الغدر فاعتذر بأنّ هذه البلاد ليست لكم.لما أطلق القمص سار إلى إنْطاكِية ليستردّ الرها من يد شكري لأنه أخذها بعد أسره فلم يردّها، وأعطاه ثلاثين ألف دينار. ثم سار القمص إلى تل ناشر، وقدم عليه أخوه جوسكين الذي وضعه رهينة عند جاولي. وسار شكري صاحب إنْطاكِية لحربهما قبل أن يستفحل أمرهما وينجدهما جاولي فقاتلوه ورجع إلى إنْطاكِية وأطلق القمص مائة وستين من أسرى المسلمين ثم سار القمص وأخوه جوسكين وأغاروا على حصون إنْطاكِية وأمدّهم صاحب زغبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمال حلب، وهو من الأرمن، بألف فارس، وألقي راجل وخرج إليهم شكري وتراجعوا للحرب.

ثم حملهم الترك على الصلح وحكم على شكري بردّ الرها على القمص صاحبها بعد أن شهد عنده جماعة من البطارقة والأساقفة بأنّ إسمند خال شكري لما انصرف إلى بلاده، أوصاه بردّ الرها على صاحبها إذا خلص من الأسر فردّها شكري على القمص في صفر سنة ثلاث، ووفى القمص لجاولي بما كان بينهما. ثم قصد جاولي الشام ليملكه وتنقل في نواحيه كما مرّ في أخباره. وكتب رضوان صاحب حلب إلى شكري صاحب إنْطاكِية يحذره من جاولي ويستنجده عليه فأجابه وبرز من أنْطاكِية، وبعث إليه رضوان بالعساكر واستنجد جاولي القص صاحب الرها فأنجده بنفسه، ولحق به على منبج، وجاءه الخبر هنالك باستيلاء عسكر السلطان على بلده الموصل، وعلى خزائنه بها وفارقه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقسنقر فنزل جاولي تل ناشر، وتزاحف مع شكري هنالك

واشتدّ القتال واستمرّ أصحاب إنْطاكِية فتخاذل أصحاب جاولي وإنهزموا وذهب الإفرنج بسوادهم فجاء القمص وجوسكين إلى تل ناشر والله تعالى أعلم.

حروب الإفرنج مع طغركين

كان طغركين قد سار إلى طبرية سنة ثنتين وخمسمائة فسار إليه ابن أخت بقدوين ملك القدس واقتتلوا فانكشف المسلمون. ثم استماتوا وهزموا الإفرنج وأسروا ابن أخت الملك فقتله طغركين بيده، بعد أن فادى نفسه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة أسير فلم يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ثم اصطلح طغركين وبقدوين لمدّة أربع سنين. وكان حصن غزيّة من أعمال طرابلس بيد مولي ابن عمار فعصى عليه، وانقطعت عنه الميرة بعيث الإفرنج في نواحيه فأرسل إلى طغركين بطاعته فبعث إسرائيل من أصحابه ليمتلك الحصن، ونزل منه مولى ابن عمار فرماه إسرائيل في الزحام بسهم فقتله حذراً أن يطلع الاتابك على مخلفه وقصد طغركين الحصن لمشارفة أحواله فمنعه نزول الثلج، حتى إذا انقشع وانجلى سار في أربعة آلاف فارس وفتح حصوناً للإفرنج منها حصن الأكمة وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فسار للقائه فلما أشرف عليه إنهزم طغركين وأصحابه إلى حمص، وملك السرداني حصن غزية بالأمان، ووصل طغركين إلى دمشق فبعث إليه بقدوين من القدس بالبقاء على الصلح وذلك في شعبان سنة إثنتين.

استيلاء الإفرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبانياس

ولما عادت طرابلس إلى صاحب مصر من يد ابن عمار وولي عليها نائبه، والإفرنج يحاصرونها وزعيمهم السرداني ابن أخت صنجيل فلما كانت سنة ثلاث وخمسمائة في شعبان ووصل القمص والد صنجيل، وليس صنجيل الأوّل وإنما هو قمص آخر بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وجرت بينه وبين السرداني فتنة واقتتلوا وجاء شكري صاحب إنْطاكِية مددا للسرداني. ثم جاء بقدوين ملك القدس وأصلح بينهم وحاصروا

طرابلس، ونصبوا عليها الأبراج فاشتد بهم الحصار، وعدموا القوت لتأخر الأسطول المصري بالميرة، ثم زحفوا إلى قتالها بالأبراج وملكوها عنوة ثاني الأضحى واستباحوها وأثخنوا فيها. وكان النائب

بها قد استأمن إلى الإفرنج قبل ذلك بليال وملكها بالأمان، ونزل على مدينة جبيل، وبها فخر الملك ابن عمار فاستأمنوا إلى شكري وملكها. ولحق ابن عمار بشيزر فنزل على صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني، ولحق منها بدمشق فأكرمه طغركين وأقطعه الزبداني، من أعمال دمشق، في محرم سنة أربع، ووصل أسطول مصر بالميرة بعد أخذ طرابلس بثمانية أيام فأرسى بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيدا وبيروت. ثم استولى الإفرنج على صيدا في ربيع الآخر سنة أربع وخمسمائة. وذلك أنه وصل أسطول للإفرنج من ستين مركباً مشحونة بالرجال والذخائر، وبها ملوكهم بقصد الحج والغزو فاجتمعوا مع بقدوين صاحب القدس، ونازلوا صيدا براً وبحراً، وأسطول مصر يعجز عن إنجادهم. ثم زحفوا إلى صور في أبراج الخشب المصفحة فضعفت نفوسهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فاستأمنوا فأمنهم الإفرنج في جمادى الأولى، ولحقوا بدمشق بعد سبعة وأربعين يوما من الحصار. وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان، وعاد بقدوين إلى القدس.

استيلاء أهل مصر على عسقلان

كانت عسقلان لخلفاء العلوية بمصر، وقد ذكرنا حروب الإفرنج مع عساكرهم عليها، وآخر من استشهد منهم جمال الملك نائبها كما مر آنفاً . وولي عليها شمس الخلافة فراسل بقدوين ملك القدس وهاداه ليمتنع به من الخليفة بمصر. وبعث الأفضل بن أمير الجيوش العساكر إليه سنة أربع وخمسمائة مع قائد من قوادهم موريا بالغزو، وأسر إليه بالقبض على شمس الخلافة والولاية مكانه بعسقلان. وشعر شمس الخلافة بذلك فجاهر بالعصيان فخشي أن يملكها الإفرنج فراسله وأقره على عمله، وعزل شمس الخلافة جند عسقلان واستنجد جماعة من الأرمن فاستوحش منه أهل البلد، ووثبوا به فقتلوه، وبعثوا إلى الأمير الأفضل صاحب مصر المستولي عليها بطاعتهم فجاءهم الوالي من قبله واستقامت أمورهم.

استيلاء الإفرنج على حصن الأثارب وغيره

ثم جمع شكري صاحب أنْطاكِية واحتشد، وسار إلى حصن الأقارب على ثلاثة فراسخ من حلب فحاصره وملكه عنوة وأثخن فيهم بالقتل والسبي. ثم سار إلى حصن وزدناد

ففعل فيه مثل ذلك، وهرب أهله منه، ومارس على بلديهما. ثم سار عسكر من الإفرنج إلى مدينة صيدا فملكوها على الأمان، وأشفق المسلمون من استيلاء الإفرنج على الشام. وراسلوهم في الهدنة فامتنعوا إلا على الضريبة فصالحهم رضوان صاحب حلب على إثنين وثلاثين ألف دينار وعدة من الخيول والثياب، وصاحب صور على سبعة آلاف دينار، وابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وعلي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. ومدة الهدنة إلى حصاد الشعير. ثم اعترضت مراكب الإفرنج التجار من مصر فأخذوها وأسروهم. وسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد للنفير فدخلوها مستغيثين، ومعهم خلق من الفقهاء والغوغاء، وقصدوا جامع السلطان يوم الجمعة فمنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بإنفاذ العساكر للجهاد. وبعث من دار الخلافة منبراً للجامع.

ثم قصدوا في الجمعة الثانية جامع القصر في مثل جمعهم، ومنعهم صاحب الباب فدفعوا ودخلوا الجامع وكسروا شبابيك المقصورة والمنبر، وبطلت الجمعة. وأرسل الخليفة إلى السلطان في رفع هذا الحزن فأمر الأمراء بالتجهز للجهاد، وأرسل إبنه الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلحق به الأمراء ويسيروا جميعاً إلى قتال الإفرنج.

مسير الأمراء السلجوقية إلى قتال الإفرنج

ولما سار مسعود بن السلطان مع الأمير مودود إلى الموصل، إجتمع معهم الأمراء

سقمان القطبي صاحب ديار بكر وإبنا برسق إيلتكي وزنكي أصحاب همذان، والأمير أحمد بك صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل، وأياز بن أبي الغازي، بعثه أخوه صاحب ماردين. وساروا جميعاً إلى سنجار وفتحوا عدة حصون للإفرنج، ونزلوا على مدينة الرها وحاصروها، واجتمعوا مع الإفرنج على الفرات.

وخام الطائفتان عن اللقاء، وتأخر المسلمون إلى حران يستطردون للإفرنج لعلهم

يعبرون الفرات فخالفهم الإفرنج إلى الرها، وشحنوها أقواتاً وعدة وأخرجوا الضعفاء منها. ثم عبروا الفرات إلى نواحي حلب، لأن الملك رضوان صاحبها لما عبروا إلى الجزيرة إرتجع بعض الحصون التي كان الإفرنج أخذوها بأعمال حلب فطرقوها الآن فاكتسحوا نواحيها. وجاءت عساكر السلطان إلى الرها، وقاتلوها فامتنعت عليهم فعبروا الفرات، وحاصروا قلعة تل

ناشر شهراً ونصفاً فامتنعت، فرحلوا إلى حلب فقعد الملك رضوان عن لقائهم، ومرض هنالك سقمان القطبي، ورجعوا فتوفي في بالس، وحمل شلوه إلى بلده، ونزلت العساكر السلطانية على معرة النعمان فخرج طغركين صاحب دمشق إلى مودود، ونزل عليه. ثم ارتاب لما رأى من الأمراء في حقه فدس للإفرنج بالمهادنة.

ثم افترقت العساكر كما ذكرنا في أخبارهم. وبقي مودود مع طغركين على نهر العاصي. وطمع الإفرنج بافتراقهم فساروا إلى افامية. وخرج سلطان بن منقذ صاحب شيزر إلى مودود وطغركين فرحل بهم إلى شيزر، وهون عليهم أمر الإفرنج. وضاقت الميرة على الإفرنج فرحلوا وأتبعهم المسلمون يتخطفون من أعقابهم حتى أبعدوا والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة صور

ولما افترقت العساكر السلطانية خرج بقدوين ملك القدس وجمع الإفرنج، ونزلوا

على مدينة صور في جمادي الأولى من سنة خمس وهي للأمير الأفضل صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الأعّر، ونصبوا عليها الأبراج والمجانيق. وانتدب بعض الشجعان من أهل طرابلس كان عندهم في ألف رجل وصدقوا الحملة حتى وصلوا البرج المتصل بالسور فأحرقوه ورموا الآخرين بالنفط فأحرقوهم. واشتدّ القتال بينهم وبعث أهل صور إلى طغركين صاحب دمشق يستنجدونه على أن يمكنوه من البلد فجاء إلى بانياس، وبعث إليهم بمائتي فرس واشتدّ القتال، وبعث نائب البلد إلى طغركين بالاستحثاث للوصول ليمكنه من البلد. وكان طغركين يغير على أعمال الإفرنج في نواحيها، وملك لهم حصناً من أعمال دمشق، وقطع الميرة عنهم فساروا يحملونها في البحر. ثم سار إلى صيدا وأغار عليها ونال منها ثم أزهت الثمرة وخشي الإفرنج من طغركين على بلادهم فأفرجوا عن صور إلى عكا. وجاء طغركين إلى صور فأعطى الأموال واشتغلوا بإصلاح سورهم وخندقهم والله أعلم.

أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله ووفاة صاحب أنْطاكِية

ثم سار الأمير مودود صاحب الموصل سنة ست إلى سروج، وعاث في نواحيها

فخرج جكرمش صاحب تل ناشر وأغار على دوابهم فاستاقها من راعيها، وقتل كثيراً من العسكر

ورجع. ثم توفي الأمير الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن كاور فسار شكري صاحب أنْطاكِية من الإفرنج إلى بلاده ليملكها فمرض وعاد إلى انْطاكِية، ومات منتصف سنة ست، وملكها بعده ابن أخته سرجان واستقام أمره ثم جمع الأمير مودود صاحب الموصل العساكر واحتشد وجاءه تميرك صاحب سنجار واياز بن أبي الغازي صاحب ماردين، وطغركين صاحب دمشق، ودخلوا في محرّم سنة سبع إلى بلاد الإفرنج وخرج بقدوين ملك القدس وجوسكين صاحب القدس يغير على دمشق فعبروا الفرات، وقصدوا القدس، ونزلوا على الأردن والافرنج عدوتهم، واقتتلوا منتصف المحرّم فانهزم الإفرنج، وهلك منهم كثير في بحيرة طبرية والأردن، وغنم المسلمون سوادهم. وساروا منهزمين فلقيهم عسكر طرابلس وانْطاكِية فشردوا معهم وأقاموا على جبل طبرية ، وحاصرهم المسلمون نحوا من شهر فلم يظفروا بهم فتركوهم وانساحوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا والقدس واكتسحوها ثم انقطعت المواد عنهم للبعد عن بلادهم فعادوا إلى مرج الصفر على نية العود للغزاة في فصل الربيع، وأذنوا للعساكر في الانطلاق. ودخل مودود إلى دمشق يقيم بها إلى أوان اجتماعهم، فطعنه باطني في الجامع حين منصرفه من صلاة الجمعة آخر ربيع الأول من السنة ومات من يومه، وأتهم طغركين بقتله، والله تعالى أعلم.

أخبار البرسقي مع الإفرنج

ولما قتل مودود بعث السلطان محمد مكانه اقسنقر البرسقي، ومعه ابنه السلطان مسعود في العساكر لقتال الإفرنج. وبعث إلى الأمراء بطاعته فجاءه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وتميرك صاحب سنجار. وسار إلى جزيرة ابن عمر وملكها من يد نائب مودود. ثم سار إلى ماردين حاصرها إلى أن أذعن أبو الغازي صاحبها، وبعث معه ابنه أيازا في العساكر فساروا إلى الرها وحاصروها في ذي الحجة سنة ثمان مدّة سبعين يوماً فامتنعت وضاقت الميرة على المسلمين فرحلوا إلى شمشاط وسروج، وعاثوا في تلك النواحي وهلك في خلال ذلك بكواسيل صاحب مرعش، وكيسوم وزغبان من الإفرنج، وملكت زوجته بعده وامتنعت من الإفرنج. وأرسلت إلى

البرسقي على الرها بطاعته، فبعث إليها صاحب الخابور فردّته بالأموال والهدايا وبطاعتها، فعاد من كان عندها من الإفرنج إلى أنْطاكِية والله أعلم.

الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج

كان السلطان محمد قد تنكر لطغركين صاحب دمشق، لاتهامه إياه بقتل مودود

فعصى وأظهر الخلاف، وتابعه أبو الغازي صاحب ماردين لما كان بينه وبين البرسقي فأهمّ السلطان شأنهما وشأن الإفرنج وقوّتهم، وجهز العساكر مع الأمير برسق صاحب همذان وبعث معه الأمير حيوس بك والأمير كسقري وعساكر الموصل والجزيرة، وأمرهم بغزو الإفرنج بعد الفراغ من شأن أبي الغازي وطغركين فساروا في رمضان سنة ثمان، وعبروا الفرات عند الرملة وجاؤا إلى حلب، وبها لؤلؤ الخادم بعد رضوان ومقدم العساكر شمس الخواص، وعرضوا عليهما كتب السلطان بتسليم البلد فدافعا بالجواب، واستنجدا أبا الغازي وطغركين فوصلا إليهما في ألفي فارس، وامتعا بها على العسكر فسار الأمير برسق إلى حماة من أعمال طغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسلمها للأمير قرجان صاحب حمص، بأمر السلطان بذلك في كل بلد يفتحونه فنفس عليه الأمراء ذلك وفسدت ضمائرهم.

وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص قد ساروا إلى إنْطاكِية مستنجدين بصاحبها روميل على مدافعتهم عن حماة فبلغهم فتحها، ووصل إليهم بانْطاكِية بقدوين ملك القدس وطرابلس وغيره من شياطين الإفرنج، واجتمعوا على افامية واتفقوا على مطاولة المسلمين إلى فصل الشتاء ليتفرقوا. فلما أظلّ الشتاء، والمسلمون مقيمون عاد أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق والافرنج إلى بلادهم، وقصد المسلمون كفرطاب، وكانت هي وأفامية للافرنج فملكوها عنوة وفتكوا بالافرنج فيها وأسروا صاحبها. ثم ساروا إلى قلعة أفامية فاستعصت عليهم فعادوا إلى المعرة وهي للافرنج. وفارقهم الأمير حيوس بك إلى وادي مراغة فملكه، وسارت العساكر من المعرة إلى حلب، وأثقالهم ودوابهم وهم متلاصقون فوصلت مقدمتهم إلى الشام وخربوا الأبنية وكان روميل صاحب إنْطاكِية قد سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمدافعة عن كفرطاب، وأظلّ على خيام المسلمين قبل وصولهم فقتل من وجد بها من السوقة والغلمان، وأقام

الإفرنج بين الخيام يقتلون كل من لحق بها، حتى وصل الأمير برسق وأخوه زنكي فصعدا ربوة هناك. وأحاط الفلّ من المسلمين به وعزم برسق على الاستماتة. ثم غلبه أخوه زنكي على النجاة فنجا فيمن معه، واتبعهم الإفرنج فرسخا ورجعوا عنه، وافترقت العساكر الإسلامية منهزمة إلى بلادها وأشفق أهل حلب وغيرها من بلاد الشام من الإفرنج بعد هذه الواقعة، وسار الإفرنج إلى رميلة من أعمال دمشق فملكوها، وبالغوا في تحصينها واعتزم طغركين على تخريب بلاد الإفرنج. ثم بلغه الخبر عن خلو رميلة من

الحامية فبادر إليها سنة تسع وملكها عنوة، وقاتل وأسر وغنم وعاد إلى دمشق. ولم تزل رميلة بيد المسلمين إلى أن حاصرها الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وملكوها والله أعلم.

وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين

ثم توفي بقدوين ملك الإفرنج بالقدس آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان قد

زحف إلى ديار بكر طامعا في ملكها فانتهى إلى تنيس، وشج في الليل فانتقض عليه جرحه وعاد إلى القدس فمات. وعاد القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي، وكان حاضراً عنده لزيارة قمامة وكان أتابك طغركين قد سار لقتال الإفرنج، ونزل اليرموك فبعث إليه قمص في المهادنة فاشترط طغركين ترك المناصفة من جبل عردة إلى الغور فلم يقبل القمص فسار طغركين إلى طبرية. ونهب نواحيها، وسار منها إلى عسقلان. ولقي سبعة آلاف من عساكر مصر قد جاؤا في أثر بقدوين عندما ارتحل عن ديار بكر فاعلموا أن صاحبهم تقدّم إليهم بالوقوف عند أمر طغركين فشكر لهم ذلك وعاد إلى دمشق وأتاه الخبر بأنّ الإفرنج قصدوا أذرعات ونهبوها بعد أن ملكوا حصناً من أعماله فأرسل إليهم تاج الملك بوري في أثرهم فحاصرهم في جبل هناك، حتى يئسوا من أنفسهم. وصدقوا الحملة عليهم فهزموهم وأفحشوا في القتل، وعاد الفلّ إلى دمشق وسار طغركين إلى حلب يستنجد أبا الغازي فوعده بالمسير معه ثم جاء الخبر بأنّ الإفرنج قصدوا أعمال دمشق فنهبوا حوران واكتسحوها فرجع طغركين إلى دمشق، وأبو الغازي إلى ماردين إلى حشد العساكر وقصدوا الاجتماع على حرب الإفرنج. ثم سار الإفرنج سنة ثلاثة عشر إلى نواحي حلب فملكوا مراغة، ونازلوا المدينة فصانعهم أهلها بمقاسمتهم أملاكهم، وزحف أبو الغازي من ماردين في عشرين ألفا من العساكر والمتطوعة، ومعه أسامة بن مالك بن شيرز الكناني، والأمير طغان ارسلان بن افتكين بن جناح صاحب أرزن وسار الإفرنج إلى صنبيل عرمس قرب الأثارب فنزلوا به في موضع منقطع المسالك، وعزموا على المطاولة فناجزهم أبو الغازي، وسار إليهم ودخل عليهم في مجتمعهم، وقاتلوه أشد القتال فلم يقاوموه وفتك

بهم فتكة شنعاء. وقتل فيهم سرحان صاحب انْطاكِية وأسر سبعون من زعمائهم، وذلك منتصف ربيع من السنة ثم اجتمع فلّ الإفرنج

وعاودوا الحرب فهزمهم أبو الغازي وملك عليهم حصن الآت ربّ وزدنا ، وجاء إلى حلب فأصلح أحوالها وعاد إلى ماردين ثم سار جوسكين صاحب تل ناشر في مائتين من الإفرنج ليكبس حلة من أحياء طيء يعرفون ببني خالد فأغار عليهم وغنم أموالهم، ودلوه على بقية قومهم من بني ربيعة فيما بين دمشق وطبرية فبعث أصحابه إليهم، وسار هو من طريق آخر فضلّ عن الطريق، ووصل أصحابه إليهم، وأميرهم وعدة من ربيعة فقاتلهم وغلبهم، وقتل منهم سبعين وأسراثني عشر ففاداهم بمال جزيل من الأسرى، وبلغ إلى جوسكين في طريقه فعاد إلى طرابلس وجمع جمعا وأغار على عسقلان فهزمه المسلمون، وعاد مفلولا والله أعلم.

ارتجاع الرها من الإفرنج

ثم سار بهرام أخو أبي الغازي إلى مدينة الرها وحاصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها. ولقيه النذير بأن جوسكين صاحب الرها وسروج قد سار لاعتراضه، وقد تفرق عن مالك أصحابه فاستجاب لما وصل إليه الإفرنج، ودفعهم لأرض سنجة فوصلت فيها خيولهم فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسكين وخاط عليه جلد جمل وفادى نفسه بأموال جليلة فأبى مالك من فديته إلا أن يسلم حصن الرها فلم يفعل، وحبسه في خرت برت، ومعه كلمام ابن خالته وكان من شياطينهم وجماعة من زعمائهم، والله تعالى أعلم وبه التوفيق.

استيلاء الإفرنج علي خرت برت وارتجاعها منهم

كان مالك بن بهرام صاحب خرت برت، وكان في جواره الإفرنج في قلعة كركر فحاصرهم بها، وسار بقدوين اليه في جموعه فلقيه في صفر سنة سبعة عشر فهزم الإفرنج، وأسر ملكهم وجماعة من زعمائهم وحبسهم مالك في قلعة خرت برت مع جوسكين صاحب الرها وأصحابه. وسار مالك إلى حران في ربيع الأول وملكها ولما غاب من خرت برت تحيل الإفرنج وخرجوا من محبسهم بمداخلة بعض الجند. وسار بقدوين إلى بلده، وملك الآخرون القلعة فعاد مالك إليهم وحاصرها وارتجعها من أيديهم، ورتب فيها الحامية، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء الإفرنج على مدينة صور

كانت مدينة صور لخلفاء العلوية بمصر، وكان بها عز الملك من قبل الأفضل بن

أمير الجيوش المستبدّ على الأمر بمصر، وتجهز الإفرنج لحصارها سنة ست فاستمدّوا طغركين صاحب دمشق فأمدهم بعسكر ومال مع وال من قبله إسمه مسعود، فجاء إليها ولم يغير دعوة العلوية بها في خطبة ولا سكة. وكتب إلى الأفضل بذلك، وسأله تردّد الأسطول إليه بالمدد فأجابه وشكره. ثم قتل الأفضل، وجاء الأسطول إليها من مصر على عادته، وقد أمر مقدّمه أن يعمل الحيلة في القبض على مسعود الوالي بصور من قبل طغركين لشكوى أهل مصر منه فقبض عليه مقدم الأسطول وحمله إلى مصر، وبعثوا به إلى دمشق وأقام الوالي من قبل أهل مصر في مدينة صور، وكتب إلى طغركين بالعذر عن القبض على مسعود واليه وكان ذلك سنة ستة عشر. ولما بلغ الإفرنج إنصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها وتجهزوا لحصارها. وبعث الوالي الأمير بذلك وبعجزه عن مقاومة حصارهم لها وسار طغركين إلى بانياس ليكون قريباً من صريخها، وبعث إلى أهل مصر يستنجدهم فراسل الإفرنج في تسليم البلد، وخروج من فيها فدخلها الإفرنج آخر جمادى الأولى من السنة بعد أن حمل أهلها ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح البرسقي كفر طاب وإنهزامه من الإفرنج

ثم جمع البرسقي عساكره وسار سنة تسعة عشر إلى كفرطاب وحاصرها فملكها

من الإفرنج. ثم سار إلى قلعة أعزاز شمالي حلب وبها جوسكين فحاصرها واجتمع الإفرنج وساروا لمدافعته فلقيهم وقاتلهم شديدا فمحص الله المسلمين وانهزموا. وفتك النصارى فيهم، ولحق البرسقي بحلب فاستخلف بها إبنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل ليستمدّ العساكر ويعود لغزوهم فقضى الله بمقتله، وولي إبنه عز الدين بعده قليلاً ثم مات سنة إحدى وعشرين، وولى السلطان محمود عماد الدين زنكي بن أقسنقر

مكانه على الموصل والجزيرة وديار بكر كما مرّ في أخبار دولة السلجوقية.
ثم استولى منها على الشام وأورث ملكها بنيه فكانت لهم دولة عظيمة بهذه

الأعمال نذكرها إن شاء الله تعالى. ونشأت عن دولتهم دولة بني أيوب وتفرّعت منها كما نذكره ونحن الآن نترك من أخبار الإفرنج هنا جميع ما يتعلق بدولة بني زنكي وبني أيوب حتى نوردها في أخبار تينك الدولتين لئلا تتكّرر الأخبار، ونذكر في هذا الموضع من أخبار الإفرنج ما ليس له تعلق بالدولتين فإذا طالعه المتأمل علم كيف يردّ كل خبر إلى مكانه بجودة قريحته وحسن تأنيه.

الحرب بين طغركين والافرنج

ثم إجتمعت الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة، وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر واستنجد طغركين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤا إليه، وكان هو قد سار إلى جهة الإفرنج آخر سنة عشرين، وقاتلهم وسقط في المعترك فظنّ أصحابه أنه قتل فانهزموا وركب فرسه، وسار معهم منهزماً والإفرنج في إتباعهم وقد أثخنوا في رجالة التركمان، فلما أتبعوا المنهزمين خالف الرجالة إلى معسكرهم فنهبوا سوادهم وقتلوا من وجدوا فيه ولحقوا بدمشق. ورجع الإفرنج من المنهزمين فوجدوا خيامهم منهوبة فساروا منهزمين ثم كان سنة ثلاث وعشرين واقعة المزدغاني والإسماعيلية بدمشق بعد أن طمع الإفرنج في ملكها فأسف ملوك الإفرنج على قتله، وسار صاحب القدس وصاحب إنْطاكِية وصاحب طرابلس وغيرهم من القمامصة، ومن وصل في البحر للتجارة أو الزيارة، وساروا إلى دمشق في ألفي فارس ومن الرجال ما لا يحصى وجمع طغركين من العرب والتركمان ثمانية آلاف فارس، وجاء الإفرنج آخر السنة ونازلوا دمشق وبثوا سراياهم للإغارة بالنواحي وجمع الميرة، وسمع تاج الملك بسرية في حوران فبعث شمس الخواص من أمرائه، ولقوا سرية الإفرنج، وظفروا بهم وغنموا ما معهم وجاؤا إلى دمشق. وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا عن دمشق بعد أن أحرقوا ما تعذر عليهم حمله وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. ثم أنّ إسمند صاحب إنْطاكِية سار إلى حصن القدموس وملكه، والله تعالى يؤيد من يشاء.

هزيمة صاحب طرابلس

ثم إجتمع سنة سبع وعشرين جمع كبير من تركمان الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس وقتلوا وغنموا فخرج إليهم القمص صاحبها فاستطردوا له. ثم كّروا عليه فهزموه ونالوا منه ونجا إلى

قلعة بقوين فتحصن بها، وحاصره التركمان فيها فخرج من القلعة ليلاً في عشرين من أعيان أصحابه، ونجا إلى طرابلس، واستصرخ الإفرنج من كل ناحية. وسار بهم إلى بقوين لمدافعة التركمان فقاتلهم حتى أشرف الإفرنج على الهزيمة. ثم تحيزوا إلى أرمينية، وتعذر على التركمان أتباعهم فرجعوا عنهم إنتهى.

فتح صاحب دمشق بانياس

كان بوري بن طغركين صاحب دمشق لما توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة، وولي مكانه إبنه شمس الملوك إسماعيل فاستضعفه الإفرنج، وتعرضوا لنقض الهدنة. ودخل بعض تجار المسلمين إلى سروب فأخذوا أموالهم. وراسلهم شمس الملوك في ردّها عليهم فلم يفعلوا فتجهز وسار إلى بانياس في صفر سنة سبع وعشرين فنازلها وشدّد حصارها ونقب المسلمون سورها وملكوها عنوة واستلحموا الإفرنج بها. واعتصم فلهم بالقلعة حتى استأمنوا بعد يومين. وكان الإفرنج قد جمعوا لمدافعة شمس الملوك فجاءهم خبر فتحها فأقصروا.

استيلاء شمس الملوك على الشقيف

ثم سار شمس الملوك إسمعيل صاحب دمشق إلى شقيف بيروت وهو في الجبل المطلّ على بيروت وصيدا، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم وهو ممتنع به. وقد تحاماه المسلمون والإفرنج وهو يحتمي من كل منهما بالآخر، فسار إليه شمس الملوك وملكه في المحرّم سنة ثمان وعشرين. وعظم ذلك على الإفرنج، وخافوا شمس الملوك فساروا إلى بلد حوران وعاثوا في جهاتها. ونهض شمس الملوك ببعض عساكره، وجمر الباقي قبالة الإفرنج، وقصد طبرية والناصرة وعكا فاكتسح نواحيها. وجاء الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا إلى بلادهم، وعظم عليهم خرابها وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة فجدّدها لهم إنتهى والله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جزيرة جربة من أفريقية

كانت جزيرة جربة من أعمال أفريقية ما بين طرابلس وقابس، وكان أهلها من قبائل البربر قد

إستبدّوا بجزيرتهم عندما دخل العرب الهلاليون أفريقية، ومزقوا ملك صنهاجة بها. وقارن ذلك استفحال ملك الإفرنج برومة وما إليها من البلاد الشمالية. وتطاولوا إلى ملك بلاد المسلمين فسار ملكهم برديل فيمن معه من زعمائهم وأقماصهم إلى الشام فملكوا مدنه وحصونه كما ذكرناه آنفا وكان من ملوكهم القمص رجار بن نيغر بن خميرة، وكان كرسيه مدينة ميلكوا مقابل جزيرة صقلية. ولما ضعف أمر المسلمين بها وانقرضت دولة بني أبي الحسين الكلبي منها سما رجار هذا إلى ملكها وأغراه المتغلبون بها على بعض نواحيها فأجاز إليها عساكره في الأسطول في سبيل التضريب بينهم ثم ملكها من أيديهم معقلاً معقلاً إلى أن كان آخرها فتخاطر إبّنه وما زرعة من يد عبد الله بن الجواس أحد الثوار بها فملكها من يده صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة، وإنقطعت كلمة الإسلام بها. ثم مات رجار سنة أربع وتسعين فولى إبنه رجار مكانه، وطالت أيامه واستفحل ملكه، وذلك عندما هبت ريح الإفرنج بالشام، وجاسوا خلالها وصاروا يتغلبون على ما يقدرون عليه من بلاد المسلمين وكان رجار بن رجار يتعاهد سواحل أفريقية بالغزو فبعث سنة ثلاث وخمسين أسطول صقلية إلى جزيرة جربة، وقد تقلص عنها ظلّ الدولة الصنهاجية فأحاطوا بها وإشتدّ القتال. ثم اقتحموا الجزيرة عليهم عنوة وغنموا وسبوا واستأمن الباقون، وأقرّهم الإفرنج في جزيرتهم على جزية، وملكوا عليهم أمرهم والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح صاحب دمشق بعض حصون الإفرنج:

ثم بعث شمس الملوك إسمعيل صاحب دمشق عساكره مع الأمير خزواش سنة إحدى وثلاثين إلى طرابلس الشام، ومعه جمع كثير من التركمان والمتطوعة. وسار إليه القمص صاحب طرابلس فقاتلوه وهزموه وأثخنوا في عساكره، وأحجزه بطرابلس وعاثوا في أعماله وفتحوا حصن وادي ابن الأحمر من حصونه عنوة، واستباحوه واستلحموا من فيه من الإفرنج. ثم سار الإفرنج سنة خمس وثلاثين إلى عسقلان وأغاروا في نواحيها. وخرج إليهم عسكر مصر الذين بها فهزموا الإفرنج، وظفروا بهم وعادوا منهزمين، وكفى الله شرهم بمنه وكرمه.

استيلاء الإفرنج علي طرابلس الغرب:

كان أهل طرابلس الغرب لما أنحلّ نظام الدولة الصنهاجية بأفريقية وتقلص ظلها

عنهم قد استبدّوا بأنفسهم، وكان بالمهدية آخر الملوك من بني باديس، وهو الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز فاستبدّ لعهده في طرابلس أبو يحيى بن مطروح، ورفضوا دعوة الحسن وقومه. وذلك عندما تكالب الإفرنج على الجهات فطمع رجار في ملكها. وبعث أسطوله في البحر فنازلها آخر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فنقبوا سورها. وإستنجد أهلها بالعرب فأنجدوهم وخرجوا إلى الإفرنج فهزموهم، وغنموا أسلحتهم ودوابهم. ورجع الإفرنج إلى صقلية فتجهزوا إلى المغرب، وطرقوا جيجيل من سواحل بجاية. وهرب أهلها إلى الجبل ودخلوها فنهبوها وخربوا القصر الذي بناه بها يحيى بن العزيز بن حماد ويسمى النزهة، ورجعوا إلى بلادهم. ثم بعث رجار أسطوله إلى طرابلس سنة إحدى وأربعين فأرسى عليها ونزل المقاتلة وأحاطوا بها براً وبحراً وقاتلوها ثلاثاً وكان أهل البلد قد إختلفوا قبل وصول الإفرنج وأخرجوا بني مطروح، وولوا عليهم رجلاً من أمراء لمتونة قام حاجا في قومه فولوه أمرهم فلما شغل أهل البلد بقتال الإفرنج، إجتمعت شيعة بني مطروح وأدخلوهم للبلد. ووقع بينهم القتال فلما شعر الإفرنج بأمرهم بادروا إلى الأسوار فنصبوا عليها السلالم، وتسنموها وفتحوا البلد عنوة، وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ونجا كثير من أهلها إلى البربر والعرب في نواحيها. ثم رفعوا السيف ونادوا بالأمان فتراجع المسلمون إلى البلد، وأقروهم على الجزية وأقاموا بها ستة أشهر حتى أصلحوا أسوارها وفنادقها، وولوا عليها ابن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة، ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فسار إليها الناس وحسنت عمارتها.

استيلاء الإفرنج على المهدية:

كانت قابس عندما إختلّ نظام الدولة الصنهاجية واستبدّ بها ابن كامل بن جامع من قبائل رياح، إحدى بطون هلال الذين بعثهم الجرجرائي وزير المستنصر بمصر على المعز بن باديس وقومه فأضرعوا الدولة، وأفسدوا

نظامها وملكوا بعض أعمالها واستبدّ آخرون من أهل البلاد بمواضعهم فكانت قابس هذه في قسمة بني دهمان هؤلاء وكان لهذا العهد

رشيد أميراً بها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدولة الصنهاجية من أخبار البربر. وتوفي رشيد سنة إثنتين وأربعين وخمسمائة ونصب مولاه يوسف إبنه الصغير محمد بن رشيد، وأخرج إبنه الكبير معمراً وإستبد على محمد وتعرض لحرمه سرّاً. وكان فيهن امرأة رشيد، وساروا إلى التمحض، بصاحب المهدية يشكون فعله وكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه، وتهدّده بإدخال الإفرنج إلى قابس فجهز إليه العساكر. وبعث يوسف إلى رجار صاحب طرابلس بطاعته، وأن يوليه على قابس كما ولى ابن مطروح على طرابلس. وشعر أهل البلد بمداخلته للإفرنج فلما وصل عساكر الحسن ثاروا به معهم، وتحصن يوسف بالقصر فملكوه عنوة، وأخذ يوسف أسيراً وملك معمر قابس مكان أخيه محمد. وامتحن يوسف بأنواع العذاب إلى أن هلك، وأخذ بنو قرة أختهم، ولحق عيسى أخو يوسف وولد يوسف برجار صاحب صقلية واستجاروا به وكان الغلاء قد اشتدّ بأفريقية سنة سبع وثلاثين ولحق أكثر أهلها بصقلية، وأكل بعضهم بعضاً وكثر الموتان فاغتنم رجار الفرصة ونقض الصلح الذي كان بينه وبين الحسن بن علي صاحب المهدية لسنين. وجهز أسطوله مائتين وخمسين من الشواني وشحنها بالمقاتلة والسلاح، ومقدّم الأسطول جرجي بن ميخاييل أصله من المتنصرة، وقد ذكرنا خبره في أخبار صنهاجة والموحدين فقصد قوصرة وصادف بها مركباً من المهدية فغنمه ووجد عندهم حمام البطاقة فبعث الخبر إلى المهدية على أجنحتها بأن أسطول الإفرنج أقلع إلى القسطنطينية. ثم أقلع فأصبح قريباً من المرسى في ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين، وقد بعث الله الريح فعاقتهم عن دخول المرسى ففاته غرضه وكتب إلى الحسن بأنه باق على الصلح، وإنما جاء طالباً بثأر محمد بن رشيد ورده إلى بلده قابس فجمع الحسن الناس، واستشارهم فأشاروا بالقتال فخام عنه وإعتذربقلة الأقوات وارتحل من البلد، وقد حمل ما خف حمله، وخرج الناس بأهاليهم وما خف من أموالهم، واختفى كثير من المسلمين في الكنائس. ثم ساعد الريح أسطول الإفرنج ووصلوا إلى المرسى ونزلوا إلى البلد من غير مدافع. ودخل جرجي القصر فوجده على حاله مملوءاً بالذخائر النفيسة التي يعز وجود مثلها. وبعث بالأمان إلى كلّ من شرد من أهلها فرجعوا وأقرهم على الجزية. وسار

الحسن بأهله وولده إلى المعلقة وبها محرز بن زياد من أمراء الهلاليين، ولقيه في طريقه حسن بن ثعلب من أمراء الهلاليين بمال إنكسر له في ديوانه فأخذ إبنه يحيى رهينة به ولما وصل محرز بن زياد أكرم لقاءه وبرمقدمه، جزاء بما كان يؤثره على العرب ويرفع محله وأقام عنده شهراً. ثم عزم على المسير إلى مصر، وبها يومئذ الحافظ فأرصد له جرجي الشواني في البحر

فرجع عن ذلك، وإعتزم على قصد عبد المؤمن من ملوك الموحدين بالمغرب، وفي طريقه يحيى بن عبد العزيز ببجاية من بني عمه حماد فأرسل إليه أبناءه يحيى وتميماً وعلياً يستأذنه في الوصول فأذن له. وبعث إليه من أوصله إلى جزائر بني مذغنة، ووكل به وبولده حتى ملك عبد المؤمن بجاية سنة أربع وأربعين وخبرهم مشروع هنالك ثم جهز جرجي أسطولاً آخر إلى صفاقس، وجاء العرب لإنجادهم فلما توافوا للقتال استطرد لهم الإفرنج غير بعيد فهزموهم. ومضى العرب عنهم، وملك الإفرنج المدينة عنوة ثالث عشر صفر، وفتكوا فيها ثم أمنوهم وفادوا وأسراهم وأقروهم على الجزية وكذا أهل سوسة. وكتب رجار صاحب صقلية إلى أهل سواحل أفريقية بالأمان والمواعد. ثم سار جرجي إلى إقليبية من سواحل تونس، واجتمع إليها العرب فقاتلوا الإفرنج وهزموهم ورجعوا خائبين إلى المهدية. وحدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين ملك الروم بالقسطنطينية فشغل رجار بها عن أفريقية. وكان متولي كبرها جرجي بن ميخاييل صاحب المهدية. ثم مات سنة ست وأربعين فسكنت تلك الفتنة، ولم يقم لرجار بعده أحد مقامه، والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على بونة ووفاة رجار صاحب صقلية وملك إبنه غليالم:

ثم سار أسطول رجار من صقلية سنة ثمان وأربعين إلى مدينة بونة، وقائد الأسطول بها وقتات المهدوي فحاصرها واستعان عليها بالعرب فملكها واستباحها، وأغضى عن جماعة من أهل

العلم والدين فخرجوا بأموالهم وأهاليهم إلى القرى. وأقام بها عشرا ورجع إلى المهدية، ثم إلى صقلية فنكر عليه رجار رفقه بالمسلمين في بونة وحبسه. ثم إتهم في دينه فاجتمع الأساقفة والقسوس وأحرقوه. ومات رجار آخر هذه السنة لعشرين سنة من ملكه وولي إبنه غليالم مكانه. وكان حسن السيرة واستوزر مائق البرقياني فأساء التدبير، واختلفت عليه حصون من صقلية وبلاد قلورية، وتعدّى الأمراء على أفريقية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج علي عسقلان:

كانت عسقلان في طاعة الظافر العلوي ومن جملة ممالكه وكان الإفرنج يتعاهدونها بالحصار مرة بعد مرة. وكان الوزراء يمدّونها بالأموال والرجال والأسلحة. وكان لهم التحكم في الدولة على الخلفاء العلوية فلما قتل ابن السلار سنة ثمان وأربعين إضطرب الحال بمصر، حتى ولي عباس الوزارة فسار الإفرنج خلال ذلك من بلادهم بالشام وحاصروا عسقلان وامتنعت عليهم ثم اختلف أهل البلد وآل أمرهم إلى القتال فاغتنم الإفرنج الفرصة، وملكوا البلد وعاثوا فيها، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

ثورة المسلمين بسواحل أفريقية على الإفرنج المتغلبين فيها:

قد تقدّم لنا وفاة رجار وملك إبنه غليالم، وإنه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم بافريقية. وكان رجار قد ولى على المسلمين بمدينة صفاقس

لما تغلب عليها أبو الحسن الفرياني منهم، وكان من أهل العلم والدين. ثم عجز عن ذلك، وطلب ولاية إبنه عمر فولاه رجار، وحمل أبا الحسين إلى صقلية رهينة، وأوصى إبنه عمر وقال: يا بني أنا كبير السنّ، وقد قرب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في إنقاذ المسلمين من ملكة العدو فافعل، ولا تخش علي وأحسبني قدمت. فلما اختل أمر غليالم دعا عمر أهل صفاقس إلى الثورة بالإفرنج فثاروا بهم، وقتلوهم سنة إحدى وخمسين، وأتبعه أبو يحيى بن مطروح بطرابلس، ومحمد بن رشيد بقابس. وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها، وذهب حكم الإفرنج عن أفريقية ما عدا المهدية وسوسة وأرسل عمر الفرياني إلى زويلة قريباً من المهدية يغريهم بالوثوب على الإفرنج الذين معهم فوثبوا، وأعانهم أهل ضاحيتهم، وقاتلوا الإفرنج بالمهدية، وقطعوا الميرة عنهم. وبلغ الخبر إلى غليالم فبعث إلى عمر الفرياني بصفاقس، وأعذر إليه في أبيه فأظهر للرسول جنازة ودفنها وقال: هذا قد دفنته فلما رجع الرسول بذلك صلب أبا الحسين، ومات شهيداً رحمه الله تعالى. وسار أهل صفاقس والعرب إلى زويلة واجتمعوا مع أهلها على حصار المهدية وأمدّهم غليالم بالأقوات والأسلحة، وصانعوا العرب بالمال على أن يخذلوا أصحابهم ثم خرجوا للقتال فانهزم العرب وركب أهل صفاقس البحر إلى بلدهم أيضاً وأتبعهم الإفرنج فعاجلوهم عن زويلة وقتلوهم ثم إقتحموا البلد فقتلوا مخلفهم بها واستباحوه.

إرتجاع عبد المؤمن المهدية من يد الإفرنج:

ولما وقع بأهل زويلة من الإفرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن ملك المغرب يستصرخونه فأجاب صريخهم ووعدهم وأقاموا في نزله وكرامته وتجهز للمسير، وتقدّم إلى ولاته وعماله بتحصيل الغلات وحفر الآبار. ثم سار في صفر سنة أربع وخمسين في مائة ألف مقاتل، وفي مقدمته الحسن بن عليّ صاحب المهدية، ونازل تونس منتصف السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان من بقية دولة صنهاجة وجاء أسطول عبد المؤمن فحاصرها من البحر. ثم نزل إليه من سورها عشرة رجال من أعيانها في السلالم مستأمنين لأهل البلد ولأنفسهم فأمنهم على مقاسمتهم في أموالهم، وعلى أن يخرج إليه ابن خراسان فتم ذلك كله. وسار عنها إلى المهدية وأسطوله

محاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب من السنة، وبها أولاد الملوك والزعماء من الإفرنج وقد أخلوا

زويلة وهي على غلوة من المهدية فعمرها عبد المؤمن لوقتها. وامتلأ فضاء المهدية بالعساكر وحاصرها أياماً وضاق موضع القتال من البّر لاستدارة البحر عليها لأنها صورة يد في البحر وذراعها في البر، وأحاط الأسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن البحر في الشواني ومعه الحسن بن عليّ فرأى حصانتها في البحر وأخذ في المطاولة، وجمع الأقوات حتى كانت في ساحة معسكرة كالتلال وبعث إليه أهل صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة بطاعتهم وبعث عسكراً إلى قابس

فملكها عنوة وبعث إبنه عبد الله ففتح كثيراً من البلاد ثم وفد عليه يحيى بن تميم بن المقر بن الرند صاحب قفصة في جماعة من أعيانها فبذل طاعته، ووصله عبد المؤمن بألف دينار ولما كان آخر شعبان وصل أسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها، وبعث إليه صاحب صقلية بقصد المهدية. فلما أشرفوا على المرسى قذفت إليهم أساطيل عبد المؤمن، ووقف عسكره على جانب البرّ وعبد المؤمن ساجد يعفر وجهه بالتراب ويجأر بالدعاء فانهزم أسطول الإفرنج وأقلعوا إلى بلادهم وعاد أسطول المسلمين ظافراً. وأيس أهل المهدية من الإنجاد، ثم صابروا إلى آخر السنة حتى جهدهم الحصار ثم استأمنوا إلى عبد المؤمن فعرض عليهم الإسلام فأبوا ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى أمنهم وأعطاهم السفن فركبوا فيها وكان فصل شتاء فمال عليهم البحر وغرقوا ولم يفلت منهم إلا الأقل ودخل عبد المؤمن المهدية في محرم سنة خمس وخمسين لاثنتي عشرة سنة من ملك الإفرنج، وأقام بها عشرين يوماً فأصلح أمورها وشحنها بالحامية والأقوات، واستعمل عليها بعض أصحابه، وأنزل معه الحسن بن علي وأقطعه بأرضها له ولأولاده، وأمر الوالي أن يقتدي برأيه، ورجع إلى المغرب، والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج أسد الدين شيركوه في بلبيس:

كان أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين قد بعثه نور الدين العادل سنة تسع وخمسمائة، منجداً لشاور وزير العاضد صاحب مصر على قريعة الضرغام كما سيأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى. وسار نور الدين

من دمشق في عساكره إلى بلاد الإفرنج ليشغلهم عن أسد الدين شيركوه
وخرج ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فهزمه أسد الدين

على تنيس وأتبعه إلى القاهرة ونزلها منتصف السنة وأعاد شاور إلى الوزارة ونقض ما بينه وبين أسد الدين وتأخر إلى تنيس. وخشي منه ودس إلى الإفرنج يغريهم به، وبذل لهم المال فطمعوا بذلك في ملك الديار المصرية وسار ملك القدس في عساكر الإفرنج، وإجتمعت معه عساكر المسلمين. وساروا إلى أسد الدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة، ولم يظفروا منه بشيء. ثم جاءهم الخبر بأن نور الدين العادل هزم أصحابهم على خارد وفتحها.ثم سار إلى بانياس فسقط في أيديهم وطلبوا الصلح من أسد الدين ليعودوا إلى بلادهم لذلك، وخرج من بلبيس سائراً إلى الشام. ثم عاد إلى مصر سنة إثنتين وستين وعبر النيل من أطفج ونزل الجزيرة. واستمد شاور الإفرنج فساروا إليه بجموعهم. وكان أسد الدين قد سار إلى الصعيد، وانتهى إلى فسار الإفرنج والعساكر المصرية في أثره فأدركوه منتصف السنة، وإستشار أصحابه فاتفقوا على القتال، وأدركته عساكر الإفرنج ومصر، وهو على تعبيته، وقد أقام مقامه في القلب راشد حذرا من حملة الإفرنج وانحاز فيمن يثق به من شجعان أصحابه إلى الميمنة فحمل الإفرنج على القلب فهزموهم وأتبعوهم وخالفهم أسد الدين إلى من تركوا وراءهم من العساكر فهزمهم وأثخن فيهم ورجع الإفرنج من أثناء القلب فانهزموا وإنهزم أصحابهم، ولحقوا بمصر. ولحق أسد الدين بالاسكندرية فملكها صلحاً، وأنزل بها صلاح الدين ابن أخيه، وحاصرته عساكر الإفرنج ومصر وزحف إليهم عمه أسد الدين من الصعيد فبعثوا إليه في الصلح فأجابهم على خمسين ألف دينار يعطونها إياه، ولا يقيم في البلد أحد من الإفرنج، ولا يملكون منها شيئاً فقبلوا ذلك وعادوا إلى الشام. وملك أهل مصر الاسكندرية، واستقر بينهم وبين الإفرنج أن ينزلوا بالقاهرة شحنة، وأن يكون أبوابها في علقها وفتحها بأيديهم وأن لهم من خراج مصر مائة ألف دينار في كل سنة ولم ذلك منه وعاد الإفرنج إلى بلادهم بالسواحل الشامية والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج القاهرة:

ثم كان مسير أسد الدين إلى مصر وقتله شاور سنة أربع وستين باستدعاء العاضد، لما رأى من تغلب الإفرنج كما نذكر في أخبار أسد الدين. وأرسل إلى الإفرنج أصحابهم الذين بالقاهرة

يستدعونهم لملكها ويهونونها عليهم وملك الإفرنج يومئذ بالشام مرى ولم يكن ظهر فيهم مثله شجاعة ورأيا فأشار بأن جبايتها لنا خير من ملكها. وقد يضطرون فيملكون نور الدين منها، وإن ملكها قبلنا إحتاج إلى مصانعتنا فأبوا عليه وقالوا: إنما نزداد بها قوة فرجع إلى رأيهم. وساروا جميعاً إلى مصر، وانتهوا إلى تنيس في صفر سنة أربع وستين فملكوها عنوة واستباحوها ثم ساروا إلى القاهرة وحاصروها وأمر شاور بإحراق مصر وانتقال أهلها إلى القاهرة، فنهبت المدينة، ونهب أموال أهلها وبغتهم قبل نزول الإفرنج عليهم بيوم فلم تخمد النار مدة شهرين. وبعث العاضد بالصريخ إلى نور الدين واشتدّ عليه الحصار. وبعث شاور إلى ملك الإفرنج يشير بالصلح على ألف ألف دينار مصرية، ويهدّده بعساكر نور الدين فأجابوا إلى ذلك ودفع إليهم مائة ألف دينار وتأخروا قريباً حتى يصل إليهم بقية المال، وعجز عن تحصيله والافرنج يستحثونه فبعثوا خلال ذلك إلى نور الدين يستنجدونه على الإفرنج بأن يرسل إليهم أسد الدين شيركوه في عسكر يقيمون عندهم، على أنّ لنور الدين ثلث بلاد مصر، ولأسد الدين إقطاعه وعطاء العساكر فاستدعى أسد الدين من حمص، وكانت إقطاعه. وأمر بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الدواب والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن وما يحتاج إليه وسار في ستة آلاف وأزاح علل جنده، وأعانهم أسد الدين بعشرين دينارا لكل فارس. وبعث معه جماعة من الأمراء: منهم خرديك مولاه وعز الدين قليج، وشرف الدين بن بخش وعين الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان، وصلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب. وسار إلى مصر فلما قاربها إرتحل الإفرنج راجعين إلى بلادهم، ودخل هو إليها منتصف السنة، وخلع عليه العاضد وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الوافرة ثم شرع شاور في مماطلة أسد الدين

بما وقع إتفاقهم معه عليه، وحدّث نفسه بالقبض عليه واستخدام جنده لمدافعة الإفرنج ولم يتم له ذلك. وشعر به أسد الدين فاعترضه صلاح الدين ابن أخيه، وعز الدين خرديك مولاه عند قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه وقتلاه وفوّض العاضد أمور دولته إلى أسد الدين وتقاصر الإفرنج عنها. ومات أسد الدين واستولى صلاح الدين بعد ذلك على البلاد وارتجع البلاد الإسلامية من يد الإفرنج كما نذكر في أخبار دولته والله أعلم.

حصار الإفرنج دمياط:

ولما ملك أسد الدين شيركوه مصر خشية الإفرنج على ما بأيديهم من مدن الشام وسواحله، وكاتبوا أهل ملتهم ونسبهم بصقلية وافرنسة يستنجدونهم على مصر ليملكوها، وبعثوا الأقسة والرهبان من بيت المقدس يستنفرونهم لحمايتها وواعدوهم بدمياط طمعا في أن يملكوها ويتخذوها ركابا للاستيلاء على مصر فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول أيام صلاح الدين وأمدهم صلاح الدين بالعساكر والأموال. وجاء بنفسه، وبعث إلى نور الدين يستنجده ويخوفه على مصر فتابع إليه الأمداد، وسار بنفسه إلى بلاد الإفرنج بالشام. واكتسحها وخربها

فعاد الفرنج إلى دمياط بعد حصار خمسين يوما نفَسّ الله عليهم ومن هذه القصة بقية أخبار الإفرنج متعلقة بالدولتين: دولة بني زنكي بالشام ودولة بني أيوب بمصر فأخرت بقية أخبارهم إلى أن نسردها في الدولتين على مواقعها في مواضعها حسبما تراه. ولم يبق إلا استيلاؤهم على القسطنطينية من يد الروم فأوردناه ههنا.

استيلاء الإفرنج علي القسطنطينية:

كان هؤلاء الإفرنج بعد ما ملكوه من بلاد الشام اختلفت أحوالهم في الفتنة والمهادنة

مع الروم بالقسطنطينية، لاستيلائهم على الثغور من بلاد المسلمين التي تجاور الروم التي كانت بأيديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين في بعض المرات ثم غلبوا عليهم آخراً . وملكوا القسطنطينية من أيديهم فأقامت في أيديهم مدة. ثم ارتجعها الروم على يد شكري من بطارقتهم وكيفية الخبر عن ذلك أنّ ملوك الروم أصهروا إلى ملوك الإفرنج وتزوجوا منهم بنتاً لملك الروم فولدت ذكرا خاله الافرنسيس وثب عليه أخوه فانتزع الملك من يده وحبسه، ولحق الولد بملك الإفرنج خاله مستصرخاً به فوصل إليه، وقد تجهز الإفرنج لاستنقاذ القدس من يد المسلمين. وكان صلاح الدين قد ارتجعها منهم كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى. وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دموس البنادقة وهو صاحب الأسطول الذي ركبوا فيه وكان

شيخا أعمى لا يركب ولا يمشي إلا بقائد. ومقدم الفرنسيس ويسمى المركيش، والثالث يسمى كبداقليد وهو أكثرهم عددا فجعل الملك ابن أخته معهم، وأوصاهم بمظاهرته على ملكه بالقسطنطينية، ووصلوا إليها في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فخرج عمّ الصبي وقاتلهم. واضرم شيعة الصبي النار في نواحي البلاد فاضطرب العسكر ورجعوا، وفتح شيعة الصبي باب المدينة، وأدخلوا الإفرنج. وخرج عمه هارباً ونصب الإفرنج الصبي في الملك، وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم وصادروا الناس وأخذوا مال البيع، وما على الصلبان من الذهب، وما على تماثيل المسيح والحواريين، وما على الإنجيل فعظم ذلك على الروم ووثبوا بالصبي فقتلوه، وأخرجوا الإفرنج من البلد، وذلك منتصف سنة ستمائة. وأقام الإفرنج بظاهرها محاصرين لهم. وبعث الروم صريخا إلى صاحب قونية ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان، ينهض لذلك وكان بالمدينة متخلفون من الإفرنج يناهزون ثلاثين ألفاً فثاروا بالبلد عند شغل الروم بقتال أصحابهم، وأضرموا النار ثانياً فاقتحم الإفرنج وأفحشوا في النهب والقتل. ونجا كثير من الروم إلى الكنائس وأعظمها كنيسة سوميا فلم تغن عنهم. وخرج القسيسون والأساقفة في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلوهم. ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها، وتقارعوا فخرجت القرعة على كبداقليد فملكها على أن يكون لدموس البنادقة الجزائر البحرية اقريطش ورودس وغيرهما. ويكون لمركيش الافرنسيس شرقي الخليج، ولم يحصل أحد منهم شيئا إلا ملك القسطنطينية كبداقليد وتغلب على شرقي الخليج بطريق من بطارقة الروم اسمه شكري فلم يزل بيده إلى أن مات. ثم غلب بعد ذلك على القسطنطينية وملكها من يد الإفرنج، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني أرتق وملكهم لماردين وديار بكر ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم:

كان أرتق بن أكسك ويقال اكست، والأول أصح. كلمة أولها همزة ثم كافان الأولى ساكنة بينهما سين، من مماليك السلطان ملك شاه بن ألب ارسلان ملك السلجوقية، وله مقام محمود في

دولتهم وكان على حلوان وما إليها من أعمال العراق. ولما بعث السلطان ملك شاه عساكره إلى حصار الموصل مع فخر الدولة بن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة أردفة بعسكر آخر مع أرتق فهزمه مسلم بن قريش فحاصره بآمد. ثم داخله في الخروج من هذا الحصار على مال اشترطه، ونجا إلى الرقة. ثم خشي أرتق من فعلته تلك فلحق بتتش حتى سار إلى حلب طامعاً في ملكها فلقيه تتش وهزمه. وكان لأرتق في تلك الواقعة المقام المحمود. ثم سار تتش إلى حلب وملكها، واستجار مقدمها ابن الحسين بأرتق فأجاره من السلطان تتش. ثم هلك ارتق سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بالقدس. وملك من بعد ابنا ارتق ابن أخيهما أبو الغازي وسقمان. وكان لهما معه الرها وسروج. ولما ملك الإفرنج أنْطاكِية سنة إحدى وتسعين وأربعمائة اجتمعت الأمراء بالشام والجزيرة وديار بكر وحاصروها. وكان لسقمان في ذلك المقام المحمود. ثم تخاذلوا وافترقوا وطمع أهل مصر في ارتجاع القدس منهم. وسار إليها الملك الأفضل المستولي على دولتهم فحاصرها أربعين يوما وملكها بالأمان. وخرج سقمان وأبو الغازي ابنا ارتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج، وأحسن إليهم الأفضل وولى على بيت المقدس ورجع إلى مصر. وجاء الإفرنج فملكوها كما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية. ولحق أبو الغازي بالعراق فولي شحنة بغداد، وسار سقمان إلى الرها فأقام بها وكان بينه وبين كربوقا صاحب الموصل فتن وحروب أسر في بعضها ياقوتي ابن أخيه. ثم توفي كربوقا سنة خمسة وتسعين وولي الموصل بعده موسى التركماني وكان نائباً بحصن كيفا فزحف إليه جكرمس صاحب جزيرة ابن عمر وحاصره بالموصل واستنجد موسى سقمان على أن يعطيه حصن كيفا فانجده وسار إليه وأفرج عنه جكرمس وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه غدراً، ورجع سقمان إلى حصن كيفا فملكه ثم كانت الفتنة بين أبي الغازي وكمستكين القيصري لما بعثه بركيارق شحنة على بغداد وكان هو شحنة من قبل السلطان محمد فمنع القيصري من الدخول واستنجد أخاه سقمان فجاء إليه

من حصن كيفا في عساكره ونهب تكريت وخرج إليه أبو الغازي، واجتمع معهم صدقة بن مزيد صاحب الحلة، وعاثوا في نواحي بغداد وفتكوا بنفر من أهل البلد وبعث إليهم الخليفة في الصلح على أن يسير القيصري إلى واسط فسار إليها ودخل أبو الغازي بغداد، ورجع سقمان إلى بلده وقد مرّ ذلك في أخبارهم ثم استولى مالك بن بهرام أخي سقمان على عامّة الخرمية سنة سبع وتسعين، وكان له مدينة سروج فملكها منه الإفرنج، وسار إلى غانة فملكها من بني يعيش بن عيسى بن خلاط. واستصرخوا بصدقة بن مزيد، وارتجعها لهم منه، وعاد إلى الحلة فعاد مالك فملكها واستقرّت في ملكه. ثم اجتمع سقمان وجكرمس صاحب الموصل على جهاد الإفرنج سنة سبع وتسعين، وهم محاصرون حران فتركوا المنافسة بينهم وقصدوهم وسقمان في سبعة آلاف من التركمان فهزموا الإفرنج، وأسروا القمص برديل صاحب الرها، أسره أصحاب سقمان فتغلب عليهم أصحاب جكرمس وأخذوه، وافترقوا بسبب ذلك وعادوا إلى ما كان بينهم من الفتن، والله أعلم.

استيلاء سقمان بن ارتق علي ماردين:

كان هذا الحصن ماردين من ديار بكر، وأقطعه السلطان بركيارق بجميع أعماله

لمغن كان عنده، وكان في ولاية الموصل، وكان ينجّر إليه خلق كثير من الأكراد يفسدون السابلة. واتفق ان كربوقا صاحب الموصل سار لحصار آمد، وهي لبعض التركمان، فاستنجد صاحبها بسقمان فسار لإنجاده، وقاتل كربوقا قتالا شديداً. ثم هزمه وأسر ابن أخيه ياقوتي بن ارتق وحبسه بقلعة

ماردين عند المغني فبقي محبوساً مدة طويلة، وكثر ضرر الأكراد فبعث ياقوتي إلى المغني صاحب الحصن في أن يطلقه، ويقيم عنده بالربض لدفاع الأكراد ففعل، وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط. وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة معهم فلا يهيجهم ثم حدثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرضهم على القتل إن لم يفتحوا له ففتحها أهلوهم وملكها. وجمع الجموع وسار إلى نصيبين، وأغار على جزيرة ابن عمر، وهي لجكرمس فكبسه جكرمس وأصحابه في الحرب بينهم فقتله، وبكاه جكرمس. وكان تحت ياقوتي ابنة عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان. وجاء سقمان بهم إلى نصيبين فترك طلب الثأر فبعث إليه جكرمس ما أرضاه من المال في ديته، ورجع وقدم بماردين بعد ياقوتي أخوه علي بطاعة جكرمس، وخرج منها لبعض المذاهب. وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه يملك ماردين لجكرمس فسار إليها سقمان، وعوض عليا ابن أخته جبل جور، وأقامت ماردين في ملكه مع حصن كيفا واستضاف إليهما نصيبين، والله أعلم.

وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه بماردين:

ثم بعث فخر الدين بن عمار صاحب طرابلس يستنجد سقمان بن أرتق على الإفرنج، وكان استبدّ بها على الخلفاء العلويين أهل مصر، ونازله الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين. وأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وافاه كتاب طغركين صاحب دمشق المستبدّ بها من موالي بني تتش، يستدعيه لحضور وفاته، خوفاً على دمشق من الإفرنج فأسرع المسير إليه معتزماً على قصد طرابلس وبعدها دمشق فانتهى إلى القريتين، وندم طغركين على استدعائه، وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه. ومات هو بالقدس فكفاهم الله أمره، وقد كان أصحابه عندما أشقي على الموت أشاروا عليه بالرجوع إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وان مت كان لي ثواب شهيد. فلما مات حمله ابنه إبراهيم إلى

حصن كيفا فدفنه بها وكان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد كما قدّمناه ولاه السلطان محمد أيام الفتنة بينه وبين أخيه بركيارق. فلما اصطلح بركيارق وأخوه سنة تسع وتسعين على أن تكون بغداد له، وممالك أخرى من الممالك الإسلامية ومن جملتها حلوان، وهي أقطاع أبي الغازي فبادر وخطب لبركيارق ببغداد، فنكر عليه ذلك صدقة بن مزيد وكان من شيعة السلطان محمد فجاء إلى بغداد ليزعج أبا الغازي عنها ففارقها إلى يعقوب وبعث إلى صدقة يعتذر بأنه صار في ولاية بركيارق، ويحكم الصلح في اقطاعه وولايته فلم يمكنه غير ذلك ومات بركيارق على أثر ذلك فخطب، أبو الغازي لابنه ملك شاه فنكر ذلك السلطان محمد منه، فلما استولى على الأمر عزله عن شحنة بغداد فلحق بالشام وحمل رضوان بن تتش صاحب حلب على حصار نصيبين من بلاد جكرمس فحاصروها. وبعث جكرمس إلى رضوان وأغراه بأبي الغازي ففسد ما بينهما، ورحلوا مفترقين على نصيبين. وسار أبو الغازي إلى ماردين، وقد مات أخوه سقمان كما قلناه فاستولى عليها والله تعالى أعلم.

اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسره ثم خلاصه

لما ولى السلطان محمد على الموصل والجزيرة وديار بكر سنة اثنتين وخمسمائة مودود بن أفتكين مكان جاولي سكاوو الذي ملكها من يد جكرمرّ كما مر في أخبارهم فوصل مودود إلى الموصل، وسار جاولي إلى نصيبين وهي يومئذ لأبي الغازي، وراسله في المظاهرة والانجاد فوصل إليه بماردين على حين غفلة مس مستنجدا به فلم يسعه إلا اسعافه، وسار معه إلى سنجار والرحبة وحاصرهما، وشق عليهما فلما نزل الخابور هرب أبو الغازي راجعاً إلى نصيبين، ثم إلى بلده، وبقي مضطرباً. ثم بعث السلطان محمد سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود بالمسير إلى قتال الإفرنج، وأن يسير الأمراء معه من كل جهة، مثل سقمان القطبي صاحب ديار بكر، وأحمد بك صاحب مراغة، وأبي الهيجاء صاحب اربل، وأبي الغازي صاحب ماردين فحضروا كلهم إلا أبا الغازي، فإنه بعث ولده أياز في عسكر فسارت العساكر إلى الرها وحاصروها، وامتنعت عليهم. ثم ساروا سنة ست

وخمسمائة إلى سروج كذلك ثم ساروا سنة سبع إلى بلاد الإفرنج فهزموهم على طبرية ودوّخوا بلادهم وعاد مودود إلى دمشق وافترقت العساكر، ودخل دمشق ليشتي بها عند طغركين صاحبها فقتل غيلة بها واتهم طغركين في أمره وبعث السلطان مكانه

على العساكر والموصل اقسنقر البرسقي، وأمره بقصد الإفرنج وقتالهم، وكتب إلى الأمراء بطاعته، وبعث ابنه الملك مسعودا في عسكر كثيف ليكونوا معه فسار أقسنقر سنة ثمان وخمسمائة، وفرّ أبو الغازي وحاصره بماردين حتى استقام وبعث معه ابنه اياز في عسكر فحاصروا الرها وعاثوا في نواحيها، ثم سروج وشمشاط، وأطاعه صاحب مرعش وكيسوم ورجع فقبض على أياز بن أبي الغازي، ونهب سواد ماردين فسار أبو الغازي من وقته إلى ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان، وهو بحصن كيفا مستنجدا به فأنجده وساروا إلى البرسقي آخر ثمان وخمسمائة فهزموهم وخلصوا ابنه أياز من الأسر. وأرسل السلطان إلى أبي الغازي يتهدّده فلحق بطغركين صاحب دمشق صريخا وكان طغركين مستوحشاً لاتهامه بأمر مودود فاتفقا على الاستنجاد وبعثا بذلك إلى صاحب انْطاكِية فجاء إليهما قرب حمص، وتحالفا وعاد إلى انْطاكِية. وسار أبو الغازي إلى ديار بكر في خف من اصحابه فاعترضه قيرجان صاحب حمص فظفر به وأسره وبعث إلى السلطان بخبره، وأبطأ عليه وصول جوابه فيه. وجاء طغركين إلى حمص فدخل على قيرجان وألحّ عليه بقتل أبي الغازي ثم أطلقه قيرجان وأخذ عليه وسار أبو الغازي إلى حلب وبعث السلطان العساكر مع يوسف بن برسق صاحب همذان وغيره من الأمراء لقتال أبي الغازي، وقتال الإفرنج بعده فساروا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم، مولى رضوان بن تتش، كفل ابنه ألب ارسلان بعد موته، ومعه مقدم العساكر شمس الخواص فطالبوهما بتسليم حلب بكتاب السلطان إليهما في ذلك وبادر أبو الغازي وطغركين فدخلا إليهما فامتنعت عليهما فساروا إلى حماة من أعمال طغركين، وبها ذخائره ففتوها عنوة ونهبوها، وسلموها إلى الأمير قيرجان صاحب حمص فأعطاهم اياز بن أبي الغازي وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص ساروا إلى روجيل صاحب أنْطاكِية يستنجدونه على حفظ حماة وجاءهم هنالك بقدوين صاحب القدس، والقمص صاحب طرابلس وغيرهما. واتفقوا على مطاولة العساكر ليتفرّقوا عند هجوم الشتاء واجتمعوا عند قلعة افامية فلم تبرح العساكر مكانها فافترقوا وعاد طغركين إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين والافرنج إلى بلادهم. ثم كان اثر ذلك فتح كفرطاب على

المسلمين، واعتزموا على معاودة حلب فاعترضهم روجيل صاحب انْطاكِية، وقد جاء في خمسمائة فارس مدداً للافرنج في كفرطاب فانهزم المسلمون، وكان تمحيصهم ، ورجع برسق أمير العساكر وأخوه منهزمين إلى بلادهم. وكان اياز بن أبي الغازي أسيراً عندهم فقتله الموكلون به يوم المعركة سنة تسع وخمسمائة، والله تعالى أعلم.

استيلاء أبي الغازي علي حلب:

كان رضوان بن تتش صاحب حلب لمّا توفي سنة سبع وخمسمائة، قام بأمر دولته

لؤلؤ الخادم. ونصب ابنه ألب ارسلان في ملكه. ثم استوحش منه ونصب مكانه أخاه سلطان شاه واستبدّ عليه. ثم سار لؤلؤ الخادم إلى قلعة جعفر سنة إحدى عشرة ، بينه وبين مالك بن سالم بن بدران فغدر به مماليك الأتراك وقتلوه عند خرت برت، واستولوا على خزائنه. واعترضهم أهل حلب واستنقذوا منهم ما أخذوه وولّي شمس الخواص أتابك مكان لؤلؤ . ثم عزل لشهر ووليّ أبو المعالي بن الملحي الدمشقي. ثم عزل وصودر واضطربت الدولة، وخشي أهل حلب على بلدهم من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن ارتق من ماردين وسلموا له البلد. وانقرض ملك آل رضوان بن تتش منها فلم يملكها بعد واحد منهم. ولما ملكها لم يجد فيها مالاً فصادر جماعة من الخدم، وصانع الإفرنج بمالهم. ثم سار إلى ماردين بغية العودة إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش.

واقعة أبي الغازي مع الإفرنج:

ولما استولى أبو الغازي على حلب وسار عنها طمع في الإفرنج، وساروا إليها فملكوا مراغة وغيرها من أعمالها، وحاصروها فلم يكن لأهلها بد من مدافعتهم بقتال أو بمال فقاسموهم أملاكهم التي بضاحيتها في سبيل المصانعة. وبعثوا إلى بغداد يستغيثون فلم يغاثوا. وجمع أبو الغازي من العساكر والمتطوعة نحوا من عشرين ألفاً. وسار بهم إلى الشام سنة ثلاثة عشرة، ومعه أسامة بن مبارك بن منقذ الكناني، وطغان ارسلان بن اسكين بن جناح صاحب ارزن الروم. ونزل الإفرنج قريباً من حصون الأماري في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا في تل عفرين حيث كان مقتل مسلم بن قريش، وتحصنوا بالجبال من كل جهة إلا ثلاث مسارب فقصدهم أبو الغازي، ودخل عليهم من تلك المسارب، وهم غارون فركبوا وصدقوا الحملة فلقوا عساكر المسلمين متتابعة فولوا منهزمين، وأخذهم السيف من كل جهة فلم يفلت إلا القليل، وأسر من زعمائهم سبعون فاداهم أهل

حلب بثلاثمائة ألف دينار، وقتل سرجان صاحب انْطاكِية ونجا فلهم من المعركة فاجتمع جماعة من الإفرنج وعاودوا اللقاء

فهزمهم أبو الغازي، وفتح حصن الأربارت ورزدنا، وعاد إلى حلب فأصلح أمورها وعبر الفرات إلى ماردين، وولّى على حلب ابنه سليمان. ثم وصل دبيس بن صدقة إلى أبي الغازي مستجيراً به. فكتب إليه المسترشد مع سرير الدولة عبد أبي الغازي ، بإبعاد دبيس. ثم وقع بينه وبين السلطان محمود الاتفاق ورهن ولده على الطاعة ورجع. وسار أبو الغازي إلى الإفرنج عقب ذلك سنة أربع عشرة فقاتلهم بأعمال حلب وظفر بهم. ثم سار هو وطغركين صاحب دمشق فحاصروا الإفرنج بالمثيرة وخشوا من استماتتهم فأفرج لهم أبو الغازي حتى خرجوا من الحصن، وكان لا يطيل المقام بدار الحرب لأن أكثر الغزاة معه. التركمان يأتون بجراب دقيق وقديد شاة، فيستعجل العود إن فنيت ازوادهم والله أعلم.

انتقاض سليمان بن أبي الغازي بحلب:

كان أبو الغازي قد ولّي على حلب ابنه سليمان فحمله بطانته على الخلاف على أبيه. وسار إليه أبوه تلقاه ابنه سليمان بالمعاذير فأمسك عنه، وقبض على بطانته الذين داخلوه في ذلك. وكان متولّي كبرها أمير كان لقيطاً لأبيه ونشأ في بيته فسمله وقطع لسانه. وكان منهم آخر من أهل حماة قدمه أبو الغازي على أهل حلب فقطعه وسمله فمات وأراد قتل ابنه. ثم ثنته الشفقة عليه، وهرب إلى دمشق وشفع فيه طغركين فلم يشفعه. ثم استخلف على حلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين وذلك سنة خمس عشرة، ثم ابنه حسام الدين تمرتاش مع القاضي بهاء الدولة أبي الحسن الشهرزوري شافعاً في دبيس وضامناً في طاعته فلم يتم ذلك. فلما انصرف تمرتاش إلى أبيه اقطع السلطان أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين. وكانت لسقمان القطبي صاحب خلاط فتسلمها أبو الغازي ولم تزل في يده إلى أن ملكها صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة، والله تعالى أعلم.

واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها:

قد تقدم لنا أن جوسكين من الإفرنج كان صاحب الرها وسروج، وأن مالك بن بهرام كان قد

ملك مدينة عانة فسار سنة خمس عشرة إلى الرها، وحاصرها أياما فامتنعت عليه، وسار جوسكين في اتباعه بعد أن جمع الإفرنج، وقد تفرق عن مالك أصحابه. ولم يبق معه إلا أربعمائة فلحقوه في أرض رخوة قد نضب عنها الماء فوحلت فيها خيولهم ولم يقدروا على التخلص فظفر بهم أصحاب مالك وأسروهم وجعل جوسكين في اهاب جمل وخيط عليه، وطلبوا منه تسليم الرها فلم يفعل، وحبسه في خرت برت بعد أن بذل في فديته أموالا فلم يفادوه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده:

ثم توفي أبو الغازي بن أرتق صاحب ماردين في رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة فولي بعده بماردين ابنه حسام الدين تمرتاش، وملك سليمان ميافارقين. وكان بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار فاستولى عليها. ثم سار مالك بن بهرام بن أرتق إلى مدينة حران فحاصرها وملكها. وبلغه أن سليمان ابن عمه عبد الجبار صاحب حلب قد عجز عن مدافعة الإفرنج، وأعطاهم حصن الاماري فطمع في ملك بلاده وسار إليها في ربيع سنة عشرة، وملكها من يده على الأمان. ثم سار سنة ثمان عشرة إلى منبج وحاصرها وملك المدينة، وحبس صاحبها حسان التغلبي. وامتنع أهلها بالقلعة فحاصرها، وسمع الإفرنج بذلك فساروا إليه فترك على القلعة من يحاصرها، ونهض إليهم فهزمهم، وأثخن فيهم، وعاد إلى منبج فحاصرها. وأصابه بعض الأيام سهم غرب فقتله فاضطرب العسكر وافترقوا، وخلص حسان من محبسه. وكان تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين معه على منبج فلما قتل حمل شلوه إلى حلب ودفنه بها واستولى عليها. ثم استخلف عليها، وعاد إلى ماردين وجاء الإفرنج إلى مدينة صور فملكوها، وطمعوا في غيرها من بلاد المسلمين. ولحق بهم دبيس بن صدقة ناجيا من واقعته فع المسترشد فأطمعهم في ملك حلب، وساروا معه فحاصروها وبنوا عليها المساكن. وطال الحصار وقلت الأقوات، واضطرب أهل البلد وظهر لهم العجز من صاحبهم، ولم يكن في الوقت أظهر من البرسقي صاحب الموصل، ولا أكثر قوة وجمعاً منه فاستدعوه ليدافع عنهم ويملكوه. وشرط عليهم ان يمكنوه من القلعة قبل وصوله. ونزل فيها بوابه وسار فلما أشرف

على الإفرنج ارتحلوا عائدين إلى بلادهم. وخرج أهل حلب فتلقوا البرسقي فدخل واستولى على حلب وأعمالها، ولم تزل بيده إلى أن هلك وملكها ابنه عز الدين. ثم هلك فولى السلطان محمود عليها أتابك زنكي حسبما يأتي

في أخبار دولته. ورجع تمرتاش إلى ماردين واستمر ملكه بها وكان مستولياً على كثير من قلاع ديار بكر. استولى سنة اثنتين وثلاثين على قلعة الساج من ديار بكر، وكانت بيد بعض بني مروان من بقايا ملوك الأولين. وكان هذا آخرهم بهذه القلعة، وكان ملك ميافارقين قد سار لحسام الدين تمرتاش، وملكها من يد أخيه سليمان، ولم يزل تمرتاش ملكاً بماردين إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وخمسمائة لاحدى وثلاثين سنة من ملكه، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة تمرتاش وولاية ابنه البي بعده:

ثم توفي حسام الدين تمرتاش سنة سبع وأربعين وخمسمائة كما قلنا فملك بعده ابنه بماردين ألبي بن تمرتاش، وبقي ملكا عليها إلى أن مات وولّي بعده ابنه أبو الغازي بن ألبي إلى أن مات. ولم يذكر ابن الأثير تاريخ وفاتهما. وقال مؤرخ حماة: لم يقع إلى تاريخ وفاتهما.

ولاية حسام الدين بولق ارسلان بن أبي الغازي بن ألبي:

ولما توفي أبو الغازي بن ألبي قام بأمر ملكه نظام الملك النقش، ونصب للملك مكانه ابنه بولق ارسلان طفلا، واستبدّ عليه. وكان النقش غالبا على هواه حيث صار أمر الطفل في يده. ولم تزل حالهم على ذلك إلى أن هلك حسام الدين في سنة خمس وتسعين وخمسمائة على عهد بولق هذا وكناه ابن الأثير حسام الدين ناصر الملك، قصد العادل أبو بكر بن أيوب ماردين، وخشيت ملوك الجزيرة، ولم يقدروا على منعه. ثم توفي العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر، وولّي أخوه الأفضل فاستنفر العادل أهل مصر ودمشق وأهل سنجار، وبعثهم مع ابنه الكامل، وحاصروا ماردين فبعث إليه النقش المستولي على بولق بالطاعة، وتسليم القلعة لأجل معلوم على أن يدخل إليهم الأقوات. ووضع العادل ابنه على بابها أن لا يدخلها زائد على القوت فصانعوا الولد بالمال، وشحنوها بالأقوات. وبينما هم في ذلك جاء نور الدين صاحب الموصل لإنجادهم، وقاتلهم فانهزم عساكر العادل، وخرج أهل القلعة فأوقعوا بعسكر الكامل ابنه فرحلوا جميعاً منهزمين. ونزل حسام الدين بولق إلى نور الدين، ولقيه وشكر وعاد. ونزل نور الدين على دبيس،

ثم رحل عنها قاصدا حوران كما نذكره في أخبار دولته إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

وفاة بولق وولاية أخيه أرتق:

ولما هلك بولق ارسلان نصب لؤلؤ الخادم بعده للملك أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق ارسلان بن قطب الدين أبي الغازي. ولم يذكر ابن الأثير خبر وفاته أيضاً، وبقي مملكا في كفالة النقش إلى سنة إحدى وستمائة، والله أعلم.

مقتل النقش واستبداد أرتق المنصور واتصال الملك في عقبه:

ثم استنكف أرتق من المحر، ومرض النقش سنة إحدى وستمائة فجاء أرتق لعيادته، وقتل لؤلؤ ا خادمه في بعض زوايا بيته، ورجع إلى النقش فقتله في فراشه، واستقل بملك ماردين، وتلقب المنصور وتوفي سنة ست وثلاثين وثلثمائة وملك بعده ابنه السعيد نجم الدين غازي بن أرتق وتوفي سنة ثمان أو ثلاث وخمسين، وملك بعده أخوه المظفر قرا ارسلان بن أرتق فأقام سنة أو بعضها. ثم هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وملك بعده أخوه المنصور نجم الدين غازي بن قرا ارسلان إلى ان توفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لأربع وخمسين سنة من ولايته. وملك بعده ابنه المنصور أحمد إلى أن توفي سنة تسع وستين لثلاث سنين من ولايته. ثم ملك بعده ابنه الصالح محمود أربعة أشهر، وخلعه عمه المظفر فخر الدين داود المنصور أحمد إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وملك بعده ابنه مجد الدين عيسى وهو السلطان بماردين لهذا العهد. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

ولما ملك هلاكو بن طلوخان بن جنكزخان مدينة بغداد وأعمالها، أعطاه المظفر قرا ارسلان طاعته، وخطب له في أعماله، ولم يزالوا يدينون بطاعة بنيه إلى أن هلك أبو سعيد بن خربهرا آخر ملوك التتر ببغداد سنة سبع وثلاثين فقطعوا الخطبة لهم، واستبد أحمد المنصور منهم وهو الثاني عشر من لدن أبي الغازي جدّهم الأول وأما داود بن سقمان فإنه ملك حصن كيفا من بعد سقمان أبيه وإبراهيم أخيه، ولم أقف على خبر وفاته وملك بعده ابنه

فخر الدين قرا ارسلان بن داود، وملك أكثر ديار بكر مع حصن كيفا. وتوفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة. وملك بعده ابنه نور الدين محمد بعهده

إليه بذلك، وكانت بينه وبين صلاح الدين مواصلة ومظاهرة. ظاهر صلاح الدين على الموصل على أن يظاهره على آمد فظاهره صلاح الدين، وحاصرها من صاحبها ابن سنان سنة تسع وستين، وصارت من أعمال نور الدين كما نذكر في دولة صلاح الدين. ثم توفي نور الدين محمد سنة إحدى وثمانين وخلف ولدين : فملك الأكبر منهما قطب الدين سقمان، وأقام بتدبير دولته العوام ابن سماق الأسعد وزير أبيه، وكان عماد الدين أخو نور الدين هو المرشح للإمارة، إلا أنه سار في العساكر مددا لصلاح الدين على حصار الموصل. فلما بلغه الخبر بوفاة أخيه سار لملك البلد لصغر أولاد أخيه نور الدين فلم يظفر واستولى على خرت برت فانتزعها منهم وملكها وأورثها بنيه. فلما أفرج صلاح الدين عن الموصل لقيه قطب الدين سقمان، وأقره على ملك أبيه بكيفا، وأبقى بيده آمد التي كان ملكها لأبيه، وشرط عليه مراجعته في أحواله والوقوف عند أوامره. وأقام أميراً من أصحاب ابنه قرا ارسلان اسمه صلاح الدين فقام بأمور دولته. واستقر ملكه بكيفا وآمد وما إليهما، إلى أن توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، تردى من جوسق له بحصن كيفا فمات. وكان أخوه محمود مرشحا لمكانه، إلا أن قطب الدين سقمان كان شديد البغضاء له، واشخصه إلى حصن منصور من آخر عملهم، واصطفى مملوكه اياسا وزّوجه بأخته وجعله ولي عهده. ولما توفي ملك بعده مملوكه، وشخص أهل الدولة فدسوا إلى محمود فسار إلى آمد، وسبقه اياس إليها ليدافعه فلم يطق، وملك محمود آمد واستولى على البلد كلها وحبس اياسا إلى أن أطلقه بشفاعة صاحب بلاد الروم ولحق به وانتظم في أمرائه، واستقل محمود بملك كيفا وآمد وأعمالهما ولقب ناصر الدين وكان ظالماً قبيح السيرة، وكان ينتحل العلوم الفلسفية وتوفي سنة تسعة عشر وستمائة وولي مكانه المسعود، وحدثت بينه وبين الأفضل بن عادل فتنة. واستنجد عليه أخاه الكامل فسار في العساكر من مصر، ومعه داود صاحب الكرك، والمظفر صاحب حماة فحاصروه بآمد إلى أن نزل عنها وجاء إلى الكامل فاعتقله فلم يزل عنده حبيساً إلى أن مات الكامل فذهب إلى التتر فمات عندهم. وأما عماد الدين بن قرا ارسلان الذي ملك خرت برت من يد قطب الدين سقمان ابن أخيه نور الدين فلم تزل في يده إلى أن

توفي سنة إحدى وستمائة لعشرين سنة من ملكه إياها. وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، وكانت بينه وبين ناصر الدين محمود ابن عمه نور الدين صاحب آمد وكيفا عداوة. ودخل محمود في طاعة العادى بن أيوب وحضر مع ابنه الأشرف في حصار الموصل على أن يسير معه بعدها إلى خرت برت فيملكها له، وكان نظام الدين مستنجدا به<*>

الدين قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فمات وسار الأشرف مع محمود بعساكره وحاصروا خرت برت في شعبان سنة إحدى وستين وملكوا ربضها. وبعث غياث الدين صاحب الروم إلى نظام الدين المدد بالعساكر مع الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط، فلما انتهوا إلى ملطية أفرج الأشرف ومحمود عن خرت برت إلى بعض حصون نظام الدين بالصحراء ببحيرة سهنين، وفتحت في ذي الحجة سنة إحدى وستين فلما وصل الأفضل بعساكر غياث الدين ووصل الأشرف عن البحيرة راجعاً. جاء نظام الدين بالعساكر إلى الحصن فامتنع عليه، وبقي لصاحب آمد. ثم ملك كيغباد صاحب الروم حصن خرت برت من أيديهم سنة إحدى وثلاثين، وانقرض منها ملك بني سقمان، والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

خريطة

دولة بني زنكي بن أقسنقر

الخبر عن دولة بني زنكي بن أقسنقر من موالي السلجوقية بالجزيرة والشام ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر اقسنقر مولى السلطان ملك شاه، وأنه كان يلقب قسيم الدولة. وان السلطان ملك شاه لما بعث الوزير فخر الدولة ابن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة بفتح ديار بكر من يد بن مروان، واستنجد ابن مروان صاحب الموصل شرف الدولة مسلم بن عقيل، وهزمته العساكر، وانحصر بآمد فبعث السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ليخالف شرف الدولة إلى السلطان فلقيه في الرحبة وأهدى له فرضي عنه ورده إلى بلده الموصل. واستولى بنو جهير بعد ذلك على ديار بكركما مر في موضعه من دولة بني مروان. ثم كان بعد ذلك شأن حلب، واستبد بها أهلها بعد انقراض دولة بني صالح بن مرداس الكلابي، وطمع فيها شرف الدولة مسلم بن قريش، وسليمان بن قطلمش صاحب بلاد الروم، وتُتش ابن السلطان ألب ارسلان.

وقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش. ثم قتل تتش سليمان بن قطلمش وجاء إلى حلب فملكها، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها. وقد كانوا بعثوا إلى السلطان ملك شاه واستدعوه لملكها فوصل إليهم سنة تسع وسبعين: ورحل تتش عن القلعة، ودخل البرية. واستولى السلطان على حلب، وولى عليها قسيم الدولة اقسنقر، وعاد إلى العراق فعمرها أقسنقر وأحسن السيرة فيها، وسار معه تتش حين عهد له أخوه السلطان ملك شاه بفتح بلاد العلوية بمصر والشام ففتح الكثير منها وهو معه كما مر. وزحف قبل ذلك سنة ثمانين إلى بني منقذ بشيزر، فحاصره وضيق عليه. ثم رجع عنه عن صلح، وأقام بحلب ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك السلطان سنة خمس وثمانين.

واختلف ولده من بعده، وكان أخوه تتش قد استولى على الشام منذ سنة إحدى وسبعين. فلما هلك أخوه طمع في ملك السلجوقية من بعده فجمع العساكر، وسار لاقتضاء الطاعة من الأمراء معه بالشام، وقصد حلب فأطاعه قسيم الدولة أقسنقر، وحمل باغيسيان صاحب أنْطاكِية وتيران صاحب الرها وحران على طاعته حتى يظهر مآل الأمر في ولد سيدهم ملك شاه. وساروا مع تتش إلى الرحبة فملكها وخطب لنفسه فيها، ثم إلى نصيبين ففتحها عنوة، ثم إلى الموصل فهزم صاحبها إبراهيم بن قريش بن بدران، وتولى كبر هزيمته أقسنقر، وقتل قريش بن إبراهيم وملك الموصل من يده وولى تتش عليها ابن عمته علي بن مسلم بن قريش. وسار إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان. وكان بركيارق بن ملك شاه قد

استولى على الري وهمذان وكثير من البلاد فسار لمدافعته، وجنح قسيم الدولة أقسنقر وبوزان صاحب الرها إلى بركيارق ابن سيدهم فلحقوا به وتركوا تتش فانقلب عائداً إلى الشام ساخطاً على اقسنقر وبوزان ما فعلاه، فجمع العساكر وسار إلى حلب سنة سبع وثمانين لقتال قسيم الدولة. وأمده بركيارق بالأمير كربوقا في العساكر فبرزوا إلى لقائهم، والتقوا على ست فراسخ من حلب. ونزع بعض عساكر أقسنقر إلى تش فاختل مصافه، وتمت الهزيمة عليه وجيء به أسيراً إلى تتش فقتله صبراً.

ولحق كربوقا وبوزان بحلب، وتبعهما فحاصرهما وملكها وأخذهما أسيرين كما مر في أخبار الدولة. وكان قسيم الدولة حسن السياسة كثير العدل، وكانت بلاده آمنة. ولما مات نشأ ولده في ظل الدولة السلجوقية. وكان أكبرهم زنكي فنشأ مرموقا بعين التجلة. ولما ولي كربوقا الموصل من قبل بركيارق أيام الفتنة بين بركيارق وأخيه محمد، كان زنكي في جملته، لأنه كان صاحب أبيه. وسار كربوقا أيام ولايته لحصار آمد وصاحبها يومئذ بعض أمراء التركمان. وأنجده سقمان بن أرتق. وكان زنكي بن أقسنقر يومئذ صبيا، وهو في جملة رجال كربوقا ومعه جماعة من أصحاب أبيه فجلا في تلك الحرب. وانهزم سقمان وظهر كربوقا. وفي هذه الحرب أسر بن ياقوتي ابن ارتق وسجنه كربوقا بقلعة ماردين فكان ذلك سبباً لملك بني أرتق فيها كما مر في أخبار دولتهم. ثم تتابعت الولاة على الموصل فوليها جكرمس بعد كربوقا، وبعده جاولي سكاوو، وبعده مودود بن ايتكين، وبعده اقسنقر البرسقي كما تقدم في أخبار السلجوقية. وولاه السلطان محمد بن ملك شاه سنة ثمان وخمسين، وبعث معه ابنه مسعودا. كتب إلى سائر الأمراء هناك بطاعته، ومنهم يومئذ عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاختص به.

ولما ملك السلطان محمود بعد أبيه محمد سنة احدى عشرة، كان اخوه مسعود بالموصل، كما تقدم أتابكه حيوس بك ونقل البرسقي من الموصل إلى شحنة بغداد. وانتقض دبيس بن صدقة صاحب الحلة على المسترشد والسلطان محمود، وجمع البرسقي العساكر وقصد الحلة فكاتب دبيس السلطان مسعود وأتابكه حيوس بك بالموصل، وأغراهما بالمسير إلى بغداد فسار لذلك مع السلطان مسعود وزيره فخر الملك وأبو علي بن عمار

صاحب طرابلس، وزنكي بن قسيم الدولة اقسنقر وجماعة من أمراء الجزيرة. ووصلوا إلى بغداد وصالحهم البرسقي وسار معهم.

ودخل مسعود إلى بغداد، وجاء منكبرس إلى بغداد ونزع إليه دبيس بن صدقة. ووقعت الحرب بينهما على بغداد كما تقدم في أخبار الدولة. وأقام منكبرس ببغداد. ثم كان له في خدمة السلطان محمود عند حربه مع أخيه مسعود مقامات جليلة. وغلب السلطان أخاه مسعودا، وأخذه عنده، واستنزل أتابكه حيوس بك من الموصل، وأعاد إليها البرسقي سنة خمسة عشر

فعاد زنكي إلى الاختصاص به كما مر. ثم أضاف إليه السلطان محمود شحنة بغداد، وولاية واسط مضافة إلى ولاية الموصل سنة ستة عشر فولى عليها عماد الدين زنكي فحسن أثره في ولايتهما.

ولما كانت الحرب بين دبيس بن صدقة وبين الخليفة المسترشد، وبرز المسترشد لقتاله من بغداد، وحضر البرسقي من الموصل وعماد زنكي فانهزم دبيس عماد الدين في ذلك المقام . ثم ذهب دبيس إلى البصرة، وجمع المنتفق من بني عقيل فدخلوا البصرة ونهبوها وقتلوا أميرها. وبعث المسترشد إلى البرسقي فعذله في إهماله أمر دبيس، حتى فعل في البصرة ما فعل فبادر إلى قصره، وهرب دبيس واستولى على البصرة وولى عليها عماد الدين زنكي بن اقسنقر فأحسن حمايتها والدفاع عنها. وكبس العرب في حللهم

بضواحيها، وأجفلوا. ثم عزل البرسقي سنة ثمان عشرة عن شحنة بغداد، وعاد إلى الموصل فاستدعى عماد الدين زنكي من البصرة فضجر من ذلك، وقال كل يوم للموصل جديد يستنجدنا . وسار إلى السلطان ليكون في جملته فلما قدم عليه بأصفهان أقطعه البصرة وأعاده عليها من قبله.

ثم ملك البرسقي مدينة حلب سنة ثمان عشرة وقتل بها سنة تسع عشرة. وكان ابنه

عز الدين مسعود بحلب فبادر إلى الموصل، وأقام ملك أبيه بها ووقع الخلاف بين المسترشد والسلطان محمود، وبعث الخليفة عفيفا الخادم إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان محمود فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة، وقاتله فهزمه ونمى عفيف إلى المسترشد وأقام عماد الدين في واسط وأمره أن يحضر بالعساكر في السفن، وفي البر فجمع السفن من البصرة وشحنها بالمقاتلة شاكي السلاح، وأصعد في البر وقدم على السلطان، وقد تسلحت العساكر فهاله منظرهم، ووهن المسترشد لما رأى فأجابه إلى الصلح.

ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق:

ولما ظهر من عماد الدين زنكي من الكفاءة والغناء في ولاية البصرة وواسط ما

ظهر، ثم كان له المقام المحمود مع السلطان محمود على بغداد كما مر ولاه شحنة بغداد والعراق، لما رأى أنه يستقيم إليه في أمور الخليفة، بعد أن شاور أصحابه فأشاروا به وذلك سنة إحدى وعشرين وسار عن بغداد بعد أن ولأه على كرسي ملكه بأصفهان والله تعالى أعلم.

ولاية عماد الدين زنكي علي الموصل وأعمالها:

قد قدمنا ان عز الدين مسعود بن البرسقي لما قتل الباطنية أباه بالموصل، وكان نائبه بحلب فبادر إلى الموصل وضبط أمورها، وخاطب السلطان محمودا فولاه مكان أبيه وكان شجاعاً قرماً فطمع في ملك الشام فسار وبدأ بالرحبة فحاصرها، حتى استأمن إليه أهل القلعة. وطرقه مرض فمات، وتفرقت عساكره ونهب بعضهم بعضاً، حتى شغلوا عن دفنه. وكان جاولي مولى أبيه مقدم العساكر عنده فنصب مكانه أخاه الأصغر، وكاتب

السلطان في تقرير ولايته. وأرسل في ذلك الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني، والقاضي أبا الحسن علي ابن القاسم الشهرزوري فأوصى صلاح الدين صهره جقري فيما جاء فيه. وكان شيعة لعماد الدين زنكي فخوف الحاجب وحذره مغبة حاله معه. وأشار عليه وعلى القاضي بطلب عماد الدين زنكي، وضمن لهما عنده الولايات والإقطاع. وركب القاضي مع الحاجب إلى الوزير شرف الدين أنو شروان ابن خالد. وذكر له حال الجزيرة والشام واستيلاء الإفرنج على أكثرها من ماردين إلى العريش. وأنها تحتاج إلى من يكف طغيانهم، وابن البرسقي المنصوب بالموصل صغير لا يقوى على مدافعتهم، وحماية البلاد منهم. ونحن قد خرجنا عن العهدة وأنهينا الأمر إليكم فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فشكرهما، واستدعاهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة، وأدرجا فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه مالا جزيلا لخزانة السلطان فأجابهما إليه لما يعلم من

كفايته وولاه البلاد كلها وكتب منشوره بها وشافهه بالولاية. وسار إلى ولايته فبدأ بالفوارع وملكها. ثم سار إلى الموصل، وخرج جاولي والعساكر للقائه.

ودخل الموصل في رمضان سنة إحدى وعشرين وبعث جاولي واليا على الرحبة، وولى على القلعة نصير الدين جقري. وولى على حجابته صلاح الدين الباغيسياني. وعلى القضاء ببلاده جميعا بهاء الدين الشهرزوري. وزاد في إقطاعه. وكان لا يصدر إلا عن رأيه. ثم خرج إلى جزيرة ابن عمر وبها موالي البرسقي

فامتنعوا عليه وحاصرهم. وكان بينه وبين البلد دجلة فعبرها. وبين دجلة والبلد فسيح من الأرض فعبر دجلة. وقاتلهم في ذلك الفسيح. وهزمهم فتحصنوا بالأسوار.

ثم استأمنوا فدخل البلد وملكه وسار لنصيبين. وكانت لحسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين فاستنجد عليه ابن عمه ركن الدولة داود بمن سقمان صاحب كيفا فوعده بالنجدة وبعث حسام الدين بذلك إلى أهل نصيبين، يأمرهم بالمصابرة عشرين يوما إلى حين وصوله فسقط في أيديهم لعجزهم عن ذلك. واستأمنوا لعماد الدين فأمنهم وملكها وسار عنها لسنجار فامتنعوا عليه أولا. ثم استأمنوا وملكها. وبعث منها إلى الخابور فملك جميعه. ثم سار إلى حران. وكانت الرها وسروج والبيرة في جوارها للافرنج وكانوا معهم في ضيقة فبادر أهل حران إلى طاعته. وأرسل إلى جوسكين وهادنه حتى يتفرغ له فاستقر بينهما الصلح. والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي علي مدينة حلب:

كان البرسقي قد ملك حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة. واستخلف عليها ابنه مسعودا. ثم قتل الباطنية البرسقي بالموصل فبادر ابنه مسعود إلى الموصل. واستحلف على حلب الأمير قرمان. ثم عزله وبعث بولايتها إلى الأمير قطلغ أبه فمنعه قرمان وقال: بيني وبينه علامة لم أرها في التوقيع فرجع إلى مسعود فوجده قد أ،، الرحبة فعاد إلى حلب مسرعا ومال إليه أهل البلد ورئيسها مضال بن ربيع، وأدخلوه وملكوه واستنزلوا قرمان من القلعة وأعطوه ألف دينار وبلغوه مأمنه.

وملك قطلغ القلعة والبلد منتصف إحدى وعشرين. ثم ساءت سيرته وفحش ظلمه، واشتمل عليه أشرار فاستوحش الناس منه، وثاروا به في عيد الفطر من السنة وقبضوا على أصحابه. وولوا عليهم بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان ملكها من قبل، وحاصروا قطلغ بالقلعة. ووصل حسان صاحب منبج، وحسن صاحب مراغة لإصلاح الأمر فلم يتم. وزحف جوسكين صاحب الرها من الإفرنج إلى حلب فصانعوه بالمال، ورجع فزحف صاحب أنْطاكِية وحاصر البلد، وهم يحاصرون القلعة إلى منتصف ذي القعدة من آخر السنة.

وانتهى عماد الدين زنكي إلى صاحب حران كما ذكرناه فبعث إلى أهل حلب أميرين من أصحابه بتوقيع السلطان له بالموصل والجزيرة والشام فبادروا إلى الطاعة. وسار إليه بدر الدولة ابن عبد الجبار وقطلغ أبه. وأقام أحد الأميرين بحلب. ولما وصلا إلى عماد الدين أصلح بينهما

وأقاما عنده. وبعث الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني في عسكر إليهما فملك القلعة ورتب الأمور وولى. ثم وصل عماد الدين بعده في محرم سنة إثنتين وعشرين، وملك في طريقه منبج من يد حسان ومراغة من يد حسن. وتلقاه أهل حلب فاستولى وأقطع أعمالها للأمراء والأجناد ثم قبض على قطلغ أبه وأسلمه إلى ابن بديع فكحله ومات واستوحش ابن بديع فلحق بقلعة جعفر مستنجدا بصاحبها، وأقام عماد الدين مكانه في رياسة حلب علي بن عبد الرزاق، وعاد إلى الموصل والله أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي علي مدينة حماة:

ثم سار عماد الدين زنكي لجهاد الإفرنج وعبر الفرات إلى الشام. واستنجد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق فأنجده بعد التوثق باستحلافه. وبعث عسكره من دمشق إلى ابنه سونج وأمره بالمسير إلى زنكي فلما وصلوا إليه أكرمهم. ثم غدر بهم بعد أيام، وقبض على سونج والأمراء الذين معه فاعتقلهم بحلب ونهب خيامهم، وبادر إلى حماة وهي خلو من الحامية فملكها، وسار عنها إلى حمص، وصاحبها قيرجان بن قراجا معه في عس!اكره وهو الذي أشار بحبس سونج وأصحابه فقبض عليه يظن أن أهل حمص يسلمون بلادهم إليه فامتنعوا وبعث إليهم قيرجان بذلك فلحق إليها فحاصرها مدة، وامتنعت عليه، فعاد إلى الموصل ومعه سونج بن بوري والله أعلم.

فتح عماد الدين حصن الأتارب وهزيمة الإفرنج:

ولما عاد عماد الدين إلى الموصل أراح عساكره أياما ثم تجهز سنة أربع وعشرين إلى الغزو وعاد إلى الشام وقصد حلب، واعتزم على قصد حصن الأتارب، وهو على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان الإفرنج الذين به قد ضيقوا على حلب فسار إليه وحاصره وجاء الإفرنج من أنْطاكِية لدفاعه. واستفرغوا فتبعهم وترك الحصن وسار إليهم، واستمات المسلمون فانهزم الإفرنج وأسر كثير من زعمائهم، وقتل كثير حتى بقيت عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة. ثم عاد إلى حصن الأتارب فملكه عنوة وخربه، وتقسم جميع من فيه بين القتل والأسر وسار إلى

قلعة حارم قرب أنْطاكِية، وهي للافرنج فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فرجع عنها. وملىء الإفرنج رعبا منه ومن استبداد المسلمين به وذهب ما كان عندهم من الطمع.

واقعة عماد الدين مع بني أرتق:

ولما فرغ عماد الدين من غزو الافرنج وفتح الاثارب وقلعة حارم عاد إلى الجزيرة، وحاصر مدينة سرخس، وهي لصاحب ماردين، بينها وبين نصيبين فاجتمع حسام الدين صاحب ماردين وركن الدولة صاحب آمد، وهما لأبي الغازي صاحب ماردين بن حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي وصاحب كيفا ركن الدولة داود بن سقمان وتمرتاش بن ارتق. وجمعوا من التركمان نحوا من عشرين ألفا. وساروا لمدافعة زنكي فهزمهم وملك سرخس وسار ركن الدولة إلى جزيرة ابن عمر لينهبها فاتبعه عماد الدين فرجع إلى بلده فعاد عنه لضيق مسالكه. وملك من قلاعه همرد، ورجع إلى الموصل إلى آخره.

حصول دبيس بن صدقة في أسر الاتابك زنكي:

قد تقدم لنا أن دبيس بن صدقة لما فارق البصرة سار إلى سرخد من قلاع الشام سنة خمس وعشرين، باستدعاء الجارية التي خلفها الحسن هنالك ليتزوج بها، وأنه مرّ في الغوطة بحي من أحياء كلب فأسروه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق. وبلغ الخبر إلى الاتابك زنكي. وكان عدوا له فبعث فيه إلى تاج الملوك بوري. وفادى من ابنه سونج والأمراء الذين معه عنده فأطلقهم. وبعث بوري إليه بدبيس وهو مستيقن الهلاك فلما وصله أكرمه، وأحسن إليه وأزاح علله. وبعث المسترشد فيه إلى بوري بن طغركين صاحب دمشق فوجده قد فات بتسلمه إلى زنكي. فذم الرسل زنكي فيما فعله فأرصد لهم في طريقهم وسيقوا إليه وهم: سديد الدولة بن الانباري. وأبو بكر بن بشر الجزري فحبسهما حتى شفع فيهما المسترشد. وبقي دبيس عنده حتى انحدر معه إلى العراق.

مسير الاتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة السلطان مسعود وانهزامه:

ولما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين. واختلف ولده داود وأخوه مسعود. وسار داود إلى مسعود وحاصره بتبريز في محرم سنة ست وعشرين. ثم صالحه وخرج مسعود من تبريز، واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همذان، وبعث يطلب الخطبة من المسترشد فمنعه وكتب الاتابك عماد الدين زنكي يستنجده. وسار إلى بغداد فحاصرها وكان قد سبق إليها أخوه سلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان، مع أتابك قراجا الشامي في عسكر كثير. وأنزله المسترشد بدار السلطان، فلما جاء مسعود ونزل عباسة. وبرز عسكر المسترشد وعسكر سلجوق شاه وقراجا الشامي لمحاربة مسعود أتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكي من ورائهم. وأنه وصل إلى المعشوب، فرجع قراجا الشامي إلى محاربته، وسار سلجوق شاه بالعساكر إلى محاربة أخيه مسعود وأغذ قراجا السير. وصبح عماد الدين بعد يوم وليلة على المعشوب وقاتله وهزمه. وأسر كثيراً من أصحابه. وسار زنكي منهزماً إلى والنائب بها نجم الدين أيوب بن شادي والد السلطان صلاح الدين فتأخر. ثم اصطلح مع الخليفة على أن يكون العراق له، والسلطنة لمسعود. وولاية العهد لسلجوق شاه. وذلك منتصف سنة ست وعشرين.

مسير الاتابك عماد الدين إلى بغد اد بابنه وانهزامه:

قد قدمنا ما كان بعد وفاة السلطان محمود من الخلاف بين ابنه داود وأخويه مسعود وسلجوق شاه. ثم استقرار مسعود في السلطنة وصلحه مع أخيه سلجوق. على أن يكون ولي عهده. ثم إن السلطان سنجر سار من خراسان يطلب السلطنة لطغرل ابن أخيه السلطان محمود وكان عنده مقيما فبلغ همذان. وخرج السلطان مسعود وسلجوق شاه للقائه وساروا متباطئين ينتظرون لحاق المسترشد بهم وخرج المسترشد إلى فجاءته الأخبار بوصول الاتابك زنكي ودبيس بن صدقة إلى بغداد فذكر دبيس أن السلطان سنجر

أقطعه الحلة وبعث يسترضي، فلم يشفعه، وذكر الاتابك زنكي أن السلطان سنجر ولاه شحنة بغداد. واستمر السلطان مسعود وأخوه سلجوق على المسير للقاء سنجر وكانت الهزيمة على مسعود كما مرّ فعاد المسترشد إلى بغداد. ونزل العباسة من الجانب الغربي ولقي الاتابك زنكي ودبيس على حصن البرامكة فهزمهما آخر رجب سنة ست وعشرين ولحق الاتابك بالموصل.

واقعة الافرنج على أهل حلب:

وفي غيبة الاتابك زنكي سار ملك الافرنج من القدس إلى حلب فخرج نائبها عن الاتابك زنكي، وهو الأمير اسوار. وجمع التركمان مع عساكره. وقاتل الافرنج عند قنسرين وصابرهم ومحص الله المسلمين وانهزموا إلى حلب وسار ملك الافرنج في أعمال حلب ظافراً ثم سار بعض الافرنج من الرها للغارة في أعمال حلب فخرج إليهم الأمير اسوار، ومعه حسان التغلبي الذي كان صاحب منبج فأوقعوا بهم، واستلحموهم وأسروا من بقي منهم وعادوا ظافرين.

حصار المسترشد الموصل:

ولما وقع ما قدمناه من وصول زنكي. إلى بغداد، وانهزامه أمام المسترشد حقد عليه المسترشد ذلك وأقام يتربص. ثم كثر الخلاف بين سلاطين السلجوقية، واعتزلهم جماعة من أمرائهم فرارا من الفتنة ولحقوا بالخليفة وأقاموا في ظله فأراد الخليفة المسترشد أن ينتصف بهم من الاتابك زنكي، فقدم إليه بهاء الدين أبا الفتوح الاسقرابن الواعظ وحمله عتابا أغلظ فيه، وزاده الواعظ غلظة حفظا على ناموس الخلافة في معتقده، فامتعض الاتابك لما شافهه به وأهانه وحبسه. وأرسل المسترشد إلى السلطان مسعود على قصد الموصل وحاصرها لما وقع من زنكي. ثم سار في شعبان سنة سبع وعشرين إلى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل. فلما قارب الموصل فارقها الاتابك زنكي إلى سنجار، وترك نائبه بها نصر الدين جقري، وجاء المسترشد فحاصرها والأتابك زنكي قد قطع الميرة عن معسكره فتعذرت الأقوات، وضاقت عليهم الأحوال، وأرادت جماعة من

أهل البلد الوثوب بها. وسعى بهم فأخذوا وصلبوا ودام الحصار ثلاثة أشهر، وامتنعت عليه فأفرج عنها وعاد إلى بغداد. وقيل انّ مطر الخادم جاءه من بغداد وأخبره أن السلطان مسعودا عازم على قصد العراق، فعاد مسرعاً.

ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة:

قد كنا قدمنا أن الاتابك زنكي تغلب على حماة من يد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق سنة ثلاث وعشرين، وأقامت في ملكه أربع سنين. وتوفي تاج الملوك بوري في رجب سنة ست وعشرين، وولي بعده ابنه شمس الملوك إسمعيل، وملك بانياس من الافرنج في صفر سنة سبع وعشرين، ثم بلغه أن المسترشد بالله حاصر الموصل فسار هو إلى حماة وحاصرها، وقاتلها يوم الفطر ويومين بعده فملكها عنوة واستأمنوا فأمنهم. ثم حصر الوالي ومن معه بالقلعة فاستأمنوا أيضاً، واستولى على ما فيها من الذخائر والسلاح، وسار منها إلى قلعة شيزر فحاصرها ابن منقذ فحمل إليه مالاً صانعه به، وعاد إلى دمشق في ذي الحجة من السنة.

حصار الاتابك زنكي قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النسور ثم حصار قلاع الحميدية:

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع الاتابك زنكي صاحب الموصل وصاحب ماردين على حصار آمد. واستنجد صاحبها بداود بن سقمان صاحب كيفا فجمع العساكر وسار إليهما ليدافعهما عنه، وقاتلاه فهزماه، وقتل كثير من عسكره. وأطالا حصار آمد وقطعا شجرها وكرومها، وامتنعت عليهما فرحلا عنها. وسار زنكي إلى قلعة النسور من ديار بكر فحاصرها وملكها منتصف رجب من السنة. ووفد عليه ضياء الدين أبو سعيد ابن الكفرتوثي فاستوزره الاتابك، وكان حسن الطريقة عظيم الرئاسة والكفاية محببا في الجند، وتوفي سنة ست وثلاثين بعدها. ثم استولى الاتابك على سائر قلاع الأكراد الحميدية، مثل قلعة العقر، وقلعة سوس وغيرهما. وكان لما ملك الموصل أمر صاحب هذه القلاع الأمير عيسى الحميري على ولايتها. فلما حاصر المسترشد الموصل قام في خدمته أحسن القيام، وجمع له الأكراد. فلما عاد المسترشد إلى بغداد من قتال الاتابك زنكي حاصر قلاعهم وحاصرتها العساكر وقاتلوها قتالاً شديداً حتى ملكوها في هذه السنة، ورفع الله شرهم عن أهل السواد المحاربين لهم، فقد كانوا منهم في ضيقة من كثرة عيثهم في البلاد وتخريبهم ، والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك على قلاع الهكارية وقلعة كواشي:

حدّث ابن الأثير عن الجنيبي أن الاتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم

عنها، خاف أبو الهيجاء بن عبد الله على قلعة أشب والجزيرة وكواشي فاستأمن الاتابك واستحلفه، وحمل له مالا. ثم وفد عليه بالموصل بعد أن أخرج ابنه أحمد من أشب خشية أن يغلب عليها، وأعطاه قلعة كواشي وولى على أشب رجلا من الكرد، واسمه باد الأرمني. وإبنه أحمد هذا هو أبو علي بن أحمد المشطوب من أمراء السلطان صلاح الدين. ولما مات أبو الهيجاء واسمه موسى، وسار أحمد إلى أشب ليملكها فامتنع عليه باد وأراد حفظها لعلي الصغير من بني أبي الهيجاء فسار الاتابك زنكي في عساكره، ونزل على أشب، وبرز أهلها لقتاله. واستجرهم حتى أبعدوا، ثم كرّ عليهم فأفناهم قتلا وأسرا، وملك القلعة في الحال. وسيق إليه باد في جماعة من مقدمي الأكراد، وقتلهم، وعاد إلى الموصل. ثم سار غازياً في بعض مذاهبه فبعث نائبه نصر الدين جقري عسكرا، وخلى كنجا ورسى في قلعة العمادية، وحاصروا قلعة الشغبان وفرح وكواشي والزعفراني والغيّ وسرف وسفروه، وهي حصون الهكارية فحاربها وملكها جميعا. واستقام أمر الجبل والزوزن. وأمنت الرعية من الأكراد. وأما باقي قلاع الهكارية وهي حلا وصورا وهزور والملايسي ويامرما ومانرجا وباكرا ونسرفان قراجا صاحب العمادية فتحها بعد قتل زنكي بمدة طويلة. كان أميراً على تلك الحصون الهكارية من قبل زين الدين علي، على ما قال ابن الأثير. ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته هنا. قال وحدّثني بخلاف هذا الحديث بعض فضلاء الأكراد. أن أبا بكر زنكي، لما فتح قلعة أسب وحرساني وقلعة العمادية، ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جبل صورا وصاحب هزور، ولم يكن لهما شوكة يخشى منهما. ثم عاد إلى الموصل وخافه أهل القلاع الجبلية. ثم توفي عبد الله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الريبة والغي، وفرح وملكها بعده ابنه علي وكانت أمه خديجة ابنة الحسن أخت إبراهيم وعيسى، وهما من الأمراء مع زنكي بالموصل فأرسلها ابنها علي إلى أخويها

المذكورين، وهما خالاه ليستأمنا له من الاتابك فاستحلفاه، وقدم عليه فأقره على قلاعه، واستقل بفتح قلاع الهكارية. وكان الشغبان هذا الأمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه، وخربه لكبره وقلة أعماله. وكان نصر الدين جقري يكره عليا صاحب الريبة والغي وفرح فسعى عند الاتابك في حبسه فأمره بحبسه ثم ندم وكتب إليه أن يطلقه فوجده قد مات فاتهم نصر الدين بقتله. ثم بعث العساكر إلى قلعة الرحبية فنازلوها بغتة وملكوها عنوة وأسروا ولد علي وإخوته، ونجت أمه خديجة لمغيبها.

وجاء البشير إلى الاتابك بفتح الريبة فسره ذلك. وبعث العساكر إلى ما بقي من قلاع علي فأبى إلا أن يزيدوه قلعة كواشي، فمضت خديجة أم علي إلى صاحب كواشي من المهرانية، واسمه جرك راهروا وسألته النزول عن كواشي لاطلاق اسراهم ففعل ذلك، وتسلم زنكي القلاع، وأطلق الأسرى، واستقامت له جبال الاكراد، والله تعالى أعلم.

حصار الاتابك زنكي مدينة دمشق:

كان شمس الملوك إسمعيل بن بوري قد انحلّ أمره وضعفت دولته، واستطال عليه الافرنج، وخشي عاقبه أمرهم فاستدعى الاتابك زنكي سراً ليملكه دمشق ويريح نفسه. وشعر بذلك أهل دولته فشكوا إلى أمه فوعدتهم الراحة منه، ثم اغتالته فقتلته. وجاء الاتابك زنكي فقدم رسله من الفرات فألفوا شمس الملوك قد مات، وولي. مكانه أخوه محمود، واشتمل أهل الدولة عليه ورجعوا الخبر إلى الاتابك فلم يحفل به. وسار حتى نزل بظاهر دمشق واشتد أهل الدولة على مدافعته ومقدمهم معين الدين أبربوه أتابك طغركين. ثم بعث المسترشد أبا بكر بن بشر الجزري إلى الاتابك زنكي فأمره بصلح صاحب دمشق فصالحه، ورحل عنه منتصف السنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره إلى الموصل وخلعه:

كان كثير من أمراء السلجوقية قد اجتمعوا على الانتقاض على السلطان مسعود والخروج عليه. ولحق داود ابن السلطان محمود من أذربيجان ببغداد في صفر سنة اثنين وثلاثين، فأنزل بدار السلطنة، وراسله أولئك الأمراء. وقدم عليه بعضهم مثل صاحب قزوين، وصاحب أصبهان، وصاحب الأهواز وصاحب الأبلة وصاحب الموصل الاتابك زنكي. وخرجت إليهم العساكر من بغداد، وولي داود شحنية بغداد وخرج موكب الخليفة مع الوزير جلال الدين الرضي، وكان الخليفة قد تغير عليه وعلى قاضي القضاة الزينبي، فسمع بهم الاتابك. ثم وقعت العزيمة من الراشد والسلطان داود والأتابك زنكي، وحلف كل منهم لصاحبه وبعث الراشد إلى الاتابك بمائتي

ألف دينار. ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض على الامير بك آبه، ونهب ماله فانحدر الاتابك زنكي لمدافعته فاصطلحا، وعاد زنكي إلى بغداد، ومر على جميع العساكر لقتال السلطان مسعود. وخرج على طريق خراسان، وبلغهم أن السلطان مسعودا سار إلى بغداد

فعاد إليها ثم عاد الملك داود، وجاء السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصرهم نيفا وخمسين يوما، وارتحل إلى النهروان. ثم قدم عليه طرنطاي صاحب واسط بالسفن فرجع إلى بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي. ثم اختلف العسكر ببغداد، ورجع الملك داود إلى ولايته بأذربيجان. وافترق الأمراء الذين معه، ولحق الراشد بالاتابك زنكي في نفر من أصحابه، وهو بالجانب الغربي. وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة سنة ثلاثين واستقر بها وسكن الناس. وجمع القضاة والفقهاء، وعرض عليهم يمين الراشد بخطه، بأنه متى جمع أو خرج لحرب السلطان فقد خلع نفسه فأفتوا بخلعه. ثم وقعت الشهادات من أهل الدولة وغيرهم إلى الراشد بموجبات العزل وكتبت، وأفتى الفقهاء عقبها باستحقاق العزل، وحكم به القاضي المعين حينئذ لغيبة قاضي القضاة بالموصل مع الراشد، ونصب للخلافة ابن المستظهر. وجاء رسول الاتابك زنكي إلى بغداد، وهو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري وبايع – بعد أن ثبت عنده الخلع، وانصرف إلى الاتابك باقطاع من خاص الخليفة، ولم يكن ذلك لأحد قبله. وعاد كمال الدين إلى الاتابك، وحمل كتب الخلع فحكم بها قاضي القضاة بالموصل. وانصرف الراشد عن الموصل إلى أذربيجان كما مرّ في أخبار الخلفاء والسلجوقية، والله تعالى ولي التوفيق.

غزاة عساكر حلب إلى الافرنج:

ثم اجتمعت عساكر حلب [3] مع الأمير اسوار نائب الاتابك زنكي بحلب في شعبان

سنة ثلاثين، وساروا غازين إلى بلاد الافرنج وقصدوا اللاذقية على غرة فنالوا منها، وانساحوا في بسائطها واكتسحوها، وامتلأت أيديهم من الغنائم، وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها وخرجوا على شيزر وملؤا الشام بالأتراك والظهر ووهن الافرنج لذلك. والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

حصار الاتابك زنكي مدينة حمص واستيلاؤه على بغدوين وهزيمة الافرنج واستيلاؤه على حمص:

ثم سار الاتابك في العساكر في شعبان سنة إحدى وثلاثين إلى مدينة حمص، وبها

يومئذ معين الدين بن القائم بدولة صاحب دمشق وحمص من أقطاعه، فقدم إليه صاحبه صلاح الدين الباغيسياني في تسليمها فاعتذر بأن ذلك ليس من الاصابة فحاصرها والرسل تردد بينهما، وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بغدوين من حصون الافرنج في شوال من السنة فجمع الافرنج، وأوعبوا وزحفوا إليه واشتد القتال بينهم. ثم هزم الله العدو ونجا المسلمين منهم، ودخل ملوكهم إلى حصن بغدوين فامتنعوا به، وشد الاتابك حصاره. وذهب القسوس والرهبان إلى بلاد النصرانية من الروم، والافرنج يستنجدونهم على المسلمين، ويخوفونهم استيلاء الاتابك على قلعة بغدوين، وما يخشى بعد ذلك من ارتجاعهم بيت المقدس. وجد الاتابك بعد ذلك في حصارها والتضييق عليها حتى جهدهم الحصار ومنع عنهم الأخبار. ثم استأمنوا على أن يحملوا إليه خمسين ألف دينار فأجابهم وملك القلعة. ثم سمعوا بمسير الروم والافرنج لانجادهم ، وكان الاتابك خلال الحصار قد فتح المعرة وكفرطاب في الولايات التي بين حلب وحماة ووهن الافرنج. ثم سار الاتابك زنكي في محرم سنة اثنين وثلاثين إلى بعلبك وملك حصن الممدل من أعمال صاحب دمشق. وبعث إليه نائب بانياس بالطاعة كذلك. ثم كانت حادثة ملك الروم ومنازلته حلب كما نذكره. فسار إلى سلمية ولما انجلت حادثة الروم رجع إلى حصار حمص وبعث إلى محمود صاحب دمشق في خطبة أمه مردخان بنت جاولي التي قتلت ابنها فتزوجها، وملك حمص وقلعتها. وحملت الخاتون إليه في رمضان، وظن أنه يملك دمشق بزواجها فلم يحصل على شيء من ذلك. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

مسير الروم إلى الشام وملكهم مراغة:

ولما استنجد الافرنج ببغدوين ملك أمم النصرانية كما مرّ، جمع ملك الروم بالقسطنطينية، وركب البحر سنة إحدى وثلاثين ولحقته أساطيله وسار إلى مدينة قيقية فحاصرها، وصالحوه

بالمال وسار عنها إلى أدنة والمصيصة، وهما لابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحاصرهما وملكهما. وسار إلى عين زربة فملكها عنوة، وملك تل حمدون، ونقل أهله إلى جزيرة قبرص. ثم ملك مدينة أنْطاكِية في ذي القعدة من السنة، وبها رغيد من ملوك الافرنج فصالحه، ورجع إلى بفراس ودخل منها بلاد ابن ليون فصالحه بالأموال ودخل في طاعته. ثم خرج إلى الشام أول سنة اثنتين وثلاثين، وحاصر مراغة على ستة فراسخ من حلب، وبعثوا بالصريخ إلى الاتابك زنكي فبعث بالعساكر إلى حلب لحمايتها، وقاتل ملك الروم مراغة فملكها بالأمان منتصف السنة. ثم غدر بهم واستباحهم، ورحل إلى حلب فنزل بدابق ومعه الافرنج ورجعوا من الغد إلى حلب وحاصروها ثلاثاً فامتنعت عليهم وقتل عليها بطريق كبير منهم. ورحل عنها إلى قلعة الاتاود في شعبان من السنة فهرب عنها أهلها، ووضع الروم بها الأسرى والسبي ، وأنزلوا بها حامية. وبعث إليهم أسوار نائب حلب عسكراً فقتلوا الحامية، وخلصوا الأسرى والسبي ورحل الاتابك من حصن الأثارب بعد فتحه إلى سلمية وقطع الفرات إلى الرقة. واتبع الروم فقطع عنهم الميرة وقصد الروم قلعة شيزر، وبها سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني فحاصروها، ونصبوا المجانيق عليها. واستصرخ صاحبها بالأتابك زنكي فسار إليه، ونزل نهر العاصي بين شيزر وحماة. وبعث السرايا تختطف من حول معسكر الروم. وبعث إلى الروم يدعوهم إلى المناجزة والنزول إلى البسيط فخافوا عن ذلك، فرجع إلى التضريب بين الروم والافرنج يحذر أحد الفريقين من الآخر، حتى استراب كل بصاحبه فرحل ملك الروم في رمضان من السنة بعد حصار شيزر أربعين يوماً وأتبعه الاتابك فلحقهم واستلحمهم واستباحهم. ثم أرسل القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده على العدو ويحذره الروم واستيلاءهم على حلب، وينحدرون من الفرات إلى بغداد فوضع القاضي كمال الدين في جامع القصر من ينادي بصريخ المسلمين والخطيب على المنبر، وكذا في جامع السلطان فعظم الصراخ والبكاء، وتسايلت العوام من كل جانب، وجاؤا إلى دار السلطان في تلك الحالة، وقد وقع العويل والصراخ فعظم الهول على السلطان مسعود وجهز عسكراً

عظيماً. وخاف القاضي كمال الدين غائلته ثم وصل الخبر برحيل ملك الروم فأخبر القاضي السلطان مسعود بذلك ومن مسير

العسكر والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي على بعلبك:

ثم قتل محمود صاحب دمشق سنة ثلاث وثلاثين في شوال كما مرّ في أخبار دولتهم، وكانت أمه زمردخان متزوجة بالاتابك كما مرّ فبعثت إليه وهو بالجزيرة تعرفه بالخبر، وتطلب منه أن يسير إلى دمشق ويثأر بولدها من أهل دولته فسار لذلك. واستعد أهل دمشق للحصار ثم قصد الاتابك مدينة بعلبك ونزلها. وكان ابن القائم بالدولة قد نصب كمال الدين محمد بن بوري بدمشق وتزوج أمه، وبعث بجاريته إلى بعلبك. فلما سار الاتابك إلى دمشق قدم رسله إلى أنز في تسليم البلد على أن يبذل له ما يريد فأبى من ذلك وسار الاتابك إلى بعلبك فنازلها آخر ذي الحجة من السنة، ونصب عليها المجانيق. وشدد حصارها حتى استأمنوا فملكها. واعتصم الحامية بالقلعة حتى يئسوا من أنز فاستأمنوا إلى الاتابك. فلما ملكها قبض عليهم وصلبهم وتزوج جارية أنز ونقلها إلى حلب، إلى أن بعثها ابنه نور الدين محمود إلى صاحبها بعد موت الاتابك والله تعالى أعلم.

حصار الاتابك زنكي مدينة دمشق:

ثم سار الاتابك زنكي إلى حصار دمشق في ربيع الأول من سنة أربع وثلاثين بعد الفراغ من بعلبك فنزل بالبقاع، وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها في أن يسلمها إليه، ويعوضه عنها بما شاء فلم يجب إلى ذلك فزحف إليه، ونزل داريا، والتقت الطلائع فكان الظفر لأصحاب الاتابك. ثم تقدم إلى المصلى فنزل بها، وقاتله أهل دمشق بالغوطة فظفر بهم وأثخن فيهم. ثم أمسك عن القتال عشرا يراود فيها صاحب دمشق. وبذل له بعلبك وحمص وما يختاره من البلاد فجنح إلى ذلك ولم يوافقه أصحابه فعادت الحرب. ثم توفي صاحب دمشق جمال الدين محمد في شعبان من السنة، ونصب معين الدين أنز مكانه ابنه محيي الدين أنز وقام بأمره. وطمع زنكي في ملك البلد فامتنعت عليه. وبعث معز الدين أنز إلى الافرنج يستدعيهم إلى النصر على الاتابك، ويبذل لهم ويخوفهم غائلته، ويشترط لهم إعانتهم على بانياس حتى يملكوها فأجاب الافرنج لذلك، وأجفل زنكي إلى حوران

خامس رمضان من السنة معتزما على لقائهم فلم يصلوا فعاد إلى حصار دمشق، وأحرق قراها وارتحل إلى بلاده. ثم وصل الافرنج، وارتحل معين الدين أنز في عساكر دمشق إلى بانياس، وهي للاتابك زنكي ليوفي

للافرنج بشرطه لهم فيها. وقد كان نائبها سار للاغارة على مدينة صور، ولقيه في طريقه صاحب أنْطاكِية ذاهبا إلى دمشق منجداً فهزم عسكر بانياس، وقتلوا ولحق فلهم بالبلد، وقد وهنوا، وحاصرهم معين الدين أنز والافرنج وملكها عنوة، وسلمها للافرنج، وأحفظه ذلك. وفرق العسكر في حوران وأعمال دمشق، وسار هو فصابح دمشق ولم يعلموا بمكانه فبرزوا إليه وقاتلوه، وقتل منهم جماعة. ثم احجم عنهم لقلة من معه، وارتحل إلى مرج راهط في انتظار عس!اكره فلما توافوا عنده عاد إلى بلاده.

استيلاء الاتابك على شهرزور وأعمالها:

كان شهرزور بيد قفجاق بن ارسلان شاه أمير التركمان وصالحهم، وكانت الملوك تتجافى عن أعماله لامتناعها ومضايقها فعظم شأنه، واشتمل عليه التركمان وسار إليه الاتابك زنكي سنة أربع وثلاثين فجمع ولقيه فظفر به الاتابك واستباح معسكره، وسار في اتباعه فحاصر قلاعه وحصونه وملك جميعها. واستأمن إليه قفجاق فأمنه وسار في خدمته وخدمة بنيه بعده إلى آخر المائة. ثم كان في سنة خمس وثلاثين بين الاتابك زنكي وبين داود بن سقمان صاحب كيفا فتنة وحروب. وانهزم داود وملك الاتابك من بلاده قلعة همرد وادركه فعاد إلى الموصل ثم سار الاتابك إلى مدينة الحرمية فملكها سنة ست وثلاثين ونقل آل مهارش الذين كانوا بها إلى الموصل، ورتب أصحابه مكانهم. ثم خطب له صاحب آمد، وصار في طاعته بعد أن كان مع داود عليه. ثم بعث الاتابك لسنة سبع وثلاثين عسكراً إلى قلعة أشهب، وهي من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها. وفيها أهلوهم وذخائرهم فحاصرها وملكها، وأمره الاتابك بتخريبها وبنى قلعة العمادية عوضاً عنها، وكانت خربت قبل ذلك لاتساعها وعجزهم عن حمايتها فأعيدت الآن. وكان نصير الدين نائب الموصل قد فتح أكثر القلاع الحربية والله تعالى أعلم.

صلح الاتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر ديار بكر:

كان السلطان مسعود ملك السلجوقية قد حقد على الاتابك زنكي شأن الخارجين على طاعته من أهل الأطراف، وينسب ذلك إليه، وكان يفعل ذلك مشغلة للسلطان عنه. فلما فرغ

السلطان مسعود من شواغله سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، سار إلى بغداد عازما على قصد الاتابك وحصار الموصل فأرسل الاتابك يستعطفه ، على ان يدفع إليه مائة ألف دينار ويعود عنه فشرع في ذلك، وحمل منها عشرين ألفا. ثم حدثت الفتنة على السلطان فاحتاج إلى مداراته وترك له الباقي، وبالغ هو في مخالصة السلطان بحيث إن ابنه غازي كان عند السلطان فهرب إلى الموصل، فبعث إلى نائبها نصير الدين جقري يمنعه من دخولها وبعث إلى ابنه بالرجوع إلى خدمة السلطان. وكتب إلى السلطان بأن ابني هرب للخوف من تغير السلطان عليه وقد أعدته إلى الخدمة ولم ألفه، وانا مملوكك والبلاد لك فوقع ذلك من السلطان أحسن المواقع. ثم سار الاتابك إلى ديار بكر ففتح طره واسعرد وحران وحصن الرزق وحصن تطليت وحصن ياسنه وحصن ذي القرنين وغير هذه، وملك أيضاً من بلاد ماردين الافرنج حملين والمودن وتل موزر وغيرها من بلاد حصون سجستان وأنزل بها الحامية وقصد آمد فحاصرها، وسير عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها والله تعالى أعلم.

فتح الرها وغيرها من أعمال الافرنج:

كان الافرنج بالرها وسروج والبيرة قد أضروا بالمسلمين جوارهم، مثل آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وكان زعيمهم ومقدمهم بتلك البلاد جوسكين الزعيم ورأى الاتابك أنه يوري عن قصدهم بغيره لئلا يجمعوا له فوري بغزو ديار بكر كما قلناه وجوسكين وعبر الفرات من الرها إلى غزنة. وجاء الخبر بذلك إلى الاتابك فارتحل منتصف جمادى الاخيرة سنة تسع وثلاثين، وحرض المسلمين وحثهم على عدوهم، ووصل إلى الرها، وجوسكين غائب عنها فانحجز الافرنج بالبلد، وحاصرهم شهرا وشد في حصارهم وقتالهم، ولج في ذلك قبل اجتماع الافرنج ومسيرهم إليه. ثم ضعف سورها فسقطت ثلمة منه، وملك البلد عنوة. ثم حاصر القلعة وملكها كذلك. ثم رد على أهل البلد ما أخذ منهم وأنزل فيه حامية. وسار إلى سروج وجميع البلاد التي بيد الافرنج شرقيا فملكها جميعا إلا البيرة لامتناعها فأقام يحاصرها حتى امتنعت ورحل عنها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل وولاية زين الدين على كجك مكانه بالقلعة:

كان استقر عند الاتابك زنكي بالموصل الملك ألبارسلان ابن السلطان محمد، ويلقب الخمفاجي، وكان شبيها به وتوهم السلطان ان البلاد له وأنه نائبه وينتظر وفاة السلطان مسعود فيخطب له ويملك البلد باسمه. وكان يتردد له ويسعى في خدمته فداخله بعض المفسدين في غيبة الاتابك، وزين له قتل نصير الدين النائب، والاستيلاء على الموصل. فلما دخل إليه أغرى به أجناد الاتابك ومواليه فوثبوا به، وقتلوه في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين. ثم ألقوا برأسه إلى أصحابه يحسبون أنهم يفترقون فاعصوصبوا واقتحموا عليه الدار. ودخل عليه القاضي تاج الدين يحيى ابن الشهرزوري فأوهمه بطاعته، وأشار عليه بالصعود إلى القلعة ليستولي على المال والسلاح فركب وصعد معه، وتقدم إلى حافظ القلعة وأشار عليه بأن يمكنه من الدخول. ثم يقبض عليه فدخل ودخل معه الذين قتلوا نصير الدين فحبسهم والي القلعة، وعاد القاضي إلى البلد. وطار الخبر إلى الاتابك زنكي بحصار البيرة فخشي اختلاف البلد وعاد إلى الموصل، وقدم زين الدين على بن كجك، وولاه القلعة مكان نصير الدين، وأقام ينتظر الخبر. وخاف الافرنج الذين بالبيرة من عودته إليهم فبعثوا إلى نجم الدين صاحب ماردين، وسلموها له فملكها المسلمون.

حصار زنكي حصن جعبر وفنك:

ثم سار الاتابك زنكي سنة إحدى وأربعين في المحرم إلى حصن جعبر، ويسمى دوس وهو مطل على الفرات، وكان لسالم بن مالك العقيلي ، أقطعه السلطان ملك شاه لأبيه حين أخذ منه حلب وبعث جيشاً إلى قلعة فنك على فرسخين من جزيرة ابن عمر فحاصروها، وصاحبها يومئذ حسام الدين الكردي فحاصر قلعة جعبر حتى توسط الحال بينهما حسان المنبجي ورغبه ورهبه. وقال في كلامه من يمنعك منه فقال الذي منعك أنت من مالك بن بهرام، وقد حاصر حسان منبج فأصابه في بعض الأيام سهم فقتله، وأفرج عن حسان وقدر قتل الاتابك كذلك والله تعالى أعلم.

مقتل الاتابك عماد الدين زنكي:

كان الاتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل. والشام محاصراً لقلعة جعبر كما ذكرنا، واجتمع جماعة من مواليه واغتالوه ليلا وقتلوه على فراشه، ولحقوا بجعبر وأخبروا أهلها فنادوا من السور بقتله. فدخل أصحابه إليه وألفوه يجود بنفسه. وكان قتله لخمس من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين، عن ستين سنة من عمره ودفن بالرقة، وكان يوم قتل أبوه ابن سبع سنين. ولما قتل دفن بالرقة وكان حسن السياسة كثير العدل مهيباً عند جنده. عمر البلاد وأمنها، وأنصف المظلوم من الظالم. وكان شجاعاً شديد الغيرة كثير الجهاد. ولما قتل رحل العسكر عن قلعة فنك، وصاحبها غفار. قال ابن الأثير: سمعتهم يزعمون أن لهم فيها نحو ثلثمائة سنة، وفيهم رفادة وعصبية ويجيرون كل من يلجأ إليهم والله أعلم.

استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر محمود على حلب:

ولما قتل الاتابك زنكي نزع ابنه نور الدين محمود خاتمه من يده، وسار به إلى حلب فاستولى عليها. وخرج الملك ألبارسلان ابن السلطان محمود، واجتمعت عليه العساكر، وطمع في الاستقلال بملك الموصل. وحضر ابنه جمال الدين محمد بن علي بن متولي الديوان، وصلاح الدين بن محمد الباغيسياني الحاجب، وقد اتفقا فيما بينهما على حفظ الدولة لأصحابهما، وحسنا لألبارسلان ما هو فيه من الاشتغال بلذاته، وأدخلاه الرقة فانغمس بها. وهما يأخذان العهود على الأمراء لسيف الدين غازي، ويبعثانهم إلى الموصل وكان سيف الدين غازي في مدينة شهرزور، وهي أقطاعه، وبعث إليه زين الدين على كوجك نائب القلعة بالموصل يستدعيه ليحضر عنده. وسار البارسلان إلى سنجار، والحاجب وصاحبه معه، ودسوا إلى نائبها بأن يعتذر للملك البارسلان بتأخره حتى يملك الموصل، فساروا إلى الموصل ومروا بمدينة سنجار وقد وقف العسكر فأشاروا على ألبارسلان بعبور دجلة إلى الشرق وبعثوا إلى سيف الدين غازي بخبره وقلة عسكره، فأرسل إليه عسكراً فقبضوه وجاؤا به فحبسه بقلعة الموصل. واستولى سيف الدين

غازي على الموصل والجزيرة، وأخوه نور الدين محمود على حلب ولحق به صلاح الدين الباغيسياني فقام بدولته، والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

عصيان الرها:

ولما قتل الاتابك زنكي ملك الرها جوسكين، كان جوسكين مقيما في ولايته بتل باشر وما جاورها فراسل أهل الرها، وعامتهم من الأرمن، وحملهم على العصيان على المسلمين، وتسليم البلد له فأجابوه، وواعدوه ليوم عينوه فسار في عساكره وملك البلد وامتنعت القلعة. وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود، وهو بحلب فأغذ السير إليها، وأجفل جوسكين إلى بلده. ونهب نور الدين المدينة وسبى أهلها، وارتحلوا عنها وبعث سيف الدين غازي العساكر إليها فبلغهم في طريقهم ما فعله نور الدين فعادوا، وذلك سنة إحدى وأربعين. ثم قصد صاحب دمشق بعد قتل الاتابك حصن بعلبك، وبه نجم الدين أيوب بن شادي نائب الاتابك فأبطأ عليه انجاد بنيه، فصالح صاحب دمشق، وسلم له. بعلبك على اقطاع ومال أعطاه إياه وعشر قرى من بلاد دمشق وانتقل معه إلى دمشق فسكنها وأقام بها ثم سار نور الدين محمود سنة اثنتين وأربعين من حلب إلى الإفرنج ففتح مدينة أرتاح عنوة وحاصر حصونا أخرى. وكان الإفرنج بعد قتل الاتابك يظنون أنهم يستردون ما أخذه منهم فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ولما قتل الاتابك زنكي طمع صاحب ماردين وصاحب كيفا أن يستردوا ما أخذ من بلادهم، فلما تمكن سيف الدين غازي سار إلى أعمال ديار بكر فملك دارا وغيرها، وتقدم إلى ماردين وحاصرها وعاث في نواحيها، حتى ترحم صاحبها حسام الدين تمرتاش على الاتابك مع عداوته. ثم أرسل إلى سيف الدين غازي وصالحه، وزوجه بنته فعاد إلى الموصل، وزفت إليه وهو مريض فهلك قبل زفافها، وتزوجها أخوه قطب الدين من بعده، والله أعلم.

مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب دمشق وهزيمة نور الدين محمود للافرنج:

كان تقدم لنا في دولة بني طغركين موالي دقاق بن تتش أن ملك اللمان من الإفرنج

سار سنة ثلاث وأربعين، وحاصر دمشق بجموع الإفرنج، وبها محي الدين أرتق بن بوري بن محمد بن طغركين في كفالة معين الدين أنز مولي

أعمال . فبعث معين الدين إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي بالموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين، فجمع عساكره وسار إلى الشام،

واستدعى أخاه نور الدين من حلب، ونزلوا على حمص فأخذوا بحجز الإفرنج عن الحصار، وقوي المسلمون بدمشق عليهم. وبعث معين الدين إلى طائفتي الإفرنج من سكان الشام واللمان الواردين، فلم يزل يضرب بينهم. وجعل لافرنج الشام حصن بانياس طعمة على أن يرحلوا بملك اللمانيين ففتلوا له في الذروة والغارب، حتى رحل عن دمشق، ورجع إلى بلاده وراء قسطنطينية بالشمال. وحسن أمر سيف الدين غازي وأخيه في الدفاع عن المسلمين، وكان مع ملك اللمان حين خرج إلى الشام ابن ادفونش ملك الجلالقة بالأندلس، وكان جده هو الذي ملك طرابلس الشام من المسلمين حين خروج الإفرنج إلى الشام فلما جاء الآن مع ملك اللمان ملك حصن العريمة، وأخذ في منازلة طرابلس ليملكها من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين محمود ومعين الدين أنز وهما مجتمعان ببعلبك بعد رحيل ملك اللمانيين عن دمشق، وأغراهما بابن ادفونش ملك الجلالقة واستخلاص حصن العريمة من يده، فسارا لذلك سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وبعث إلى سيف الدين وهو بحمص فأمدهما بعسكر مع الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر، وحاصروا حصن العريمة أياما، ثم نقضوا سوره وملكوه على الإفرنج، وأسروا من كان به من الإفرنج ومعهم ابن ادفونش، وعاد إلى سيف الدين عساكره. ثم بلغ نور الدين ان الإفرنج تجمعوا في بيقو من أرض الشام للإغارة على أعمال حلب، فسار إليهم وقتلهم وهزمهم، وأثخن فيهم قتلا وأسرا، وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى المقتفي. الخليفة انتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب الدين مودود:

ثم توفي سيف الدين غازي بن الاتابك زنكي صاحب الموصل منتصف أربع وأربعين وخمسمائة، لثلاث سنين وشهرين من ولايته، وخلف ولدا صغيرا ربي عند عمه نور الدين محمود. وهلك صغيرا فانقرض عقبه. وكان كريماً شجاعاً متسع المائدة يطعم بكرة وعشية مائة رأس من الغنم في كل

نوبة، وهو أول من حمل الصنجق على رأسه، وأمر بتعليق السيوف بالمناطق، وترك التوشح بها، وحمل الدبوس في حلقة السرج. وبنى المدارس للفقهاء، والربط للفقراء. ولما أنشده حيص بيص الشاعر يمدحه:

الام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقاً إليك المنابر

فوصله بألف مثقال سوى الخلع وغيرها. ولما توفي سيف الدين غازي انتقض الوزير جمال الدين وأمير الجيوش زين الدين علي، وجاؤا بقطب الدين مودود، بادروا إلى تمليكه واستخلفوه وحلفوا له. وركب إلى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه فبايعوا له وأطاعه جميع من في أعمال أخيه بالموصل والجزيرة. وتزوج الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين التي هلك أخوه قبل زفافها، فكان ولده كلهم منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان محمود على سنجار:

ولما ملك قطب الدين مودود الموصل، وكان أخوه نور الدين محمود بالشام، وكان

أكبر منه، وله حلب وحماة، كاتبه جماعة من الأمراء بعد أخيه غازي. وفيمن كاتبه نائب سنجار المقدم عبد الملك فبادر إليه في سبعين فارسا من أمرائه، وسبق أصحابه في يوم مطير إلى مساكن. ودخل البلد، ولم يعرفوا منه إلا أنه أمير من جند التركمان. ثم دخل على الشحنة بيته فقبل يده وأطاعه، ولحق به أصحابه، وساروا جميعاً إلى سنجار، وأغذ السير فقطع عنه أصحابه ووصل إلى سنجار في فارسين، ونزل بظاهر البلد. وبعث إلى المقدم فوصله، وكان قد سار إلى الموصل. وترك ابنه شمس الدين محمد بالقلعة فبعث في أثر أبيه وعاد من طريقه، وسلم سنجار إلى نور الدين محمود فملكها. واستدعى فخر الدين قرى ارسلان صاحب كيفا لمودة بينهما فوصل في عساكره، وبلغ الخبر إلى قطب الدين صاحب الموصل، ووزيره جمال الدين، وأمير جيشه زين الدين فساروا إلى سنجار للقاء نور الدين محمود، وانتهوا إلى تل اعفر، ثم خاموا عن لقائه. وأشار الوزير جمال الدين بمصالحته وسار إليه بنفسه فعقد معه الصلح، وأعاد سنجر على أخيه قطب الدين. وسلم له أخوه مدينة حمص والرحبة والشام فانفرد بملك الشام،

وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة واتفقا. وعاد نور الدين إلى حلب، وحمل ما كان لأبيهم الاتابك زنكي من الذخيرة لسنجار، وكان لا يعبر عنها، والله تعالى أعلم.

غزو نور الدين إلى أنْطاكِية وقتل صاحبها وفتح افاميا:

ثم غزا نور الدين سنة أربع وأربعين إلى أنْطاكِية فعاث فيها، وخرب كثيرا من حصونها وبينما

هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الإفرنج وزحفوا إليه فلقيهم وحاربهم، وأبلى في ذلك الموقف فهزم الإفرنج وقتل البرنس صاحب أنْطاكِية، وكان من عتاة الإفرنج. وملك بعده ابنه سمند طفلا، وتزوجت أمه برنس آخر يكفل ولدها ويدبر ملكها فغزاه نور الدين، ولقوه فهزمهم، وأسر ذلك البرنس الثاني. وتمكن الطفل سمند من ملكه بأنْطاكِية. ثم سار نور الدين سنة خمس وأربعين إلى حصن افاميا بين شيزر وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصره وملكه، وشحنه حامية وسلاحا وأقواتا. ولم يفرغ من أمره إلا والإفرنج الذين بالشام جمعوا وزحفوا إليه. وبلغهم الخبر فخاموا عن اللقاء وصالحوه في المهادنة فعقد لهم انتهى.

هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين:

ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازيا إلى بلاد زعيم الإفرنج، وهي تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب فجمع جوسكين لمدافعته عنها، ولقيه فاقتتلوا ومحص الله المسلمين، واستشهد كثير منهم وأسر آخرون، وفيهم صاحب صلاح نور الدين فبعثه جوسكين إلى الملك مسعود بن قليج ارسلان يعيره به، لمكان صهره نور الدين على إبنته فعظم ذلك عليه، وأعمل الحيلة في جوسكين. وبذل المال لإحياء التركمان البادين بضواحيه أن يحتالوا في القبض عليه ففعلوا، وظفر به بعضهم فشاركهم في إطلاقه على مال، وبعث من يأتي به . وشعر بذلك والي حلب أبو بكر بن الرامة فبعث عسكراً ليسوا من ذلك الحي جاؤا بجوسكين أسيراً إلى حلب وسار نور الدين إلى القلاع فملكها، وهي: تل باشر وعنتاب وعذار وتل خالد وقورص وداوندار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجود، وشحنها بالأقوات. وزحف اليه الإفرنج ليدافعوه فلقيهم على حصن جلدك. وانهزم الإفرنج وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والأسر، ورجع نور الدين إلى دلوكا ففتحها، وتأخر فتح تل باشر منها إلى أن ملك نور الدين دمشق، واستأمنوا إليه وبعث إليهم حسان المنبجي فتسلمها منهم وحصنها، وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على دمشق:

كان الإفرنج سنة ثمان وأربعين قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر، واعترضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى المدافعة عنها، واستطال الإفرنج على دمشق

بعد ملكهم عسقلان، ووضعوا عليها الجزية، واشترطوا عليهم تخيير الأسرى الذين بأيديهم في الرجوع إلى وطنهم، وكان بها يومئذ مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغركين الاتابك واهن القوى، مستضعف القوة. فخشي نور الدين عليها من الإفرنج، وربما ضايق مجير الدين بعض الملوك من جيرانه فيفزع إلى الإفرنج فيغلبون عليه. وأمعن النظر في ذلك ، وبدأ أمره بمواصلة مجيز الدين وملاطفته حتى استحكمت المودة بينهما حتى صار يداخله في أهل دولته وبرميهم عنده أنهم كاتبوه فيوقع الآخر بهم، حتى هدم أركان دولته، ولم يبق من أمرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته فغصى به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله. وخلت دمشق من الحامية فسار حينئذ نور الدين مجاهراً بعداوة مجير الدولة ومتجنياً عليه. وإستنجد بالإفرنج على أن يعطيهم الأموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا. وفي خلال ذلك عمد نور الدين إلى دمشق سنة سبع وأربعين، وكاتب جماعة من أحداثها ووعدهم من أنفسهم، فلما وصل ثاروا بمجير الدين ولجأ إلى القلعة. وملك نور الدين المدينة وحاصره. بالقلعة، وبذل له إقطاعاً منها مدينة حمص. فسار إليها مجير الدين، وملك نور الدين القلعة. ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها، ولحق ببغداد وابتنى بها داراً وأقام بها إلى أن توفي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره قلعة حارم:

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث إليه الإفرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب، واستأمنوا إليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء أمراء نور الدين سنة تسع وأربعين. ثم سار سنة إحدى وخمسين إلى قلعة بهرام بالقرب من أنْطاكِية وهي لسمند أمير أنْطاكِية من الإفرنج فحاصرها، واجتمع الإفرنج لمدافعته، ثم خاموا عن لقائه وصالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل عنها، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

استيلاء نور الدين على شيزر:

شيزر هذه حصن قريت من حماة على نصف مرحلة منها على جبل منيع عال لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة، وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب من أعوام عشرين وأربعمائة، إلى أن انتهى ملكه إلى المرهف نصر بن علي بن

نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي. فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد، وكان عالماً بالقراءات والأدب، وولى مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي، وكان بينهما من الإتفاق والملاءمة ما لم يكن بين إثنين. ونشأ لمرشد بنون كثيرون و في السود، منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وولده علي وتعدد ولده ونافسوا بني عمهم، وفشت بينهم السعايات فتماسكوا لمكان مرشد والتئامه بأخيه. فلما مات مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تنكر أخوه سلطان لولده، وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد بعضهم نور الدين فامتعض لهم وكان مشتغلا عنهم بالافرنج. ثم توفي سلطان وقام بأمر شيزر أولاده، وراسلوا الإفرنج فحنق نور الدين عليهم لذلك. ثم وقعت الزلازل بالشام وخرب أكثر مدنه مثل: حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وحصن الأكراد وعرقة ولاذقية وطرابلس وأنْطاكِية. هذه سقطت جميعها وتهدمت سنة إثنتين وخمسين، وما سقط بعضه وتهدمت أسواره فأكثر بلاد الشام. وخشي نور الدين عليها من الإفرنج فوقف بعساكره في أطراف البلاد حتى رم ما تثلم من أسوارها. وكان بنو منقذ أمراء شيزر قد اجتمعوا عند صاحبها منهم في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة، ولم ينج منهم أحد. وكان بالقرب منها بعض أمراء نور الدين فبادر وصعد إليها، وملكها منه نور الدين ورم ما تثلم من أسوارها، وجدد بناءها فعادت كما كانت، هكذا قال ابن الأثير. وقال ابن خلكان: وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة استولى بنو منقذ على شيزر من يد الروم، والذي تولى فتحها منهم علي بن منقذ بن نصر بن سعد، وكتب إلى بغداد بشرح الحال ما نصه:

كتابي من حصن شيزر حماه الله، وقد رزقني الله من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق في هذا الزمان. وإذا عرف الأمر على حقيقته علم أني هزبر هذه الأمة، وسليمان الجن والمردة، وأنا أفرّق بين المرء وزوجه، واستنزل القمر من محله. أنا أبو النجم وشعري شعري نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل الألباب، يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال، وتمسكه خمس نسوة فعمدت إلى تل بينه وبين حصن الروم

يعرف بالحواص، ويسمى هذا التل بالحصن فعمرته حصناً، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الحواص فأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي، وخلطت خنازيرهم بغنمي، ونواقيسهم بصوت الأذان. ورأى أهل شيزر فعلي ذلك فأنسوا بي، ووصل إلى منهم قريب من نصفهم فبالغت في إكرامهم. ووصل إليهم مسلم بن قريش العقيلي فقتل

من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما إنصرف مسلم عنهم سلموا إلى الحصن. إنتهى كتاب علي بن منقذ. وبين هذا الذي ذكره ابن خلكان والذي ذكره ابن الأثير نحو خمسين سنة. وما ذكره ابن الأثير أولي لأن الإفرنج لم يملكوا من الشام شيئاً في أوائل المائة الخامسة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على بعلبك:

كانت بعلبك في يد الضحاك البقاعي، نسبة إلى بقاعة والآن عليها صاحب دمشق. فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك، وشغل نور الدين عنه بالافرنج. فلما كانت سنة اثنتين وخمسين إستنزله نور الدين عنها وملكها، والله أعلم.

استيلاء أخي نول الدين على حران ثم إرتجاعها:

كان نور الدين سنة أربع وخمسين وخمسمائة بحلب، ومعه أخوه الأصغر أمير أميران، فمرض نور الدين بالقلعة، واشتد مرضه فجمع أخوه وحاصر قلعة حلب. وكان شيركوه ابن شادي أكبر أمرائه بحمص، فلما بلغه لأزحاف سار إلى دمشق ليملكها، وعليها أخوه نجم الدين أيوب فنكر عليه، وأمره بالمسير إلى حلب حتى يتبين حياة نور الدين من موته. فأغذ السير إلى حلب، وصعد القلعة، وأظهر نور الدين للناس من سطح مشرف فافترقوا عن أخيه أمير أميران. فسار إلى حران فملكها. فلما أفاق نور الدين سلمها إلى زين الدين علي كجك نائب أخيه قطب الدين بالموصل، وسار إلى الرقة فحاصرها، والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سليمان شاه وحبسه بالموصل ثم مسيره منها إلى السلطنة بهمذان:

كان الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجر لخراسان، وقد عهد له بملكه وخطب باسمه على منابر خراسان. فلما حصل سنجر في أسر العدو سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كما مرّ في أخبار دولتهم، واجتمعت العساكر على سليمان شاه هذا، وقدموه

فلم يطق مقاومة العدو فمضى إلى خوارزم شاه وزوجه إبنة أخيه. ثم بلغه عنه ما ارتاب له فأخرجه من خوارزم، وقصد أصبهان فمنعه الشحنة من الدخول فقصد قاشان، فبعث إليه محمد شاه ابن أخيه محمود عسكرا دافعوه عنها فسار إلى خراسان، فمنعه ملك شاه منها فقصد النجف، ونزل وأرسل للخليفة المستنصر، وبعث أهله وولده رهناً بالطاعة و استأذن في دخول بغداد، فأكرمهم الخليفة وأذن له وخرج ابن الوزير ابن هبيرة لتلقيه في الموكب، وفيه قاضي القضاة. والتقيا ودخل بغداد، وخلع عليه آخر سنة خمسين. وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والأعيان، وخطب له ببغداد، ولقب ألقاب أبيه. وأمر بثلاثة آلاف فارس، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة إحدى وخمسين. ونزل الخليفة حلوان واستنفر له ابن أخيه ملك شاه صاحب همذان، فقدم إله في ألفي فارس، وجعله سليمان شاه ولي عهده، وأمدهما الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما ايلدكز صاحب الريّ فكثرت جموعهم. وبعث السلطان محمد إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل، وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والإنجاد، وسار إلى لقاء سليمان شاه فانهزم وتمزق عسكره. وفارقه أيلدكز فذهب إلى بغداد على طريق شهرزور. وبلغ خبر الهزيمة إلى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل، وقعد له بشهرزور، ومعه الأمير إيراق حتى مرّ بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين، وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً، وطير إلى السلطان محمود بالخبر. فلما هلك السلطان محمود بن محمد سنة خمس وخمسين، أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين أتابك يطلبون توليه الملك سليمان شاه، ويكون جمال الدين وزير قطب الدين وزيراً له، وتعاهدوا على ذلك. وجهزه قطب الدين جهاز الملك، وسار معه زين الدين علي كجك في عسكر الموصل إلى همذان. فلما قاربوا بلاد الجبل تتابعت العساكر والأمداد للقائهم إرسالاً، واجتمعوا على سليمان شاه وجروا معه على مذاهب الدولة، فخشيهم زين الدين على نفسه، وفارقهم إلى الموصل. وسار سليمان شاه إلى همذان فكان من أمرهم ما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية.

حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين إمام الإفرنج ثم هزيمتهم وفتحها:

ثم جمع نور الدين محمود عساكر حلب، وحاصر الإفرنج بقلعة حارم، وجمعوا لمدافعته ثم خاموا عن لقائه ولم يناجزوه ، وطال عليه أمرها فعاد عنها. ثم جمع عساكره وسار سنة ثمان وخمسين معتزماً على غزو طرابلس، وإنتهى إلى البقيعة تحت حصن الأكراد فكبسهم الإفرنج هنالك وأثخنوا فيهم. ونجا نور الدين في الفل إلى بحيرة مرس قريباً من حمص، ولحق به المنهزمون. وبعث إلى دمشق وحلب في الأموال والخيام والظهر، وأزاح علل العسكر. وعلم الإفرنج بمكان نور الدين من حمص فنكبوا عن قصدها. وسألوه الصلح فامتنع فأنزلوا حاميتهم بحصن الأكراد ورجعوا. وفي هذه الغزاة عزل نور الدين رجلا يعرف بابن نصري، تنصح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء والفقهاء والصوفية والقراء إلى مصارف الجهاد فغضب وقال: والله لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنهم يقاتلون عني بسهام الدعاء في الليل. وكيف أصرفها عنهم، وهي من حقوقهم في بيت المال ذلك شيء لا يحل لي. ثم أخذ في الإستعداد للأخذ بثأره من الإفرنج، وسار بعضهم إلى ملك مصر فأراد أن يخالفهم إلى بلادهم، فبعث إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل، وإلى فخر الدين قرا ارسلان صاحب كيفا، وإلى نجم الدين ولي صاحب ماردين بالنجدة، فسار من بينهم أخوه قطب الدين. وفي مقدمته زين الدين علي كجك صاحب جيشه ثم نبعه صاحب كيفا. وبعث نجم الدين عسكره، فلما توافت الأمداد سار نور الدين نحو حارم سنة تسع وخمسين فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وإجتمع من بقي بالساحل من ملوك الإفرنج، ومقدمهم البرنس سمند صاحب أنْطاكِية، والقمص صاحب طرابلس وابن جوسكين، واستنفر لهم أمم النصرانية وقصدوه فأفرج عن حارم إلى إرتاج. ثم خاموا عن لقائه وعادوا إلى حصن حارم، وسار في إتباعهم وناوشهم الحرب فحملوا على عساكر حلب، وصاحب كيفا في ميمنة المسلمين فهزموها ومروا في أتباعهم. وحمل زين الدين في عساكر الموصل على الصف فلقيه الرجل فأثخن فيهم

واستلحمهم، وعاد الإفرنج من أتباع الميمنة فسقط في أيديهم. ودارت رحا الحرب على الإفرنج فانهزموا، ورجع المسلمون من القتل إلى الأسر فأسروا منهم اماماً فيهم سمند صاحب أنْطاكِية والقمص صاحب طرابلس. وبعث السرايا في تلك الأعمال بقصد أنْطاكِية لخلوها من الحاميه فأبى وقال: أخشى أن يسلمها أصحابها لملك الروم فإن سمند ابن أخته

ومجاورته أحق إلى من مجاورة ملك الروم. ثم عاج على قلعة حارم فحاصرها وافتتحها ورجع مظفراً، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح نور الدين قلعة بانياس:

ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن كيفا بالإنطلاق إلى بلادهم، وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الإفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. ثم ورى عنها بقصد طبرية فصرف الإفرنج همتهم إلى حمايتها، وخالف هو إلى بانياس لقلة حاميتها فحاصرها، وضيق عليها في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين. وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران فاصيب بسهم في إحدى عينيه وأخذ الإفرنج في الجمع لمدافعته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح. وخافه الإفرنج فشاطروه في أعمال طبرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر فسبقهم بالفتح وعاد إلى دمشق. ثم سار سنة إحدى وستين متجرداً إلى حصن المنيطرة فنازلهم على غرة وملكه عنوة، ولم يجتمع الإفرنج إلا وقد ملكه فافترقوا ويئسوا من إرتجاعه، والله تعالى أعلم.

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل صريخاً وإنجاده بالعسكر مع أسد الدين شيركوه:

كانت دولة العلويين بمصر قد أخذت في التلاشي وصارت إلى استبداد وزرائها على خلفائها، وكان من آخر المسلمين بها شاور السعدي إستعمله الصالح بن زربك على قوص وندم. فلما هلك الصالح بن رزبك وكان مستبداً على الدولة قام ابنه رزبك مقامه فعزل شاور عن قوص فلم يرض بعزله. وجمع وزحف إلى القاهرة فملكها، وقتل رزبك واستبد على العاضد ولقبه أمير الجيوش. وكانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ثم نازعه الضرغام، وكان صاحب الباب ومقدم البرقية فثار عليه لسبعة أشهر من وزارته، وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام، وقصد نور الدين محمود بن زنكي مستنجداً به على أن يكون له ثلث الجباية بمصر. ويقيم عسكر نور

الدين بها مدداً له فاختار من أمرائه لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي،

وكان بحمص، وجهزه بالعساكر فسار له لك في جمادى سنة تسع وخمسين، وأتبعه نور الدين إلى أطراف بلاد الإفرنج فشغلهم عن التعرض للعساكر. وسار أسد الدين مع شاور، وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب، وانتهوا إلى بلبيس فلقيهم ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فانهزم ورجع إلى القاهرة. واتبعه أسد الدين فقتله عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها. وقتل أخوه وعاد شاور إلى وزارته. وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر الوفاء بالعهد من شاور بما عاهد عليه نور الدين فنكث شاور العهد، وبعث إليه بالرجوع إلى بلده فلج في طلب ضريبته، ورحل إلى بلبيس والبلاد الشرقية فاستولى عليها. واستمد شاور عليه بالافرنج فبادروا إلى ذلك لما كان في نفوسهم من تخوّف غائلته، وطمعوا في ملك مصر. وسار نور الدين من دمشق ليأخذ بحجزتهم عن المسير فلم يثنهم ذلك، وتركوا ببلادهم حامية فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين، وإجتمع الإفرنج وعساكر مصر فحاصروه ثلاثة أشهر، يغاديهم القتال ويراوحهم. وجاءهم الخبر بهزيمة الإفرنج على حارم، وما هيأ الله لنور الدين في ذلك فراسلوا أسد الدين شيركوه في الصلح، وطووا عنه الخبر فصالحهم وخرج ولحق بالشام. ووضع له الإفرنج المراصد بالطريق فعدل عنها. ثم أعاده نور الدين إلى مصر سنة إثنتين وستين فسار بالعساكر في ربيع، ونزل أطفيح، وعبر النيل. وجاء إلى القاهرة من جانبها الغربي ونزل الجيزة في عدوة النيل، وحاصرها خمسين يوماً. واستمد شاور بالإفرنج وعبر إلى أسد الدين فتأخر إلى الصعيد، ولقيهم منتصف السنة فهزمهم. وسار إلى ثغر الإسكندرية فملكها، وولى عليها صلاح الدين ابن أخيه ورجع فدوخ بلاد الصعيد. وسارت عساكر مصر والإفرنج إلى الإسكندرية، وحاصروا بها صلاح الدين فسار إليه أسد الدين فتلقوه بطلب الصلح فتم ذلك بينهم، وعاد إلى الشام وترك لهم الإسكندرية. وكاتب شجاع بن شاور نور الدين بالطاعة عنه وعن طائفة من الأمراء. ثم استطال الإفرنج على أهل مصر وفرضوا عليهم الجزية وأنزلوا بالقاهرة الشحنة، وتسلموا أبوابها واستدعوا ملكهم بالشام إلى الإستيلاء عليها فبادر نور الدين، وأعاد أسد الدين في العساكر إليها في ربيع سنة أربع وستين فملكها وقتل شاور، وطرد الإفرنج

عنها. وقدمه العاضد لوزارته والإستبداد عليه كما كان من قبله. ثم هلك أسد الدين وقام صلاح الدين ابن أخيه مكانه، وهو مع ذلك في طاعة نور الدين محمود. وهلك العاضد فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الدعوة العباسية بمصر، والخطبة للمستضيء. ويقال أنه كتب له بذلك في حياة العاضد، وبين يدي وفاته. وهلك لخمسين يوماً أو نحوها فخطب للمستضيء العباسي، وإنقرضت الدولة العلوية بمصر، وذلك سنة سبع وستين كما نأتي على شرحه وتفصيله

في دولة بني أيوب إن شاء الله تعالى. ووقعت خلال ذلك فتنة بين نور الدين محمود وبين صاحب الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان سنة ستين وخمسمائة، وكتب الصالح بن رزبك إلى قليج ارسلان ينهاه عن الفتنة، والله تعالى ولي التوفيق.

فتح نور الدين صافيتا وعريمة ومنبج وجعبر:

ثم جمع نور الدين عساكره سنة إثنتين وستين، واستدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بحمص، ودخلوا جميعا بلاد الإفرنج، ومروا بحصن الأكراد واكتسحوا نواحيه. ثم حاصروا عرقة وخربوا جكة وفتحوا العريمة وصافيتا، وبعثوا سراياهم فعاثت في البلاد ورجعوا إلى حمص فأقاموا بها إلى رمضان، وانتقلوا إلى بانياس، وقصدوا حصن حموص فهرب عنه الإفرنج فهدم نور الدين سوره وأحرقه. واعتزم على بيروت فرجع عنه أخوه قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين من عمله الرقة على الفرات. ثم إنتقض بمدينة منبج غازي بن حسان. وبعث إليها العساكر فملكها عنوة، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وبقيت بيده إلى أن أخذها منه صلاح الدين بن أيوب. ثم قبض بنو كلاب على شهاب الدين ملك بن علي بن مالك العقيلى صاحب قلعة جعبر، وكانت تسمى دوس، ثم سميت باسم جعبر بانيها وكان السلطان ملك شاه أعطاها لجده عندما ملك حلب كما مر في أخباره. ولم

تزل بيده ويد عقبه إلى أن هلك هذا فخرج يتصيد سنة ثلاث وستين، وقد أرصد له بنو كلاب فأسروه، وحملوه إلى نور الدين محمود صاحب دمشق فاعتقله مكرماً. وحاوله في النزول عن جعبر بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى فأبى وبعث بالعساكر مع الأمير فخر الدين محمود بن أبي علي الزعفراني وحاصرها مدة فامتنعت، فبعث عسكراً آخرا. وقدم على الجميع الأمير فخر الدين أبا بكر ابن الداية رضيعه وأكبر أمرائه فحاصرها فامتنعت ورجع إلى ملاطفة صاحبها فأجاب، وعوضه نور الدين عنها سروج وأعمالها، وساحة حلب ومراغة وعشرين ألف دينار. وملك قلعة جعفر سنة أربع وستين، وإنقرض أمر بني مالك منها، والبقاء لله وحده.

رحلة زين الدين نائب الموصل إلى أربل واستبداد قطب الدين بملكه:

قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الاتابك زنكي بالموصل، وقتل ألبارسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة طمعاً في الملك لغيبة الاتابك فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الاتابك، وأيام ابنه غازي، وابنه الآخر قطب الدين سنة ثمان وخمسين على وزيرهم جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصبهاني فاعتقله، وهلك لسنة من الاعتقال. وحمل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فدفن بها في رباط هناك أعده لذلك. وكانت وفاته أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين فولى مكانه جلال الدين أبا الحسن ابنه. وكان زين الدين علي بن كمستكين ويعرف بكجك قد استبد في دولة قطب الدين واستقل بحكم الدولة. وصارت بيده أكثر البلاد إقطاعاً مثل: اربل وشهرزور والقلاع التي في تلك البلاد الهكارية. منها: العمادية وغيرها، والحميدية وتكريت وسنجار. وقد كان نقل أهله وولده وذخائره إلى اربل، وأقام بمحل نيابته من قلعة الموصل فأصابه الكبر، وطرقه العمى والصمم فعزم على مفارقة الموصل إلى كسر بيته بأربل، فسلم جميع البلاد التي بيده إلى قطب الدين ما عدا اربل. وسار إليها سنة أربع وستين، وأقام قطب الدين مكانه فخر الدين عبد المسيح خصياً من موالي جده الاتابك زنكي، وحكمه في دولته فنزل بالقلعة وعمرها، وكان الخراب قد لحقها بإهمال زين الدين أمر البناء، والله تعالى أعلم.

حصار نور الدين قلعة الكرك:

ثم بعث صلاح الدين سنة خمس وستين إلى نور الدين محمود يطلب إنفاذ أبيه نجم الدين أيوب إليه فبعثه في عسكر، واجتمع إليه خلق من التجار ومن أصحاب صلاح الدين، وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج فسارت العساكر إلى الكرك، وهو حصن إختطه من الإفرنج البرنس أرقاط وإختط له قلعة فحاصره نور الدين، وجمع له الإفرنج فرحل إلى مقدمتهم

قبل أن يتلاحقوا فخاموا عن لقائه ونكصوا على أعقابهم. وسار في بلادهم فاكتسحها، وخرب ما مر به من القلاع، وإنتهى إلى بلاد المسلمين حتى نزل حوشب. وبعث

نجم الدين من هنالك إلى مصر فوصلها منتصف خمس وستين، وركب العاضد للقائه. ولما كان نور الدين بعشيرا سار للقاء شهاب الدين محمد بن إلياس بن أبي الغازي بن أرتق صاحب قلعة أكبره. فلما إنتهى إلى نواحي بعلبك لقي سرية من الإفرنج فقاتلهم وهزمهم واستلحمهم، وجاء بالأسرى ورؤس القتلى إلى نور الدين، وعرف الرؤس مقدم الإستبان صاحب حصن الأكراد، وكان شجىّ في قلوب المسلمين. وبلغه وهو بهذا المنزل خبر الزلازل التي عمت البلاد بالشام والموصل والجزيرة والعراق، وخربت أكثر البلاد بعمله فسار إليها وشغل في إصلاحها من واحدة إلى أخرى حتى أكملها بمبلغ جهده. واشتغل الإفرنج بعمارة بلادهم أيضاً خوفاً من غائلته، والله تعالى أعلم.

وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك إبنه سيف الدين غازي:

ثم توفي قطب الدين مودود بن الاتابك زنكي صاحب الموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ملكه، وعهد لإبنه الأكبر عماد الدين بالملك. وكان القائم بدولته فخر الدين عبد المسيح، وكان شديد الطواعية لنور الدين محمود، ويعلم ميله عن عماد الدين زنكي بن مودود فعدل عنه إلى أخيه سيف الدين غازي ابن مودود بموافقة أمه خاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي. ولحق عماد الدين بعمه نور الدين منتصراً به. وقام فخر الدين عبد المسيح بتدبير الدولة بالموصل واستبد بها، والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على الموصل وإقراره ابن أخيه سيف الدين عليها:

ولما ولي سيف الدين غازي بالموصل بعد أبيه قطب الدين، واستبد عليه فخر

الدين عبد المسيح كما تقدم، وبلغ الخبر إلى نور الدين باستبداده أنف من ذلك، وسار في خف من العسكر، وعبر الفرات عند جعبر أول سنة ست وستين. وقصد الرقة فملكها، ثم الخابور فملك جميعه، ثم

نصيبين وكلها من أعمال الموصل. وجاءه هناك نور الدين محمد بن قرا ارسلان ابن داود بن سقمان صاحب كيفا مدداً. ثم سار إلى سنجار فحاصرها وملكها وسلمها لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين. ثم جاءته كتب الأمراء بالموصل فاستحثوه فأغذ السير إلى مدينة كلك. ثم عبر الدجلة ونزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل. وسقطت ذلك اليوم ثلمة كبيرة من سور الموصل. وكان سيف الدين غازي قد بعث أخاه عز الدين مسعود إلى الاتابك شمس الدين صاحب همذان وبلاد الجبل وأذربيجان وأصبهان والري يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل أيلدكز إلى نور الدين ينهاه عن الموصل فأساء جوابه وتوعده، وأقام يحاصر الموصل. ثم إجتمع أمراؤها على طاعة نور الدين. ولما استحث فخر الدين عبد المسيح استأمن إلى نور الدين على أن يبقي سيف الدين ابن أخيه على ملكها، فأجابه على أن يخرج هو عنه، ويكون معه بالشام. وتم ذلك بينهما، وملك نور الدين منتصف جمادى الأولى من سنة ست وستين. ودخل المدينة واستناب بالقلعة خصياً إسمه كمستكين ولقبه سعد الدين. فأقر سيف الدين ابن أخيه على ملكه، وخلع عليه خلعة، وردت عليه من الخليفة المستضيء وهو يحاصرها، وأمر ببناء جامع بالموصل فبني وشهر باسمه. وأمر سيف الدين أن يشاور كمستكين في جميع أموره، وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين وعاد إلى الشام، والله تعالى أعلم.

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين.

ثم سار صلاح الدين في صفر سنة تسع وستين من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً ونازل حصن الشوبك من أعمال واستأمن إليه أهله على أن يمهلهم عشرة أيام، فأجابهم وسمع نور الدين بذلك فسار من دمشق غازياً أيضاً بلاد الإفرنج من جانب آخر، وتنصح لصلاح الدين أصحابه بأنك ان ظاهرته على الإفرنج إضمحل امرهم فاستطال عليك نور الدين، ولا تقدر على الإمتناع منه فترك الشويك وكر راجعاً إلى مصر. وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر أنهم معتزمون على

الوثوب، فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك، واعتزم على عزله عن مصر.
فاستشار صلاح الدين أباه وخاله شهاب الدين

الحارمي وقرابتهم، فأشار عليه تقي الدين عمر ابن أخيه بالإمتناع والعصيان فنكر عليه نجم الدين أبوه وقال له: ليس منا من يقوم بعصيان نور الدين لو حضر أو بعث وأشارعليه بأن يكاتبه بالطاعة، وأنه إن عزم على أخذ البلاد منك فسلمها ويصل بنفسه. وافترق المجلس فخلا به أبوه وقال: ما لك توجد بهذا الكلام السبيل للأمراء في استطالتهم عليك. ولو فعلتم ما فعلتم كنت أول الممتنعين عليه، ولكن ملاطفته أولى. وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما أشار به أبوه من الملاطفة فتركهم نور الدين وأعرض عن قصدهم. ثم توفي، واشتغل صلاح الدين بملك البلاد. ثم جمع نور الدين العساكر وسار لغزو الإفرنج بسبب ما أخذوه لأهل البلاد من مراكب التجار، ونكثوا فيها العهد مغالطين بأنها تكسرت فلم يقبل مغالطتهم. وسار إليهم وبث السرايا في بلادهم نحو أنْطاكِية وطرابلس، وحاصر هو حصن عرقة، وخرب ربضه، وأرسل عسكرا إلى حصن صافيتا وعريمة ففتحهما عنوة وخربهما. ثم سار من عرقة إلى طرابلس واكتسح كل ما مر عليه، حتى رجع الإفرنج إلى الإنصاف من أنفسهم، وردوا ما أخذوا من المكرمين الأعزين، وسألوا تجديد الهدنة فأجابهم بعد أن خربت بلادهم وقتلت رجالهم وغنمت أموالهم. ثم أتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام... بالشام تطير إلى أوعارها من لإتساع بلاده، ووصول الأخبار بسرعة فبادر إلى القيام بواجبه، وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها لتصل الكتب في أجنحتها. ثم أغار الإفرنج على حوران من أعمال دمشق، وكان نور الدين ينزل الكسوة فرحل إليهم ورحلوا أمامه إلى السواد، وتبعهم المسلمون ونالوا منهم. ونزل نور الدين على عشيرا وبعث منها سرية إلى أعمال طبرية فاكتسحها، وسار الإفرنج لمدافعتهم فرجعوا عنها وأتبعهم الإفرنج فعبروا النهر، وطمعوا في استنقاذ غنائمهم فقاتلهم المسلمون دونها أشد قتال إلى أن استنقذت، وتحاجزوا ورجع الإفرنج خائبين، والله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين بمنه وكرمه.

واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم:

كان مليج بن ليون صاحب دروب حلب أطاع نور الدين محمود بن زنكي، وأمره

على الحمالة

وأقطعه ببلاد الشام، وكان يسير في خدمته ويشهد حروبه مع الإفرنج أهل ملته. وكان الأرمني أيضاً يستظهر به على أعدائه، وكانت أدنة والمصيصة وطرسوس مجاورة لابن ليون، وهي بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فتغلب عليها ابن ليون وملكها. وبعث صاحب القسطنطينية منتصف سنة ثمان وستين وخمسمائة جيشاً كثيفاً. مع عظيم من بطارقته، فلقيه ابن ليون بعد أن استنجد نور الدين فأنجده بالعساكر، وقاتلهم فهزمهم، وبعث بغنائمهم. وأسراهم إلى نور الدين، وقويت شوكة ابن ليون، ويئس الروم من تلك البلاد، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين إلى بلاد الروم:

كان ذو النون بن محمد بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وأخصرى وقيسارية ملكها بعد عمه باغي ارسلان، وأخيه إبراهيم بن محمد فلم يزل قليج ارسلان بن محمد بن قليج ارسلان يتخيف بلاده إلى أن استولى عليها. ولحق ذو النون بنور الدين صريخاً. وأرسل إلى قليج ارسلان بالشفاعة في رد بلاده فلم يشفعه، فسار إليه وملك من بلاده بكسور ومهنسا ومرعش ومرزبان وما بينهما في ذي القعدة سنة ثمان وستين. ثم بعث عسكراً إلى سيواس فملكوها. ثم أرسل قليج ارسلان إلى نور الدين يستعطفه، وقد كان يجيز أمامه إلى قاصية بلاده فأجابه نور الدين إلى الصلح على أن ينجده بعسكر الإفرنج، ويبقي سيواس بيد ذي النون وعساكر نور الدين الذي معه فيها. ورجع نور الدين إلى بلاده وبقيت سيواس بيد ذي النون حتى مات نور الدين، وعاد قليج ارسلان. ثم وصل رسول نور الدين من بغداد كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري، ومعه منشور من الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل والجزيرة واربل وخلاط والشام وبلاد الروم وديار مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى الكرك ورجوعه:

ولما كانت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين كما قدمنا، واعتزم نور الدين على

عزله عن مصر، واستعطفه صلاح الدين كان فيما تقرر بينهما أنهما يجتمعان على الكرك، وأيهما سبق انتظر صاحبه فسار صلاح الدين من مصر في شوال سنة ثمان وستين، وسبق إلى الكرك وحاصره. وخرج نور الدين بعد أن بلغه مسير صلاح من مصر، وأزاح علل العساكر وانتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك فخافه صلاح الدين على نفسه، وخشي أن يعذله عند لقائه.

وكان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر فبلغه أنه طرقه مرض شديد فوجد فيه عذر لنور الدين، وكرّ راجعاً إلى مصر. وبعث الفقيه عيسى بذلك العذر وان حفظة مصر أهمّ عليه. فلما وصل مصر وجد أباه قد توفي من سقطة سقطها عن مركوبه، هزه المرح فرماه، وحمل إلى بيته وقيذا ومات لأيام قريبة آخر ذي الحجة من السنة. ورجع نور الدين إلى دمشق، وكان قد بعث رسوله كمال الدين الشهرزوري القاضي ببلاده، وصاحب الوقوف والديوان لطلب التقليد للبلاد التي بيده مثل مصر والشام والجزيرة والموصل، والتي دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم، وأن يعاد له ما كان لأبيه زنكي من الإقطاع بالعراق وهي: صريفين ودرب هرون ، وأن يسوغ قطعة أرض على شاطئ دجلة بظاهر الموصل يبني فيها مدرسة للشافعية فاسعف بذلك كله.

وفاة نور الدين محمود وولاية إبنه إسمعيل الصالح:

ثم توفي نور الدين محمود بن الاتابك زنكي حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة لسبع عشرة سنة من ولايته، وكان قد شرع في التجهز لأخذ مصر من صلاح الدين بن أيوب ، واستنفر سيف الدين ابن أخيه في العساكر موريا بغزو الإفرنج. وكان قد إتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب. وكان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة ومتحرياً للعدل ومتجافياً عن أخذ المكوس في جميع أعماله، وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها مثل: دمشق وحمص وحماة وشيزر وبعلبك وحلب، وبنى مدارس كثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل، والمارستانات والخانات في الطريق، والجواسق للصوفية في البلاد. واستكثر من الأوقاف عليها. يقال بلغ ريع أوقافه في كل شهر تسعة آلاف دينار صوري. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويتمثل لهم قائماً، ويؤنسهم في المجالسة، ولا يرد لهم قولاً، وكان متواضعاً مهيباً وقوراً. ولما توفي إجتمع الأمراء والمقدمون وأهل الدولة بدمشق، وبايعوا ابنه الملك الصالح إسمعيل وهو ابن إحدى عشرة سنة. وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له هنالك وضرب السكة باسمه،

وقام بكفالته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، وأشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوري بأن يرجعوا في جميع أمورهم إلى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة:

قد كنا قدمنا أن نور الدين استولى على بلاد الجزيرة، وأقر سيف الدين ابن أخيه قطب الدين على الموصل، واحتمل معه فخر الدين عبد المسيح الذي ولى سيف الدين واستبد عليه بأمره. وولى على قلعة الموصل سعد الدين كمستكين. ولما استنفرهم نور الدين بين يدي موته سار إليه سيف الدين غازي وكمستكين الخادم في العساكر، وبلغهم في طريقهم خبر وفاته. وكان كمستكين في المقدمة فهرب إلى حلب، واستولى سيف الدين على مخلفة وسواده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وبعث العساكر إلى الخابور فاستولى عليها وعلى أقطاعها. ثم سار إلى حران، وبها قايماز الحراني مولى نور الدين فحاصرها أياماً، ثم استنزله على أن يقطعه حران. فلما نزل قبض عليه وملكها. ثم سار إلى الرها وبها خادم لنور الدين فتسلمها وعوضه عنها قلعة الزعفراني من جزيرة ابن عمر، وانتزعها منه بعد ذلك. ثم سار إلى الرقة وسروج فملكها، واستوعب بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر لإمتناعها، وسوى رأس عين كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وهو ابن خاله. وكان شمس الدين علي بن الداية بحلب، وهو من أكبر أمراء نور الدين، ومعه العساكر، ولم يقدر على مدافعة سيف الدين فخر الدين عبد المسيح. وكان نور الدين تركه قبل موته بسيواس مع ذي النون بن الدانشمند. فلما مات نور الدين رجع إلى صاحبه سيف الدين غازي، وهو الذي كان ملكه فوجده بالجزيرةوقد ملكها فأشار عليه بالعبور إلى الشام. وعارضه آخر من أكبر الأمراء في ذلك فرجع سيف الدين إلى قوله، وعاد إلى الموصل وأرشد صلاح الدين إلى الملك الصالح وأهل دولته يعاتبهم حيث لم يستدعوه لمدافعة سيف الدين عن الجزيرة، ويتهدد ابن المقدم وأهل الدولة على إنفرادهم بأمر الملك الصالح دونه، وعلى قعودهم عن مدافعة سيف الدين غازي. ثم أرسل شمس الدين بن الداية إلى الملك الصالح يستدعيه من دمشق إلى حلب ليدافع شمس الدين ابن عمه قطب الدين عن الجزيرة فمنعه أمراؤه عن ذلك، مخافة أن يستولي عليه ابن الداية، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

حصار الإفرنج بانياس:

ولما مات نور الدين محمود اجتمع الإفرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق. وجمع شمس الدين بن المقدم العساكر،، وسار عن دمشق، وراسل الإفرنج وتهددهم بسيف الدين صاحب الموصل، وصلاح الدين صاحب مصر صالحوه على مال يبعثه إليهم. واشترى من الإفرنج

وأطلعهم، وتقررت الهدنة. وبلغ ذلك صلاح الدين فنكره واستعظمه، وكتب إلى المالح وأهل دولته بقبح مرتكبهم ويعدهم بغزوة الإفرنج، وقصده إنما هو طريقه إلى الشام ليتملك البلاد، وإنما صالح ابن المقدم الإفرنج خوفاً منه . ومن سيف الدين، والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على دمشق:

ولما كان ما ذكرناه من استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة، خاف شمس

الدين ابن الداية منه على حلب.. وكان سعد الدين كمستكين قد هرب من سيف الدين غازي إليه فأرسله إلى دمشق ليستدعي الملك الصالح للمدافعة. فلما قارب دمشق أنفذ ابن المقدم إليه عسكراً. فنهبوه وعاد إلى حلب. ثم رأى ابن المقدم وأهل الدولة بدمشق أن مسير الصالح إلى حلب أصلح فبعثوا إلى كمستكين وبعثوا معه الملك الصالح. فلما وصل إلى حلب قبض كمستكين على ابن الداية وإخوته، وعلى رئيس حلب ابن الخشاب، وعلى مقدم الأحداث بها. واستبد بأمر الصالح. وخشي ابن المقدم وأمراؤه بدمشق غائلته فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل أن يملكوه فأحجم عن المسير إليهم، وظنها مكيدة. وبعث بخبرهم إلى كمستكين، وصالحه على مال أخذه من البلاد فكثر إرتياب القوم في دمشق، فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب فسار إليهم ونكب عن الإفرنج في طريقه، وقصد بصرى وأطاعه صاحبها. ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج إليه أهل الدولة بمقدمهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وهو الذي كان أبوه سلم سنجار لنور الدين سنة أربع وأربعين كما مرّ، ودخل صلاح الدين دمشق آخر ربيع سنة سبعين ونزل دار أبيه المعروفة بدار العفيفي. وكان في القلعة ريحان خديم نور الدين فبعث إليه صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بأنه على طاعة الصالح، والخطبة له في بلاده، وأنه إنما جاء ليرتجع البلاد التي أخذت له فسلم إليه ريحان القلعة واستولى على ما فيها من الأموال، وهو في ذلك كله يظهر طاعة الملك الصالح، ويخطب له وينقش السكة باسمه إنتهى والله أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حمص وحماة ثم حصاره حلب ثم ملكه بعلبك:

ولما ملك صلاح الدين دمشق من أيالة الملك الصالح استخلف عليها أخاه سيف الإسلام طغركين بن أيوب، وكان حصن وحماة وقلعة مرعش وسليمة وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة

في إقطاع فخر الدين مسعود الزعفرانى من أمراء نور الدين، ما عدا القلاع منها. ولما مات نور الدين أجفل الزعفراني عنها لسوء سيرته. ولما ملك صلاح الدين دمشق سار إلى حمص فملك البلد، وامتنعت القلعة بالوالي الذي بها فجهز عسكراً لحصارها، وسار إلى حماة فنازلها منتصف شعبان، وبقلعتها الأمير خرديك فبعث إليه صلاح الدين بأنه في طاعة الملك الصالح ، وإنما جاء لمدافعة الإفرنج عنه، وإرتجاع بلاده بالجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل، واستخلفه على ذلك عز الدين. ثم بعثه صلاح الدين إلى الملك الصالح بحلب في الإتفاق ، وإطلاق شمس الدين علي حسن وعثمان تقي الدين من الإعتقال فسار عز الدين لذلك، واستخلف بالقلعة أخاه. ولما وصل إلى حلب قبض عليه كمستكين وحبسه فسلم أخوه قلعة حماة لصلاح الدين وملكها. ثم سار صلاح الدين من وقته إلى حلب وحاصرها، وركب الملك الصالح وهو صبي مناهز فسار في البلد واستعان بالناس، وذكر حقوق أبيه فبكى الناس رحمة له واستماتوا دونه، وخرجوا فدافعوا عسكر صلاح الدين. ودس كمستكين إلى مقدم الإسماعيلية في الفتك بصلاح الدين فبعث لذلك فداوية منهم. وشعر بذلك بعض أصحاب صلاح الدين وجماعة منهم معه، وقتلوا عن آخرهم وأقام صلاح الدين محاصراً لحلب، وبعث كمستكين إلى الإفرنج يستنجدهم على منازلة بلاد صلاح الدين ليرحل عنهم. وكان القمص سمند السنجيلي صاحب طرابلس أسره نور الدين في حارم سنة تسع وخمسين، وبقي معتقلا بحلب فأطلقه الآن كمستكين بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير، وكان متغلباً على ابن مري ملك الإفرنج لكونه محذوفاً لا يصدر إلا عن رأيه فسار بجموع الإفرنج إلى حصن الرستن سابع رجب وصالحهم صلاح الدين من الغد فأجفلوا، وحاصر هو القلعة وملكها آخر شعبان، واستولى على أكثر الشام. ثم سار إلى بعلبك، وبها يمن الخادم من موالي نور الدين فحاصرها، حتى استأمنوا إليه فملكها منتصف رمضان من السنة، وأقطعها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم بما تولى له من إظهار طاعته بدمشق وتسليمها له، والله تعالى أعلم.

حروب صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل وغلبه إياه واستيلاؤه على بغدوين، غيرها من أعمال الملك الصالح ثم مصالحته على حلب:

لما ملك صلاح الدين حمص وحماة، وحاصر حلب، كاتب الملك الصالح إسمعيل من حلب

إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجمع عساكره، واستنجد أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فلم يجبه لما كان بينه وبين صلاح الدين، وأنه ولاه سنجار، ويطمعه في الملك فبعث سيف الدين غازي بالعساكر لمدافعة صلاح الدين عن الشام في رمضان سنة سبعين وخمسمائة، مع أخيه عز الدين مسعود وأمير جيوش عز الدين القندار، وجعل التدبير إليه، وسار هو إلى سنجار فحاصر بها أخاه عماد الدين، وامتنع عليه. وبينما هو يحاصره جاءه الخبر بأن صلاح الدين هزم أخاه عز الدين وعساكره فصالح عماد الدين على سنجار، وعاد إلى الموصل. ثم جهز أخاه عز الدين في العساكر ثانية ومعه القندار. وساروا إلى حلب فانضمت إليهم عساكره، وساروا جميعاً إلى صلاح الدين فأرسل إلى عماد الدين بالموصل في الصلح بينه وبين الملك الصالح على أن يرد عليه حمص وحماة، ويسوغه الصالح دمشق فأبى إلا إرتجاع جميع بلاد الشام واقتصاره على مصر، فسار صلاح الدين إلى عساكرهم ولقيها قريباً من حماة، فانهزمت وثبت عز الدين قليلاً ثم صدق عليه صلاح الدين الحملة فانهزم وغنم سوادهم ومخلفهم، وأتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وحاصرها، وقطع خطبة الملك الصالح، وبعث بالخطبة للسلطان في جميع بلاده. ولما طال عليهم الحصار صالحوه على إقراره على جميع ما ملك من الشام. ورحل عن حلب عاشر شوال من السنة، وعاد إلى حماة. ثم سار منها إلى بغدوين، وكانت لفخر الدين مسعود بن الزعفراني من أمراء نور الدين، وكان قد إتصل بالسلطان صلاح الدين واستخدم له. ثم فارقه حيث لم يحصل على غرضه عنده فلحق ببغدوين، وبها نائب الزعفراني فحاصرها حتى استأمنوا إليه. وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وأقطع حمص ناصر الدين بن عمه شيركوه، وعاد إلى دمشق آخر سنة سبعين. وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد هزيمة أخيه وعساكره عاد من حصار أخيه بسنجار كما قلناه إلى الموصل، فجمع العساكر وفرق الأموال. واستنجد صاحب كيفا وصاحب ماردين، وسار في ستة آلاف فارس، وإنتهى إلى نصيبين في ربيع سنة إحدى وسبعين فأقام إلى إنسلاخ فصل الشتاء وسار إلى حلب فبرز إليه سعد الدين كمستكين الخادم مدبر الصالح

في عساكر حلب. وبعث صلاح الدين عن عساكره من مصر، وقد كان أذن لهم في الإنطلاق فجاؤا إليه. وسار من دمشق إلى سيف الدين وكمستكين فلقيهم بتل الفحول وانهزموا راجعين إلى حلب وترك سيف الدين أخاه عز الدين بها في جمع من العساكر، وعبر الفرات إلى الموصل بظن أن صلاح الدين في اتباعه. وشاور الصالح وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل إلى قلعة الحميدية

فعارضاه في ذلك. ثم عزل القندار عن إمارة الجيوش لأنه كان جرّ الهزيمة برأيه ومفارقته، وولى مكانه مجاهد الدين قايماز. ولما إنهزمت العساكر أمام صلاح الدين وغنم مخلفها سار إلى مراغة وملكها وولى عليها. ثم سار إلى منبج وبها صاحبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي، وكان شديد العداوة لصلاح الدين فملك المدينة، وحاصره بالقلعة وضيق مخنقه. ثم نقب أسواره وملكها عليه عنوة وأسره. ثم أطلقه سليباً فلحق بالموصل، وأقطعه سيف الدين الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة عزاز وهي في غاية المنعة فحاصرها أربعين يوماً حتى استأمنوا إليه فتسلمها في الأضحى. ثم رحل إلى حلب فحاصرها، وبها الملك الصالح، وأشتد أهلها في قتاله فعدل إلى المطاولة. ثم سعى بينهما في الصلح وعلى أن يدخل فيه سيف الدين صاحب الموصل وصاحب كيفا وصاحب ماردين فاستقر الأمر على ذلك، وخرجت أخت الملك الصالح إلى صلاح الدين فأكرمها، وأفاض عليها العطاء وطلبت منه قلعة عزاز فأعطاها إياها، ورحل إلى بلاد الإسماعيلية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب الموصل ورجوعه:

كان مجاهد الدين قايماز متولي مدينة اربل، وكان بينه وبين شهاب الدين محمد بدران صاحب شهرزور عداوة. فلما ولى سيف الدين مجاهد الدين قايماز نيابة الموصل خاف شهاب الدين غائلته عن تعاهد الخدمة بالموصل، وأظهر الامتناع، وذلك سنة اثنتين وسبعين فخاطبه جلال الدين الوزير في ذلك مخاطبة بليغة، وحذره ورغبه فعاود الطاعة وبادر إلى الحضور بالموصل، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نكبة كمستكين الخادم ومقتله:

كان سعد الدين كمستكين الخادم قائما بدولة الملك الصالح في حلب وكان يناهضه فيها أبو صالح العجمي فقدم عند نور الدين وعند ابن الملك الصالح، وتجاوز مراتب الوزير فعدا عليه بعض الباطنية فقتله، وخلا الجو لكمستكين، وانفرد بالاستبداد على الصالح وكثرت السعاية فيه بحجر

السلطان والاستبداد عليه وأنه قتل وزيره فقبض عليه وامتحنه. وكان قد أقطعه قلعة حارم فامتنع بها أصحابه، وأرادهم الصالح تسليمها فامتنعوا، وهلك

كمستكين في المحنة. وطمع فيها وساروا إليها وحاصروا وصانعهم الصالح بالمال فرجعوا عنها، وبعث هو عساكره إليها وقد جهدهم الحصار فسلموها له، وولى عليها، والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح إسمعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين مسعود على حلب:

ثم توفي الملك الصالح إسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب في منتصف

سنة سبع وسبعين لثمان سنين من ولايته، وعهد بملكه لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل. واستحلف أهل دولته على ذلك بعضهم بعماد الدين صاحب سنجار أخي عز الدين الأكبر لمكان صهره على أخت الصالح، وأن أباه نور الدين كان يميل إليه فأبى. وقال عز الدين : أنا أقدر على مدافعة صلاح الدين عن حلب. فلما قضى نحبه أرسل الأمراء بحلب إلى عز الدين مسعود يستدعونه هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، ولقي هنالك أمراء حلب، وجاؤا معه فدخلها آخر شعبان من السنة، وصلاح الدين يومئذ بمصر بعيدا عنهم وتقي الدين عمر ابن أخيه في منبج، فلما أحسن بهم فارقها إلى حماة، وثار به أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين. وأشار أهل حلب عليه بقصد دمشق وبلاد الشام وأطمعوه فيها فأبى من أجل العهد الذي بينه وبين صلاح الدين ثم أقام بحلب شهورا وسار عنها إلى الرقة، والله تعالى أعلم.

استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن سنجار لأخيه عز الدين:

ولما انتهى عز الدين إلى الرقة منقلبا من حلب، وافقه هنالك رسل أخيه عماد

الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يملكه مدينة سنجار، وينزل هو له عن حلب فلم يجبه إلى ذلك. فبعث عماد الدين إليه بأنه يسلم سنجار إلى صلاح الدين فحمل الأمراء حينئذ على معارضته على سنجار وتحمسهم له. ولم يكن لعز الدين مخالفا لتمكنه في الدولة وكثرة بلاده وعساكره فأخذ

سنجار من أخيه عماد الدين، وأعطاه حلب، وسار إليها عماد الدين وملكها. وسهل أمره على صلاح الدين بعد ان كان متخوّفا من عز الدين على دمشق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة وحصاره الموصل واستيلاؤه على كثير من بلادها ثم على سنجار:

كان عز الدين صاحب الموصل قد أقطع مظفر الدين كوكبري زين الدين كجك مدينة حران وقلعتها. ولما سار صلاح الدين لحصار البيرة جنح إليه مظفر الدين، ووعده النصر، واستحثه للقدوم على الجزيرة فسار إلى الفرات موريا بقصد وعبر إليه مظفر الدين فلقيه، وجاء معه إلى البيرة، وهي قلعة منيعة على الفرات من عدوة الجزيرة. وكان صاحبها من بني أرتق أهل ماردين قد أطاع صلاح الدين فعبر من جسرها وعز الدين صاحب الموصل يومئذ قد سار ومعه مجاهد الدين إلى نصيبين لمدافعة صلاح الدين عن حلب. فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وبعثا حامية إلى الرها. وكاتب صلاح الدين ملوك النواحي بالنجدة والوعد على ذلك. وكان تقدم العهد بينه وبين نور الدين محمد بن قرى ارسلان صاحب كيفا على أن صلاح الدين يفتح آمد ويسلمها إليه. فلما كاتبهم الآن كان صاحب كيفا أول مجيب، وسار صلاح الدين إلى الرها فحاصرها في جمادى سنة ثمان وسبعين، وبها يومئذ فخر الدين مسعود الزعفراني فلما اشتد به الحصار استأمن إلى صلاح الدين، وحاصر معه القلعة حتى سلمها نائبها على مال أخذه، وأقطعها صلاح الدين مظفر الدين كوكبري صاحب حران. وسار عنها إلى الرقة، وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي فأجفل عنها إلى الموصل، وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور وهو قرقيسيا وماكسين وعرمان فاستولى على جميعها. وسار إلى نصيبين فملكها لوقتها، وحاصر القلعة أياما وملكها، وأقطعها أبا الهيجاء السمين من أكبر أمرائه. وسار عنها وملكها، ومعه صاحب كيفا. وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق ووصلوا داريا فلم يحفل بخبرهم، واستمر على شأنه وأغراه مظهر الدين كوكبري وناصر الدين محمد بن شيركوه بالموصل، ورجحا قصدها على سنجار وجزيرة ابن عمر كما أشار عليهما فسار صلاح الدين وصاحبها عز الدين، ونائبه مجاهد الدين، وقد جمعوا العساكر وأفاضوا العطاء وشحنوا البلاد التي بايديهم كالجزيرة وسنجار والموصل واربل، وسار صلاح الدين

حتى قاربها وسار هو ومظفر الدين وابن شيركوه في أعيان دولته إلى السور فرآه مخايل الامتناع. وقال لمظفر الدين ولناصر الدين ابن عمه قد

أغررتماني. ثم صبح البلد وناشبه وركب أصحابه في المقاعد للقتال. ونصب منجنيقا فلم يغن ونصب إليه من البلد تسعة. ثم خرج إليه جماعة من البلد وأخذوه وكانوا يخرجون ليلاً من البلد بالمشاعل يوهمون الحركة. فخشي صلاح الدين من البيات وتأخر عن القصد، وكان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل من قبل الخليفة الناصر مع بشير الخادم من خواصة، في الصلح بين الفريقين على اعادة صلاح الدين بلاد الجزيرة فأجاب على إعادة الآخرين حلب فامتنعوا. ثم رجع عن شرط حلب إلى ترك مظاهرة صاحبها فاعتذروا عن ذلك، ووصلت رسل صاحب أذربيجان قرا ارسلان. وأرسل صاحب خلاط شاهرين فلم ينتظم بينهما أمر، ورحل صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار فحاصرها، وبها أمير أميران وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عساكر، ولقيه شرف الدين وجاءها المدد من الموصل فحال بينهم وبينها، وداخله بعض أمراء الأكراد من الدوادية من في داخلها فكبسها صلاح الدين ولحق بالموصل. وملك صلاح الدين سنجار وصارت سياجا على جميع ما ملكه بالجزيرة. وولى عليها سعد الدين ابن معين الدين أنز الذي كان متغلبا بدمشق على آخر طغركين وعاد فمرّ بنصيبين وشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله وسار إلى حران بلدة مظفر الدين كوكبري فوصلها في القلعة من سنة سبع وثمانين فأراح بها، وأذن لعساكره في الإنطلاق وكان عز الدين قد بعث إلى شاهرين صاحب خلاط يستنجده. وأرسل شاهرين إلى صلاح الدين بالشفاعة في ذلك رسلاً عديدة آخرهم مولاه سكرجاه، وهو على سنجار، فلم يشفعه أخاه من ذلك وفارقه مغاضباً. وسار شاهرين إلى قطب الدين صاحب ماردين وهو ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته فاستنجده، وسارمعه، وجاءهم عز الدين من الموصل في عساكره، واعتزموا على قصد صلاح الدين وبلغه الخبر وهو مريح بحران فبعث عن تقي الدين ابن أخيه صاحب حمص وحماة، وارتحل للقائهم ونزل رأس عين، فخاموا عن لقائه، ولحق كل

ببلده، وسار صلاح الدين إلى ماردين فأقام عليها أياما ورجع، والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها:

ولما ارتحل صلاح الدين عن ماردين قصد آمد فحاصرها سنة تسع وسبعين، وملكها وسلمها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان كما كان العهد بينهما، وقد أشرنا إليه. ثم سار إلى الشام فحاصر تل خالد من أعمال حلب حتى استأمنوا إليه، وملكها في محرم سنة تسع وسبعين وسار منها إلى عينتاب، وبها ناصر الدين أخوه الشيخ إسمعيل خازن نور الدين محمود وصاحبه، ولاه عليها نور الدين فلم يزل بها فاستأمن إلى صلاح الدين على أن يقره على الحصن، ويكون في خدمته فأقره وأعلمه. ورحل صلاح الدين إلى حلب وبها عماد الدين زنكي بن مودود، ونزل عليها بالميلان الأخضر أياما. ثم انتقل إلى جبل جوشن أياما أخرى، وأظهر أنه أبنى عليها، أوعجز عماد الدين عن عطاء الجند فراسل صلاح الدين أن يعوضه عنها سنجار ونصيبين . والخابور والرقة وسروج فأجاب إلى ذلك، وأعطاه عنها تلك البلاد وملكها، وكان في شرط صلاح الدين عليه أنه يبادر إلى الخدمة متى دعاه إليها. وسار عماد الدين إلى بلاده تلك، ودخل صلاح الدين حلب في آخر سنة تسع وسبعين. ومات عليها أخوه الأصغر تاج الملوك يوري بضربة في ركبته تصدعت لها، ومات بعد فتح حلب. ثم ارتحل صلاح الدين إلى قلعة حارم وبها سرجك من موالي نور الدين، ولاه عليها عماد الدين. فلما سلم حلب لصلاح الدين امتنع سرجك في قلعة حارم فحاصره صلاح الدين وترددت الرسل بينهما، وقد دس إلى الإفرنج ودعاهم. وخشي الجند الذين معه أن يسلمها إليهم فحبسوه، واستأمنوا إلى صلاح الدين فملكها وولى عليها بعض خواصه، وعلى تل خالد الأمير داروم الباروقي صاحب تل باشر، وأقطع قلعة إعزاز الأمير سليمان بن جندر فعمرها بعد ان كان عماد الدين خربها، وأقطع صلاح الدين أعمال حلب لأمرائه وعساكره، والله تعالى أعلم.

نكبة مجاهد الدين قايمان:

كان مجاهد الدين قايمان قائما بدولة الموصل ومتحكما فيها كما قلناه وكان عز

الدين محمود الملقب بالقندار صاحب الجيش، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان صاحب

العراق. كانا من أكابر الأمراء عند السلطان عز الدين مسعود صاحب الموصل، وكانا يغريانه بمجاهد الدين ويكثران السعاية عنده فيه، حتى اعتزم على نكبته، ولم يقدر على ذلك في مجلسه لاستبداد مجاهد الدين وقوة شوكته. فانقطع في بيته لعارض مرض، وكان مجاهد الدين خصياً لا يحتجب منه النساء فدخل عليه يعوده فقبض عليه، وركب إلى القلعة فاحتوى على أمواله وذخائره. وولى بها القندار نائبا، وجعل ابن صاحب العراق أمير حاجباً، وحكمهما في دولته. وكان في يد مجاهد الدين اربل وأعمالها فيها زين الدين يوسف ابن زين الدين علي كجك صبياً صغيراً تحت استبداده وبيده أيضاً جزيرة ابن عمر لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي، وهو صبي تحت استبداده. وبيده أيضاً شهرزور وأعمالها ودقوقا وقلعة عقر الحميدية، ونوابه في جميعها ولم يكن لعز الدين مسعود بعد استيلاء صلاح الدين على الجزيرة سوى الموصل وقلعتها لمجاهد الدين، وهو الملك في الحقيقة فلما قبض عز الدين عليه امتنع صاحب اربل، واستبد بنفسه، وكان صاحب جزيرة ابن عمر، وبعث بطاعته إلى صلاح الدين. وبعث الخليفة الناصر شيخ الشيوخ، وبشير الخادم بالصلح بين عز الدين وصلاح الدين على أن تكون الجزيرة واربل من أعماله، وامتنع عز الدين وقال: هما من أعمالي. وطمع صلاح الدين في الموصل فتنكر عز الدين لزلقندار ولابن صاحب العراق، لما حملاه عليه من الفساد لنكية مجاهد الدين فبدأ أولا بعزل صاحب أذربيجان فقال له: أنا أكفله وجهز له عسكراً ونحو ثلاثة آلاف فارس. وساروا نحو اربل فاكتسحوا البلد وخربوها، وسار إليهم زين الدين يوسف باربل فوجدهم مفترقين في النهب فهزمهم ومن كان معهم وعاد مظفرا، ولحق العجم ببلادهم. وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين صاحبها:

ثم سار صلاح الدين من دمشق في ذي القعدة سنة إحدى وثمانين، فلما انتهى إلى حران قبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري لأنه كان لذلك وعده بخمسين ألف دينار، حتى إذا وصل لم يف له بها فقبض عليه لانحراف

أهل الجزيرة عنه، فأطلقه ورد عليه عمله بحران والرها. وسار عن حران، وجاء معه عساكر كيفا وداري، وعساكر جزيرة ابن عمر مع صاحبها معز الدين سنجر شاه ابن أخي معز الدين صاحب الموصل، وقد استبد بأمره، وفارق طاعة عمه بعد نكبة مجاهد الدين كما قلنا، فساروا مع صلاح الدين إلى الموصل ولما انتهوا إلى مدينة

بله وفدت عليه أم عز الدين، وابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة ظنا بأنه لا يردهم وأشار عليه الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهم، ورحل إلى الموصل فقاتلها وامتنعت عليه، وندم على رد الوفد، وجاءه كتاب القاضي الفاضل باللائمة. ثم قدم عليه زين الدين يوسف صاحب اربل فأنزله مع أخيه مظفر الدين كوكبري وغيره من الأمراء. ثم بعث الأمير علي بن أحمد المشطوب إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فاجتمع عليه الأكراد الهكارية وأقام يحاصرها، وكاتب نائب القلعة القندار. ونمي خبر مكاتبته إلى عز الدين فمنعه واطرحه من المشورة، وعدل إلى مجاهد الدين قايماز، وكان يقتدي برأيه فضبط الأمور وأصلحها. ثم بلغه في آخر ربيع من سنة اثنين وثمانين، وقد ضجر من حصار الموصل ان شاهرين صاحب خلاط توفي تاسع ربيع، واستولى عليها مولاه بكتمر فرحل عن الموصل، وملك ميافارقين كما يأتي في أخبار دولته ولما فرغ منها عاد إلى الموصل، ومر بنصيبين، ونزل الموصل في رمضان سنة اثنتين وثمانين، وترددت الرسل بينهما في الصلح، على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الفرائلي وما وراء الزاب، ويخطب له على منابرها، وينقش اسمه على سكته. ومرض صلاح الدين أثناء ذلك ووصل إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى الصلح وتحالفا عليه، وبعث من يسلم البلاد وأقام ممرضا بحران، عند أخوه العادل وناصر الدولة ابن عمه شيركوه، وامنت بلاد الموصل. ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين التركمان والأكراد بالجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها ما لا يحصى من الأمم، واتصلت أعواما وسببها أن عروسا من التركمان أهديت إلى زوجها، ومروا بقلعة الزوزان والاكراد، وطلبوا منهم الوليمة على عادة الفتيان فأغلظوا في الرد فقتل صاحب القلعة الزوج، وثار التركمان بجماعة من الأكراد فقتلوهم. ثم أصلح مجاهد الدين بينهم وأفاض فيهم العطاء فعادوا إلى الوفاق، وذهبت بينهم الفتنة، والله تعالى أعلم.

وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل وولاية أخيه مظفر الدين اقتهى:

كان زين الدين يوسف بن علي كجك قد صار في طاعة صلاح الدين كما ذكرناه قبل، وإربل من أعماله. ووقع الصلح على ذلك بينه وبين عز الدين صاحب الموصل سنة ست وثمانين

للعسكر معه فمات عنده أخريات رمضان من السنة واستولى أخوه على موجوده وقبض على جماعة من أمرائه مثل بلداحي صاحب قلعة حقبير كان وغيره، وطلب من صلاح الدين أن يقطعه اربل مكان أخيه، وينزل عن حران والرها فأقطعه اربل، وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودوقبر قرابلي وبني قفجاق وراسل أهل اربل مجاهد الدين قايماز واستدعوه لمجلكوه، وهو بالموصل فلم يتطاول لذلك خوفا من صلاح الدين. ولان عز الدين لما كان ولاه نيابته بعد ان أطلقه من الاعتقال لم يمكنه كما كان أول مرة، وجعل معه رديفا في الحكم كان من بعض غلمانه، فكان أسفا لذلك. فلما راسله أهل اربل قال: والله لا أفعل لئلا يحكم معي فيها فلان، وسار مظفر الدين إليها وملكها.

حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر:

كان سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود قد ملك جزيرة ابن عمر بوصية

أبيه، وخرج عن طاعة عمه عز الدين عند نكبة مجاهد الدين كما قلناه، وصار عيناً على عمه يكاتب صلاح الدين بأخباره ويغريه به ويسعى في القطيعة بينهما. ثم حاصر صلاح الدين قلعة عكا سنة ست وثمانين، واستنفر لها أصحاب الأطراف المتشبثين بدعوته مثل عز الدين صاحب الموصل، وأخيه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين وسنجار شاه هذا ابن عمه وصاحب كيفا وغيرهم. واجتمعوا عنده على عكا، وجاء جماعة من جزيرة ابن عمر يتظلمون من سنجر شاه فخاف واستأذن في الانطلاق، فاعتذر صلاح الدين بأن في ذلك افتراق هذه العساكر فألح عليه في ذلك، وغدا عليه يوم الفطر مسلما فوعده وانصرف وكان تقي الدين عمر بن شاه أخي صلاح الدين مقبلا من حماة في عسكر فأرسل إليه صلاح الدين باعتراضه، ورده طوعا أو كرها فلقيه بقلعة فنك ورده كرها وكتب صلاح الدين إلى عز الدين صاحب الموصل بحصار جزيرة ابن عمر يظنها مكيدة فتلقاها بالمراجعة، وطلب إقطاع الجزيرة فأسعفه، وسار إليها وحاصرها أربعة أشهر فامتنعت عليه. ثم صالحه على نصف أعماله، ورجع إلى الموصل، والله تعالى أعلم.

مسيرة عز الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة ورجوعه عنها:

كان صلاح الدين قد ملك من بلاد الجزيرة حران والرها وسميساط وميافارقين،

وكانت بيد

ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاه. ثم توفي تقي الدين فأقطعها أخاه العادل أبا بكر بن أيوب. ثم توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فطمع عز الدين صاحب الموصل في ارتجاعها، واستشار أصحابه فأشار عليه بعضهم بمعاجلتها وأن تستنفر أصحاب الأطراف لها مثل: صاحب اربل، وصاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب سنجار ونصيبين. ومن امتنع يعاجله حربا ويعاجل البلد قبل أن يستعد أهلها للمدافعة. وأشار مجاهد الدين قايمان بمشاورة هؤلاء الملوك والعمل بإشارتهم فقبل من مجاهد الدين وكاتبهم فأشاروا بانتظار أولاد صلاح الدين، وأن البلد في طاعته، وأنه القائم بدولته، وأنه بلغه أن صاحب ماردين تعرض لبعض بلاده فجهز جيشاً كثيفا لقصد ماردين فوجموا الكتابة وتركوا الحركة. ثم بلغهم أنه بظاهر حران في خف من العسكر فتجهز للحركة عليه. ولما وقع الاتفاق مع سنجار جاءت عساكر الشام إلى العادل من الأفضل، فامتنع وسار عز الدين في عساكره من الموصل إلى نصيبين، واجتمع بأخيه عماد الدين، وساروا إلى الرها، وقد عسكر العادل قريبا منهم بمرج الريحان، وخافهم فأقاموا أياما كذلك. ثم طرق عز الدين المرض فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وساروا إلى الموصل، والله أعلم.

وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه نور الدين:

ولما رجع عز الدين إلى الموصل أقام بها مدّة شهرين، واشتد مرضه فتوفي آخر

شعبان سنة تسع وثمانين، وولى ابنه نور الدين ارسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن الاتابك زنكي، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايمان مدبر دولة أبيه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة عماد الدين صاحب سنجار وولاية قطب الدين:

ثم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن الاتابك زنكي، صاحب سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج، وهي التي عوضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه. توفي في محرم سنة أربع وتسعين، وملك بعده ابنه قطب

الدين، وتولى تدبير دولته مجاهد برتقش مولى أبيه. وكان دينا خيراً عادلاً متواضعاً محباً لأهل العلم والدين معظما لهم، وكان متعصبا على الشافعية، حتى انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وكان حسن السيرة، والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين صاحب الموصل على نصيبين:

كان عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين، قد امتدت أيدي نوابه بنصيبين إلى قرى

من أعمال الموصل تجاورهم، وبعث إليه في ذلك مجاهد الدين قايمان صاحب دولة الموصل يشكو إليه نوابه سراً من سلطانه نور الدين، فلج عماد الدين في ادعاء انها من أعماله، وأساء الرد فأعاد نور الدين الرسالة إليه مع بعض مشايخ دولته، وقد طرقه المرض فأجاب مثل الأول فنصح الرسول، وكان من بقية الاتابك زنكي. وعاد إلى فأغلظ له في القول، واعتزم نور الدين على المسير إلى نصيبين، ووصل الخبر اثر ذلك بوفاة عماد الدين، وولاية ابنه قطب الدين فقوي طمع نور الدين في نصيبين، وتجهز لها في جمادي سنة أربع وتسعين. وسار قطب الدين بن سنجر في عسكره فسبقه نور الديني إلى نصيبين. فلما وصل لقيه فهزمه نور الدين، ودخل إلى قلعة نصيبين مهزوماً ثم أسرى منها إلى حران، ومعه نائبه مجاهد الدين برتقش، وكاتبوا العادل أبا بكر بن أيوب يستحثونه من دمشق. وأقام نور الدين بنصيبين حتى وصل العادل إلى الجزيرة ففارقها إلى الموصل في رمضان من السنة. وعاد قطب الدين إليها. وكان الموتان قد وقع في عسكر نور الدين فمات كثير من أمراء الموصل. ومات مجاهد الدين قايمان القائم بالدولة. ولما عاد نور الدين إلى الموصل، وعاد قطب الدين إلى نصيبين سار العادل إلى ماردين فحاصرها أياما وضيق عليها ثم انصرف، والله تعالى أعلم.

هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة:

لما رحل العادل عن ماردين كما قدمناه جر العساكر عليها للحصار مع ابنه الكامل، وعظم ذلك على ملوك الجزيرة وديار بكر، وخافوا ان ملكها يغلبهم على أمرهم، ولم يكن سار من سار معه منهم عند اشتغاله بحرب نور الدين إلا تقية لكثرة عساكره. فلما رجع إلى دمشق، وبقي الكامل على

ماردين استهانوا بأمره، وطمعوا في مدافعته. وأغراهم بذلك الظاهر والأفضل ابنا

صلاح الدين لفتنتهم مع عمهم العادل. فتجهز نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل، وسار أول شعبان سنة خمس وتسعين، وانتهى إلى دبيس فأقام بها، ولحق به ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار، وابن عمه الآخر سنجار شاه ابن غازي صاحب جزيرة ابن عمر، حتى إذا انقضى عيد الفطر ارتحلوا وتقدموا إلى مزاحمة الكامل على ماردين. وكان أهل ماردين خلال ذلك قد ضاق مخنقهم وجهدهم الحصار وبعث النظام المستولي على دولة صاحبها إلى الكامل يراوده في الصلح، وتسليم القلعة له إلى أجل سماه على أن يبيح لهم بقوتهم من الميرة فأسعفهم بذلك وبينما هم في ذلك جاءهم خبر العساكر فامتنعوا، وزحف الكامل مهزوما إلى معسكره بالربض فخرج أهل القلعة إليهم وقاتلوهم إلى المساء ثم أجفل الكامل من ليلته منتصف شوال، وعاد إلى بلاده ونهب أهل القلعة مخلفه، وخرج صاحب ماردين وهو بولو ارسلان ابن أبي الغازي فلقي نور الدين وشكره، وعاد إلى حصنه، ورجع نور الدين وأصحابه إلى تستر. ثم سار منها إلى رأس عين فقدم عليها هنالك رسول الظاهر بن صلاح الدين من حلب يطلب له منه السكة والخطبة، فوجم لذلك وثنى عزمه عن مظاهرتهم. ثم طرقه المرض فبعث إليهم بالعذر، وعاد إلى الموصل في ذي الحجة آخر السنة، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة:

ثم ان الملك العادل ملك مصر سنة ست وتسعين من يد الأفضل ابن أخيه، فخشيه الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين، وراسلوا نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق، وأن يسير إلى بلاد العادل بالجزيرة: حران والرها والرقة وسنجار، فسار نور الدين لملكها في شعبان سنة سبع وتسعين. وسار معه ابن عمه قطب الدين سنجار، وحسام الدين صاحب ماردين، وانتهوا إلى رأس العين، وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر فأرسل إلى نور الدين في الصلح فبادر إلى الإجابة لما وقع في عسكره من

الموتان، واستحلف وحلف لهم. وبعثوا إلى العادل فحلف وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة، والله تعالى أعلم.

هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام عسكر العادل:

لم يزل الملك العادل يراسل قطب الدين صاحب سنجار، ويستميله إلى أن خطب له في أعماله سنة ستمائة فسار نور الدين صاحب الموصل إلى نصيبين من أعمال قطب الدين فحاصرها

وملك المدينة. وأقام يحاصر القلعة فبينما هو قد قارب فتحها بلغه الخبر من نائبه بالموصل بأن مظفر الدين كوكبري صاحب اربل من أعمال الموصل فرحل عن نصيبين معتزما على قصد اربل فلم يجد كل الخبر صحيحا فسار إلى تل اعفر من أعمال سنجار فحاصرها وملكها. وكان الأشرف موسى بن العادل قد سار من حران إلى رأس العين نجدة لصاحب سنجار. وقد اتفق معه على ذلك مظفر الدين صاحب اربل وصاحب كيفا وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر، وتراسلوا وتواعدوا للاجتماع. فلما ارتحل نور الدين عن نصيبين اجتمعوا عليها، وجاءهم أخو الأشرف نجم الدين صاحب ميافارقين وساروا إلى البقعا من تل اعفر إلى كفررقان. وقصده المطاولة حتى جاءه بعض عيونه فقللهم في عينه وأطمعه فيهم، وكان من مواليه فوثق بقوله ورحل إلى نوشري قريبا منهم. وتراءى الجمعان فالتقوا، وانهزم نور الدين ونجا في فل قليل، ونزلت العساكر كفررقان ونهبوا مدينة فيد، وما إليها، وأقاموا هنالك. وترددت الرسل في الصلح على أن يعيد نور الدين تل اعفر لقطب الدين صاحب سنجار فأعادها، واصطلحوا سنة إحدى وستمائة، ورجع كل إلى بلده. والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه محمود بعده:

كان سنجر شاه بن غازي بن مودود بن الاتابك زنكي صاحب جزيرة ابن عمر وأعمالها أوصى له بها أبوه عند وفاته كما مرّ وكان سيء السيرة غشوما ظلوما مرهف الحد على رعيته وجنده وحرمه وولده، كثير القهر لهم والانتقام منهم فاقد الشفقة على بنيه حتى غرب ابنيه محمودا ومودودا إلى قلعة فرج من بلاد الزوزان، لتوهم توهمه فيهما. وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة ووكل به فساءت حاله. وكانت الدار كثيرة الخشاش فضجر من حاله وتناول حية وبعثها إلى أبيه فلم يعطف عليه، فتسلل من الدار واستخفى في المدينة وبعث إلى نور الدين صاحب الموصل من أوهمه بوصوله إليه فبعث إليه بنفقة وردة خوفا من أبيه وترك أبوه طلبه لما

شاع انه بالشام فلم يزل غازي يعمل الحيلة حتى دخل دار أبيه، واختفى عند بعض حظاياه ، وطرق عليه الخلاء في بعض الليالي وهو سكران فطعنه أربع عشرة طعنة. ثم ذبحه وأقام مع الحرم. وعلم استاذ الدولة من خارج بالخبر فأحضر أعيان الدولة، وأغلق أبواب القصر، وبايع الناس لمحمود بن سنجر شاه واستدعاه وأخاه مودودا من قلعة فرج. ثم دخلوا إلى غازي وقتلوه. ووصل محمود فملكوه ولقبوه معن الدين لقب أبيه، وعمد إلى الجواري التي واطأت على قتل ابيه فغرّقهنّ في الدجلة، والله تعالى أعلم.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من أعمال صاحب سنجار وحصاره اياه:

كان بين قطب الدين محمود بن زنكي بن مودود، وبين ابن عمه نور الدين ارسلان

شاه، بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة، قد مرّ كثير من أخبارها. ولما كانت سنة خمس وستمائة أصهر العادل بن أيوب صاحب مصر والشام إلى نور الدين في ابنته، فزوجها نور الدين من ابنه واستكثر به، وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة ابن عمر فأغرى العادل بأن يظاهره على ولاية ابن عمه قطب الدين سنجر، وتكون ولاية قطب الدين وهي: سنجار ونصيبين والخابور للعادل. وتكون ولاية غازي بن سنجر شاه لنور الدين صاحب الموصل فأجاب إلى ذلك العادل، وأطمع نور الدين في أنه يقطع ولاية قطب الدين إذا ملكها لابنه الذي هو صهره على ابنته، وتحالفا على ذلك. وسار العادل سنة ست وستمائة من دمشق لملك الخابور. وراجع نور الدين رأيه فاذا هو قد تورط، وانه يملك البلاد كما يحب دونه إن وفى له. وسار نور الدين إلى الجزيرة فربما حال بنو العادل بينه وبين الموصل، وان انتقض نور الدين عليه سار إليه فاضطرب في أمره، وملك العادل الخابور ونصيبين. واعتزم قطب الدين على أن يعتاض منه عن سنجار ببعض البلاد فمنعه من ذلك أحمد بن برتقش مولى أبيه، وجهز نور الدين عسكراً مع ابنه القاهر مدداً للعادل كما اتفقا عليه. وفي خلال ذلك بعث قطب الدين سنجر

ابنه إلى مظفر الدين صاحب اربل يستنجده فأرسل إلن العادل شافعا في أمره، فلم يشفعه لمظاهرة نور الدين إياه فغضب مظفر الدين وأرسل إلى نور الدين في المساعدة على دفاع العدو فأجاب نور الدين إلى ذلك، ورجع عن مظاهرة العادل. وأرسل هو ومظفر الدين إلى الطاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والي كسنجر بن قليج ارسلان صاحب الروم يستنجدانهما فأجاباهما وتداعوا إلى قصد بلاد العادل إن لم يرحل عن سنجار. وبعث الخليفة

الناصر أستاذ الدار أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك ة والأمير اقناش من خواص مواليه في الافراج عن سنجار، وتخاذل أصحابه عن مضايقة سنجار معه، وسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه جاهر بخلافة في ذلك فأجاب العادل في الصلح، على أن تكون نصيبين والخابور اللذان ملكهما له، وتبقى سنجار لقطب الدين، وتحالفوا على ذلك، ورجع العادل إلى حران، ومظفر الدين إلى اربل، والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهر:

ثم توفي نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الاتابك زنكي منتصف سنة

سبع وستمائة لثمان عشرة سنة من ولايته، وكان شهما شجاعا مهيبا عند أصحابه حسن السياسة لرعيته. وجدد ملك آبائه بعد أن أشفى على الذهاب. ولما احتضر عهد بالملك لابنه عز الدين مسعود، وهو ابن عشرين سنة، وأوصاه أن يتولى تدبير ملكه مولاه بدر الدين لؤلؤ لما فيه من حسن السياسة. وكان قائما بأمره منذ توفي مجاهد الدين قايمان وأوصى لولده الأصغر عماد الدين بقلعة عقر الحميدية، وقلعة شوش وولايتها، ولفته إلى العقر. فلما توفي نور الدين بايع الناس ابنه عز الدين مسعودا ولقبوه القاهر، واستقر ملك الموصل. وأعمالها له، وقام بدر الدين لؤلؤ بتدبير دولته، والبقاء لله وحده.

وفاة القاهر وولاية ابنه نور الدين ارسلان شاه في كفالة بدر الدين لؤلؤ :

لما توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الاتابك زكي صاحب الموصل، آخر ربيع الأول سنة خمس عشرة وخمسمائة لثمان سنين من ولايته بعد أن عهد بالملك لابنه الأكبر نور الدين ارسلان شاه، وعمره عشرون سنة، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته لؤلؤا كما كان في دولة القاهر، وابنه نور الدين فبايع له وقام بملكه. وأرسل إلى الخليفة في التقليد والخلع على العادة فوصلت، وبعث إلى الملوك في الأطراف في تجديد العهد كما كان بينهم وبين سلفه وضبط

أمور. وكان عمه نور الدين زنكي ارسلان شاه بقلعة عقر الحميدية لا يشك في مصير السلطان له فدفعه عن ذلك، واستقامت أموره وأحسن السيرة،

وسمع شكوى المتظلمين وأنصفهم، ووصل في تقليد الخليفة لنور الدين اسناد التتر في أموره لبدر الدين لؤلؤ والله أعلم.

استيلاء عماد الدين صاحب عقر علي قلاع الهكارية والزوزان:

كان عماد الدين زنكي قد ولاه أبوه قلعتي العقر والشوش قريبا من الموصل، وأوصى له بهما وعهد بالملك لابنه الأكبر القاهر. فلما توفي القاهر كما ذكرنا طمح زنكي إلى الملك، وكان يحدث به نفسه فلم يحصل له. وكان بالعمادية نائب من موالي جده مسعود فداخله في الطاعة له. وشعر بذلك بدر الدين لؤلؤ فعزل ذلك النائب، وبعث إليها أميراً أنزله بها وجعل فيها نائبا من قبله. واستبد بالنواب في غيرها. وكان نور الدين بن القاهر لا يزال عليلا لضعف مزاجه وتوالي الأمراض عليه فبقي محتجبا طول المدة. فأرسل زنكي إلى نور الدين بالعمادية يشيع موته، ويقول: أنا أحق بملك سلفي فتوهموا صدقه، وقبضوا على نائب لؤلؤ ومن معه، وسلموا البلد لعماد الدين زنكي منتصف رمضان سنة خمس عشرة. وجهز لؤلؤ العساكر وحاصروه بالعمادية في فصل الشتاء وكلب البرد وتراكم الثلج،

ولم يتمكنوا من قتاله. وظاهره مظفر الدين صاحب اربل على شأنه، وذكر لؤلؤا بالعهد الذي بينهما ان لا يتعرض لأعمال الموصل، والنص فيها على قلاع الهكارية والزوزان وأنه مظاهر لهم على من يتعرض لها فلج في مظاهرته، واعتمد نقض العهد وأقام العسكر محاصرا لزنكي بالعمادية. وتقدموا بعض الليالي وركبوا الأوعار إليه فبرز إليهم أهل العمادية، وهزموهم في المضايق والشعاب فعادوا إلى الموصل، وأرسل عماد الدين قلاع الهكارية والزوزان ني الطاعة له نأجابوه، وملكها وولى عليها، والله أعلم.

مظاهرة الأشرف بن العادل ل لؤلؤ صاحب الموصل:

ولما استولى عماد الدين زنكي على قلاع الهكارية والزوزان، وظاهره مظفر الدين صاحب اربل خاف لؤلؤ عائلته فبعث بطاعته إلى الأشرف

موسى بن العادل، وقد ملك أكثر بلاد الجزيرة وخلاط وأعمالها، وش!أله المعاضدة فأجابه. وكان يومئذ يجلب في مدافعة كيكاوس صاحب

بلاد الروم من أعمالها فأرسل إلى مظفر الدين بالنكير عليه فيما فعل من نقضه العهد الذي كان بينهم جميعا كما مر، ويعزم عليه في إعادة ما أخذ من بلاد الموصل، ويتوعده إن أصر على مظاهرة زنكي بقصد بلاده فلم يجب مظفر الدين إلى ذلك، واستألف على أمره صاحب ماردين وناصر الدين محمودا صاحب كيفا وآمد فوافقوه، وفارقوا طاعة الأشرف في ذلك فبعث الأشرف عساكره إلى نصيبين لانجاد لؤلؤ متى احتاج إليه، والله تعالى أعلم.

واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين:

ولما عاد عسكر الموصل عن حصار العمادية، خرج زنكي إلى قلعة العقر ليتمكن

من أعمال الموصل الصحراوية إذ كان قد فرغ من أعمالها الجبلية، وأمده مظفر الدين صاحب اربل بالعساكر، وعسكر جند الموصل على أربع فراسخ من البلد من ناحية العقر. ثم اتفقوا على المسير إلى زنكي وصبحوه آخر المحرم سنة ست عشرة وستمائة وهزموه فلحق بإربل، وعاد الرسل إلى مكانهم. ووصل رسل الخليفة الناصر والأشرف ابن العادل في الصلح بينهما فاصطلحوا وتحالفوا والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية أخيه ناصر الدين:

لما توفي نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر كما قدمنا من سوء مزاجه واختلاف الأسقام عليه، فتوفي قبل كمال الحول. ونصب لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين محمد بن القاهر في سن الثلاث، واستحلف له الجند وأركبه في الموكب فرضي به الناس لما أبلوا من عجز أخيه عن الركوب لمرضه، والله تعالى وليئ التوفيق.

هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب اربل:

ولما توفي نور الدين، ونصب لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمدا على صغر سنه، تجدد الطمع لعماد الدين عمه ولمظفر الدين صاحب اربل في

الاستيلاء على الموصل، وتجهزوا لذلك. وعاثت سراياه في نواحي الموصل. وكذا لؤلؤ قد بعث ابنه الأكبر في العساكر نجدة للملك الأشرف، وهو يقصد بلاد الإفرنج بالسواحل ليأخذ بحجزتهم عن إمداد إخوانهم بدمياط عن أبيه

الكامل بمصر، فبادر لؤلؤ إلى عسكر الأشرف الذين بنصيبين واستدعاهم فجاؤوا إلى الموصل منتصف سنة عشر وستمائة، وعليهم ايبك مولى الأشرف فاستقلهم لؤلؤ ورآهم مثل عسكره الذين بالشام ودونهم. وألح ايبك على عبور دجلة إلى اربل فمنعه أياما فلما أصر عبر لؤلؤ معه، ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة وجمع مظفر الدين زنكي وعبروا الزاب وتقدم إليهم ايبك في سكره وأصحاب لؤلؤ وسار منتصف الليل من رجب، وأشار عليه لؤلؤ بانتظار الصباح فلم يفعل ولقيهم بالليل. وحمل أيبك على زنكي في الميسرة فهزمه. وانهزمت ميسرة لؤلؤ فبقي في نفر قليل فتقدم إليه مظفر الدين فهزمه، وعبر دجلة إلى الموصل. وظهر مظهر الدين على تبريز ثلاثا.ثم بلغه أن لؤلؤا يريد تبييته فأجفل راجعا، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا على أن يبقى لكل ما بيده، والله أعلم.

وفاة صاحب سنجار وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه:

ثم توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن الاتابك أنكي صاحب سنجار

في ثامن صفر سنة ست عشرة وستمائة، وكان حسن السيرة مسلما إلى نوابه. وملك بعده ابنه عماد الدين شاهين شاه، واشتمل الناس عليه شهورا. ثم سار إلى تل اعفر فاغتاله أخوه عمر، دخل إليه في جماعة فقتلوه وملك بعده. وبقي مدة إلى أن تسلم الأشرف بن العادل مدينة سنجار في جمادى سنة سبع عشر وستمائة، والله أعلم.

استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي و لؤلؤ على تل أعفر والأشرف على سنجار:

كانت كواشي من أحصت قلاع الموصل وأمنعه وأعلاه، ولما رأى الجند الذين بها

بعد أهل العمادية واستبدادهم بأنفسهم طمعوا في مثل ذلك، وأخرجوا نواب لؤلؤ عنهم وتمسكوا بإظهار الطاعة على البعد خوفا على رهائنهم بالموصل. ثم استدعوا عماد الدين زنكي وسلموا له القلعة، وأقام عندهم

وبعث لؤلؤإلى مظفر الدين يذكره العهود التي لم يجز ثلمها بعد، فأعرض وأرسل

إلى الأشرف بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات إلى حران. وكان مظفر الدين صاحب اربل يراسل الملوك بالأطراف ويغريهم بالأشرف ويخوفهم غائلته. ولما كان بين كيكاوس بن كنجسرو صاحب الروم من الفتنة ما نذكره في أخباره، وسار كيكاوس إلى حلب دعا مظفر الدين الملوك بناحيته إلى وفاق كيكاوس مثل صاحب كيفا وآمد وصاحب ماردين فأطاعوه وخطبوا له في أعمالهم. ومات كيكاوس وفي نفس الأشرف منه ومن مظفر الدين ما في نفسه. ولما سار الأشرف إلى حران لمظاهرة لؤلؤ وأرسل مظفر الدين جماعة من أمرائه مثل أحمد بن علي المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما، واستمالهم ففارقوا الأشرف ونازلوا دبيس تحت ماردين ليجتمعوا مع ملوك الأطراف لمدافعة الأشرف. واستمال الأشرف صاحب آمد وأعطاه مدينة حالى وجبل حودي، ووعده بدارا إذا ملكها فأجاب وفارقهم إليه. واضطر آخرون منهم إلى طاعته فانحل أمرهم. وانفرد ابن المشطوب بمشاقة الأشرف فقصد اربل ومر بنصيبين فقاتله شيخ بها فانهزم إلى سنجار فأسره صاحبها. وأطلقه فجمع المفسدين، وقصد البقعا من أعمال الموصل فاكتسح نواحيها وعاد. ثم سار من سنجار ثانية إلى الموصل، وأرصد له لؤلؤ عسكراً فاعترضوه فهزمه. واجتاز بتل أعفر من أعمال! سنجار فأقاموا عليها وبعثوا إلى لؤلؤ فسار وحاصرها وملكها في ربيع سنة سبع عشرة وستمائة، وأسر ابن المشطوب وجاء به إلى الموصل. ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بحران سنين، وهلك في محبسه. ولما أطاع صاحب آمد الأشرف رحل من حران إلى ماردين، ونزل دبيس وحاصر ماردين، ومعه صاحب آمد. وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين على أن يرد عليه رأس العين. وكان الأشرف قد!قطعها له على أن يحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وأن يعطي لصاحب امد الورزني بلد وانعقد الصلح بينهما، وارتحل الأشرف من دبيس إلى نصيبين يريد الموصل، فلقيه رسل صاحب سنجار يطلب من يتسلمها منه على أن يعوضه الأشرف منها بالرقة بما أدركه من الخوف عند استيلاء لؤلؤ على تل أعفر ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه كما ذكرناه. فأجابه الأشرف وأعطاه الرقة، وملك

سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة، ورحل عنها بأهله وعشيرته وانقراض أمر بني زنكي منها بعد أربع وتسعين سنة، والبقاء لله وحده.

صلح الأشرف مع مظفر الدين:

ولما ملك الأشرف سنجار سار إلى الموصل، ووافاه بها رسل الخليفة الناظر ومظفر الدين صاحب اربل في الصلح، ورد القلاع المأخوذة من إيالة الموصل على صاحبها لؤلؤ ما عدا العمادية فتبقى بيد زنكي. وتردد الحديث في ذلك شهرين، ولم يتم فرحل الأشرف بقصد اربل حتى قارب نهر الزاب. وكان العسكر قد ضجروا سوء صاحب آمد مع مظفر الدين فأشار بإجابته إلى ما سأل، ووافق على ذلك أصحاب الأشرف فانعقد الصلح، وساق زنكي إلى الأشرف رهينة على ذلك. وسلمت قلعة العقروشوش لنواب الأشرف وهما لزنكي رهنا أيضاً. وعاد الأشرف إلى سنجار في رمضان سنة سبع عشرة. وبعثوا إلى القلاع فلم يسلمها جندها وامتنعوا بها. واستجار عماد الدين زنكي بشهاب ابن العادل فاستعطف له أخاه الأشرف فأطلقه، ورد عليه قلعتي العقر وشوش. وصرف نوابه عنهما. وسمع لؤلؤ الأشرف يميل إلى قلعة تل أعفر، وانها لم تزل لسنجار قديما فبعث إليه بتسليمها، والله تعالى أعلم.

رجوع قلاع الهكارية والزوزان إلى طاعة صاحب الموصل:

لما رأى زنكي أنه ملك قلاع الهكارية والزوزان وساوة، فلم يروا عنده ما ظنوه من

حسن السيرة كما يفعله لؤلؤ ، وطلبوه في الإقطاع فأجابهم. واستأذن الأشرف فلم يأذن له، وجاء زنكي من عند الأشرف فحاصر العمادية، ولنم يبلغ منها غرضا فأعادوا مراسلة لؤلؤ فاستأذن الأشرف، وأعطاه قلعة جديدة ونصيبين وولاية ما بين النهرين وأذن له في تملك القلاع، وأرسل نوابه إليها، ووفى لهم بما عاهدهم عليه. وتبعهم بقية القلاع من أعمال الموصل فدخلوا كلهم في طاعة لؤلؤ وانتظم له ملكها، والله تعالى أعلم..

استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس:

كانت قلعة سوس وقلعة العقر متجاورتين على اثني عشر فرسخا من الموصل، وكانتا لعماد الدين زنكي بن نور الدين ارسلان شاه بوصية أبيه كما مر. وملك معهما قلاع الهكارية والزوزان، ورجعت إلى الموصل وسار هو سنة تسعة عشر إلى ازبك بن البهلوان صاحب أذربيجان من بقية السلجوقية فسار معه، وأقطع له الاقطاعات وأقام عنده فسار لؤلؤ من الموصل إلى قلعة

سوس فحاصرها، وضيق عليها. وامتنعت عليه فجمر العساكر لحصارها وعاد إلى الموصل. ثم اشتد الحصار بأهلها، وانقطعت عنهم الأسباب فاستأمنوا إلى لؤلؤ ونزلوا له عنها على شروط اشترطوها وقبلها، وبعث نوابه عليها، والله تعالى أعلم.

حصار مظفر الدين الموصل:

كان الأشرف بن العادل بن أيوب قد استولى على الموصل، ودخل لؤلؤ في طاعته واستولى على خلاط وسائر أرمينية، وأقطعها أخاه شهاب الدين غازي، ثم جعله ولي عهده في سائر أعماله. ثم نشأت الفتنة بينهما فاستظهر غازي بأخيه المعظم صاحب دمشق وبمظهر الدين كوكبري. وتداعوا لحصار الموصل فجمع أخوهما الكامل عساكره، وسار إلى خلاط فحاصرها بعد أن بعث إلى المعظم صاحب دمشق وتهدده فأقصر عن مظاهرة أخيه. واستنجد غازي مظفر الدين كوكبري صاحب اربل فسار إلى الموصل وحاصرها ليأخذ بحجزة الأشرف عن خلاط. ونهض المعظم صاحب دمشق لإنجاد أخيه غازي وكان لؤلؤ صاحب الموصل قد استعذ للحصار فأقام عليها مظفر الدين عشرا. ثم رحل منتصف إحدى وعشرين لامتناعها عليه، ولقيه الخبر بأن الأشرف قد ملك خلاط من يد أخيه فندم على ما كان منه.

إنتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم استيلاؤه عليها:

قد تقدم لنا انتقاض أهل قلعة العمادية من أعمال الموصل سنة خمس عشرة، ورجوعه إلى عماد الدين زنكي، ثم عودهم إلى طاعة لؤلؤ فأقاموا على ذلك مدة. ثم عادوا إلى ديدنهم من التمريض في الطاعة وتجنوا على لؤلؤ بعزل نوابه فعزلهم مرة بعد أخرى. ثم استبد بها أولاد خواجا إبراهيم وأخوه فيمن تبعهم، وأخرجوا من خالفهم وأظهروا العصيان على لؤلؤ فسار إليهم سنة اثنتين وعشرين، وحاصرهم وقطع الميرة عنهم. وبعث عسكراً إلى قلعة هزوران وقد كانوا اتبعوا أهل العمادية في العصيان فحاصرهم حتى استأمنوا وملكها. ثم جهز العساكر إلى العمادية مع نائبه أمين الدين، وعاد إلى الموصل واستمر الحصار إلى ذي القعدة من السنة.

ثم راسلوا أمين الدين في الصلح على مال واقطاع وعوض عن القلعة، وأجاب لؤلؤإلى ذلك. وكان أمين الدين قد وليها تبل ذلك فكان له فيها بطانة مستمدون على عهده ومكاتبته، وسخط كثير من أهل البلد فعل أولاد خواجا إبراهيم واستئثارهم بالصلح دونهم فوجد

أولئك البطانة سبيلاً إلى التسلط علبهم، ودسوا لأمين الدين أن يبيت البلد ويصالحها فصالحهم فوثبوا بأولاد خواجا، ونادوا بشعار لؤلؤ فصعد العسكر القلعة وملكها أمين الدين وبعث بالخبر إلى لؤلؤ قبل أن ينعقد اليمين مع وفد أولاد خواجا. والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مسير مظفر الدين صاحب أربل إلى أعمال الموصل وعوده منها:

كان جلال الدين شكري بن خوارزم شاه قد غلبه التتر أول خروجهم سنة سبع عشرة وستمائة على خوارزم وخراسان وغزنة، وفر أمامهم إلى الهند، ثم رجع عنها سنة اثنتين وعشرين، واستولى على العراق، ثم على أذربيجان وجاور الأشرف بن العادل في ولايته بخلاط والجزيرة، وحدثت بينهما الفتنة. وراسله أعيان الأشرف في الأغراء به مثل: مظفر الدين صاحب اربل، ومسعور صاحب آمد وأخيه المعظم صاحب دمشق. واتفقوا على ذلك، وسار جلال الدين إلى خلاط وسار مظفر الدين إلى الموصل، وانتهى إلى الزاب ينتظر الخبو عن جلال الدين، وسار المعظم صاحب دمشق إلى حمص وحماة. وبعث لؤلؤمن الموصل يستنجد الأشرف فسار إلى حران، ثم إلى دبيس فاكتسح أعمال ماردين. وكان جلال الدين قد بلغه انتقاض نائبه بكرمان فأغذ السير إليه، وترك خلاط بعد أن عاث في أعمالها، وفت ذلك في أعضاد الاخرين ، وعظمت سطوة الأشرف بهم. وبعث إليه أخوه المعظم وقد نازل حمص وحماة يتوعده بمحاصرتهما ومحاصرة مظفر الدين الموصل، فرجع إلى ماردين، ورجع الآخران عن حمص وحماة والموصل ولحق كل ببلده، والله تعالى أعلم.

مسير التتر في بلاد الموصل وأربل:

ولما أوقع بجلال الدين خوارزم شاه على آمد سنة ثمان وعشرين وقتلوه، ولم يبق

لهم مدافع من الملوك ولا مانع انساحوا في البلاد طولا وعرضاً، ودخلوا ديار بكر، واكتسحوا سواد آمد وارزن وميافارقين وحاصروا وطكوها بالأمان. ثم استباحوها وساروا إلى

ماردين فعاثوا في نواحيها. ثم دخلوا الجزيرة واكتسحوا أعمال نصيبين. ثم مروا إلى سنجار فنهبوها، ودخلوا الخابور واستباحوه. وسارت طائفة منهم إلى الموصل فاستباحوا أعمالها، ثم أعمال اربل وأفحشوا فيها. وبرز مظفر الدين في محساكره، واستمد عساكر الموصل فبعث بها لؤلؤ إليه. ثم عاد التتر عنهم إلى أذربيجان فعاد كل إلى بلاده، والله أعلم.

وفاة مظفر الدين صاحب أربل وعودها إلى الخليفة:

ثم توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب اربل سنة تسع وعشرين

لأربع وأربعين سنة من ولايته عليها ؛ أيام صلاح الدين بعد أخيه يوسف؟ ولم يكن له ول فأوصى بإربل للخليفة المستنصر فبعث إليها نوابه، واستولى عليها وصارت من أعمال والله تعالى أعلم.

بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل:

كان عسكر خوارزم شاه بعد مهلكه سنة ثمان وعشرين على آمد لحقوا بصاحب

الروم كيغباد فاستنجدهم وهلك سنة أربع وثلاثين وستمائة، وولي ابنه كنجسرو فقبض على أميرهم ومر الباقون وانتبذوا بأطراف البلاد. وكان الصالح نجم الدين أيوب في حران، وكيفا وآمد نائبا عن أبيه الملك العادل، فرأى المصلحة في استضافتهم إليه فاستمالهم، واستخدمهم بعد أن أذن أبوه له في ذلك. فلما مات ابوه سنة خمس انتقضوا ولحقوا بالموصل، واشتد عليهم لؤلؤ وسار معهم فحاصر الصالح بسنجار إلى الخوارزمية واستمالهم فرجعوا إلى طاعته، على أن يعطيهم حران والرها ينزلون بها فاعطاهما إياهم وملكوهما، ثم ملكوا نصيبين من أعمال لؤلؤ ، وبنو أيوب يومئذ متفرقون على كراسي الشام، وبينهم من الأنفة والفرقة ما نتلو عليك قصصه في دولتهم. ثم استقر ملك سنجار للجواد يونس منهم، وهو ابن مودود بن العادل أخذها من الصالح نجم الدين أيوب عوضا عن دمشق، واستولى لؤلؤ على سنجار من يده سنة سبع وثلاثين. ثم حدثت بين صاحب حلب وبين الخوارزمية فتنة ولجأوا يومئذ لصفيتهم خاتون بنت العادل فبعثت

العساكر إليهم مع المعظم بوران شاه بن صلاح الدين فهزموا عساكره، وأسروا ابن أخيه الأفضل ودخلوا حلب واستباحوها. ثم فتحوا منبج وعاثوا فيها، وقطعوا الفرات من الرقة وهم يذهبون. وتبعهم عسكر دمشق وحمص فهزموهم وأثخنوا فيهم، ولحقوا ببلدهم حران فسارت إليهم عساكر حلب، واستولوا على حران. ولحق الخوارزمية بغانة وبادر لؤلؤ

صاحب الموصل إلى نصيبين فملكها من أيديهم. ثم توفيت صفية بنت العادل سنة أربعين في حلب، وكانت ولايتها بعد وفاة أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فولي بعدها ابنه الناصر يوسف بن العزيز في كفالة مولاه حيال الخاتوني . فلما كانت سنة ثمان وأربعين، وستمائة وقع بين عسكره وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حرب انهزم فيها لؤلؤ ، وملك الناصر نصيبين وترقيسيا ولحق لؤلؤ بحلب. ثم زحف هلاكو ملك التتر إلى بغداد سنة وملكها، وقتل الخليفة المستعصم واستلحم العلية من بغداد كما مر في أخبار الخلفاء. ويأتي في أخبار التتر، وتخطى منها إلى أذربيجان فبادر لؤلؤ ووصل إليه بأذربيجان وآتاه طاعته وعاد إلى الموصل، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح:

ثم توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان يلقب الملك الرحيم وملك بعده على الموصل ابنه الصالح اسمعيل، وعلى سنجار ابنه المظفر علاء الدين علي وعلى جزيرة ابن عمر ابنه المجاهد إسحق، وأبقاهم هلاكو عليها مدة؟ ثم أخذها منهم ولحقوا بمصر فنزلوا على الملك الظاهر بيبرس كما نذكر في أخباره. وسار هلاكو إلى الشام فملكها وانقرضت دولة الاتابك زنكي وبنيه ومواليه من الشام والجزيرة أجمع كأن لم تكن، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والبقاء لله نعالى وحده، والله تعالى أعلم.

خريطة

دولة بني أيوب

الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما كان لهم من الملك بمصر و الشام واليمن والمغرب و أولية ذلك ومصايره

هذه الدولة من فروع دولة بني زنكي كما تراه، وجدهم هو أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن عشرة ابن الحسن بن علي بن أحمد بن علي عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر مرّة بن عوف الحميري الدوسي هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم قال ابن الأثير: أنهم من الأكراد الروادية. وقال ابن خلكان: شادي أبوهم من أعيان درين، وكان صاحبه بها بهروز فأصابه خصي من بعض أمرائه وفر حياء من المثلة ، فلحق بدولة السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه، وتعلق بخدمة داية بنيه حتى إذا هلك الداية أقامه السلطان لبنيه مقامه فظهرت كفايته، وعلا في الدولة محله فبعث عن شادي بن مروان صاحبه لما بينهما من الألفة وأكيد الصحبة فقدم عليه. ثم ولي السلطان بهروز شحنة بغداد فسار إليها، واستصحب شادي معه. ثم أقطعه السلطان قلعة تكريت فولي عليها شادي فهلك وهو وال عليها. وولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أسد الدين شيركوه، فلم يزل واليا عليها. ولما زحف عماد الدين زنكي صاحب الموصل لمظاهرة مسعود على الخليفة المسترشد سنة عشرين وخمسمائة، وإنهزم الأتابك وانكفأ راجعاً إلى الموصل، ومر بتكريت قام نجم الدين بعلوفته وازواده، وعقد له الجسور على دجلة، وسهل له عبورها. ثم أن شيركوه أصاب دماً في تكريت ولم يفده منه أخوه أيوب فعزله بهروز، وأخرجهما من تكريت فلحقا بعماد الدين بالموصل فأحسن إليهما وأقطعهما. ثم ملك بعلبك سنة إثنتين وثلاثين جعله نائباً بها، ولم يزل بها أيوب. ولما مات عماد الدين زنكي سنة إحدى وأربعين زحف صاحب دمشق فخر الدين طغركين إلى بعلبك وحاصرها، واستنزل أيوب منها على ما شرط لنفسه من الإقطاع، وأقام معه بدمشق. وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي، وأقطعه

حمص والرحبة لإستطلاعه وكفايته، وجعله مقدم عساكره. ولما صرف نظره إلى الإستيلاء على دمشق، واعتزم على مداخلة أهلها، وكان ذلك على يد شيركوه وبمكاتبته لأخيه أيوب، وهو بدمشق فتم ذلك على أيديهما وبمحاولتهما، وملكها سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وكانت دولة العلويين بمصر قد أخلقت جدتها، وذهب استفحالها واستبد وزراؤها على خلفائها. فلم يكن الخلفاء يملكون معهم. وطمع الإفرنج في سواحلهم وأمصارهم لما نالهم من الهرم والوهن، فمالوا عليهم وانتزعوا البلاد من

أيديهم، وكانوا يردون عليهم كرسي خلافتهم بالقاهرة، ووضعوا عليهم الجزية وهم يتجرعون المصاب من ذلك، ويتحملونه مع بقاء أمرهم. كاد الأتابك زنكي وقومه السلجوقية من قبله أن يمحوا دعوتهم، ويذهبوا بدولتهم. وأقاموا من ذلك على مضض وقلق وجاء الله بدعوة العاضد آخرهم. وتغلب عليه بعد الصالح بن رزبك شاور السعدي، وقتل رزبك بن صالح سنة ثمان وخمسين، واستبد على العاضد. ثم نازعه الضرغام لتسعة أشهر من ولايته وغلبه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام، ولحق بنور الدين صريخاً سنة تسع وخمسين، وشرط له على نفسه ثلث الجباية بأعمال مصر، على أن يبعث معه عسكراً يقيمون بها فأجابه إلى ذلك، وبعث أسد الدين شيركوه في العساكر فقتل الضرغام، ورد شاور إلى رتبته وآل أمرهم إلى محو الدولة العلوية، وإنتظام مصر وأعمالها في ملكة ابن أيوب بدعوة نور الدين محمود بن زنكي، ويخطب للخلفاء العباسيين لما هلك نور الدين محمي واستبد صلاح الدين بأمره في مصر. ثم غلب على بني نور الدين محمود، وملك الشام من أيديهم وكثر عيث ابن عمهم مودود واستفحل ملكه، وعظمت دولة بنيه من بعده إلى أن . إنقرضوا والبقاء لله وحده.

مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وإعادة شاور إلى وزارته:

لما إعتزم نور الدين محمود صاحب الشام على صريخ شاور، وإرسال العساكر معه واختار لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي، وكان من أكبر أمرائه فاستدعاه من حمص وكان أميراً عليها وهي أقطاعه، وجمع له العساكر وأزاح عللهم. وفصل بهم شيركوه من دمشق في جمادى سنة تسع وخمسين. وسار نور الدين بالعساكر إلى بلاد الإفرنج ليأخذ بحجزتهم عن إعتراضه أو صده، لما كان بينهم وبين صاحب مصر من الألفة والتظاهر، ولما وصل أسد الدين بلبيس لقيه هنالك ناصر الدين أخو الضرغام وقاتله فانهزم، وعاد إلى القاهرة مهزوماً. وخرج الضرغام منسلخ جمادى الأخيرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، وقتل أخوه، وأعاد شاور إلى وزارته وتمكن فيها. وصرف أسد الدين إلى بلده وأعرض عما كان بينهما

فطالبه أسد الدين بالوفاء، فلم يجب إليه فتغلب أسد الدين على بلبيس والبلاد الشرقية. وبعث شاور إلى الإفرنج يستنجدهم، ويعدهم فبادروا إلى إجابته، وسار بهم ملكهم مرى لخوفهم أن يملك أسد الدين مصر، واستعانوا بجمع من الإفرنج جاؤا لزيارة القدس. وسار نور الدين إليهم ليشغلهم فلم يثنهم ذلك وطمعوا لعزمهم ورزأ أسد الدين إلى بلبيس، وإجتمعت العساكر المصرية والإفرنج عليه، وحاصروه ثلاثة أشهر وهو يفاديهم القتال ويراوحهم، وإمتنع عليهم، وقصاراهم

منع الأخبار عنه. واستنفر نور الدين ملوك الجزيرة وديار بكر وقصر حارم. وسار الإفرنج لمدافعته فهزمهم وأثخن فيهم. وأسر صاحب أنْطاكِية وطرابلس وفتح حارم قريباً من حلب. ثم سار إلى بانياس قريباً من دمشق ففتحها كما مر في أخبار نور الدير وبلغ الخبر بذلك إلى الإفرنج وهم محاصرون أسد الدين في بلبيس ففت في عزائمهم، وطووا الخبر عنه وراسلوه في الصلح على أن يعود إلى الشام فصالحهم، وعاد إلى الشام في ذي الحجة من السنة، والله تعالى أعلم.

مسير أسد الدين ثانياً إلى مصر وملكه الإسكندرية ثم صلحه عليها وعوده

ولما رجع أسد الدين إلى الشام لم يزل في نفسه ما كان من غدر شاور، وبقي يشحن لغزوهم إلى سنة إثنتين وستين فجمع العساكر وبعث معه نور الدين جماعة من الأمراء، وأكثف له العسكر خوفاً على حامية الإسلام، وسار أسد الدين إلى مصر، وانتهى إلى أطفيح وعبر منها إلى العدوة الغربية، ونزل الجيزة وأقام نحوا من خمسين يوماً. وبعث شاور إلى الإفرنج يستمدهم على العادة، وعلى ما لهم من التخوف من استفحال ملك نور الدين وشيركوه فسارعوا إلى مصر، وعبروا مع عساكرها إلى الجيزة، وقد إرتحل عنها أسد الدين إلى الصعيد، وانتهى منها إلى *، وأتبعوه وأدركوه بها منتصف إثنتين وستين. ولما رأى كثرة عددهم واستعدادهم مع تخاذل أصحابه فاستشارهم. فأشار بعضهم بعبور النيل إلى العدوة الشرقية والعود إلى الشام وأبى زعماؤهم إلا الإستماتة سيما مع خشية العتب من نور الدين، وتقدم صلاح الدين بذلك وأدركهم القوم على تعبية وجعل صلاح الدين في القلب، وأوصاه أن يندفع أمامهم، ووقف هو في الميمنة مع من وثق باستماتته. وحمل القوم على صلاح الدين فسار بين أيديهم على تعبيته وخالفهم أسد الدين إلى مخلفهم فوضع السيف فيهم وأثخن قتلا وأسرا. ورجعوا عن صلاح الدين يظنون أنهم ساروا منهزمين فوجدوا أسد الدين قد استولى على مخلفهم واستباحه فانهزموا إلى مصر.

وسار أسد الدين إلى الإسكندرية فتلقاه أهلها بالطاعة، واستخلف بها صلاح الدين

ابن أخيه. وعاد إلى الصعيد فاستولى عليه، وفرق العمال على جباية أمواله. ووصلت عساكر مصر والإفرنج إلى القاهرة، وأزاحوا عللهم وساروا إلى الإسكندرية فحاصروا

بها صلاح الدين، وجهده الحصار. وسار أسد الدين من الصعيد لإمداده، وقد إنتقض عليه طائفة من التركمان من عسكره. وبينما هو في ذلك جاءته رسل القوم في الصلح على أن يرد عليهم الإسكندرية، ويعطوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من أموال الصعيد فأجابهم إلى ذلك، على أن يرجع الإفرنج إلى بلادهم، ولا يملكوا من البلاد قرية فانعقد ذلك بينهم منتصف شوال. وعاد أسد الدين وأصحابه إلى الشام منتصف ذي القعدة. ثم شرط الإفرنج على شاور أن ينزلوا بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بأيديهم ليتمكنوا من مدافعة نور الدين، فضربوا عليه مائة ألف دينار في كل سنة جزية فقبل ذلك، وعاد الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام وتركوا بمصر جماعة من زعمائهم. وبعث الكامل أبا شجاع شاور إلى نور الدين بطاعته، وأن يبث بمصر دعوته. وقرر على نفسه مالاً يحمل كل سنة إلى نور الدين فأجابه إلى ذلك وبقي شيعة له بمصر، والله تعالى أعلم.

استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور

ولما ضرب الإفرنج الجزية على القاهرة ومصر، وأنزلوا بها الشحنة وملكوا أبوابها تمكنوا من البلاد، وأقاموا فيها جماعة من زعمائهم فتحكموا وأطلعوا على عورات الدولة، فطمعوا فيما وراء ذلك من الاستيلاء وراسلوا بذلك ملكهم بالشام، وإسمه مري، ولم يكن ظهر بالشام من الإفرنج مثله فاستدعوه لذلك وأغروه فلم يجبهم، واستحثه أصحابه لملكها. وما زالوا يفتلون له في الذروة والغارب، ويوهمونه القوة بتملكها على نور الدين، ويريهم هو أن ذلك يؤل إلى خروج أصحابها عنها لنور الدين فبقي بها إلى أن غلبوا عليه. فرجع إلى رأيهم. وتجهز وبلغ الخبر نور الدين فجمع عساكره، واستنفر من في ثغوره. وسار الإفرنج إلى مصر مفتتح أربع وستين فملكوا بلبيس عنوة في صفر واستباحوها وكاتبهم جماعة من أعداء شاور فأنسوا مكاتبتهم، وساروا إلى مصر ونازلوا القاهرة. وأمر شاور بإحراق مدينة مصر لينتقل أهلها إلى القاهرة فيضبط الحصار فانتقلوا وأخذهم الحريق، وامتدت الأيدي وأنتهبت أموالهم وإتصل الحريق فيها شهرين. وبعث العاضد إلى نور الدين يستغيث به فأجاب وأخذ في تجهيز العساكر فاشتد الحصار على القاهرة، وضاق الأمر بشاور فبعث إلى ملك الإفرنج يذكره بقديمه، ون هواه

معه دون العاضد ونور الدين، ويسأل في الصلح على المال لنفور المسلمين مما سوى ذلك فأجابه ملك الإفرنج على ألف ألف دينار لما رأى من إمتناع القاهرة، وبعث إليهم شاور بمائة ألف منها، وسألهم في الإفراج فارتحلوا. وشرع في جمع المال فعجز الناس عنه ورسل

العاضد خلال ذلك تردد إلى نور الدين في أن يكون أسد الدين وعساكره حامية عنده وعطاؤهم عليه، وثلث الجباية خالصة لنور الدين فاستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وأعطاه مائتي ألف دينار، وجهزه بما يحتاجه من الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن ونقل العسكر عشرين دينارا لكل فارس، وبعث معه من أمرائه مولاه عز الدين مرعش، وعز الدين قليج، وشرف الدين مرعش وعز الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي. وأمد صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين فتعلل عليه، واعتزم عليه فأجاب. وسار أسد الدين منتصف ربيع. فلما قارب مصر رجع الإفرنج إلى بلادهم فسر بذلك نور الدين، وأقام عليه البشائر في الشام.ووصل أسد الدين القاهرة ودخلها منتصف جمادى الأخيرة ونزل بظاهرها، ولقي العاضد وخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الجرايات والاتاوات. وأقام أسد الدين ينتظر شرطهم، وشاور يماطله ويعلله بالمواعيد. ثم فاوض أصحابه في القبض على أسد الدين واستخدام جنده فمنعه ابنه الكامل من ذلك فأقصر. ثم أشرف أصحاب أسد الدين على اليأس من شاور، وتفاوض أمراؤه في ذلك فاتفق صلاح الدين ابن أخيه وعز الدين خردك على قتل شاور وأسد الدين ينهاهم. وغدا شاور يوماً على أسد الدين في خيامه فألقاه قد ركب لزيارة تربة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، فتلقاه صلاح الدين وخردك، وركبوا معه لقصد أسد الدين فقبضوا عليه في طريقهم، وطيروا بالخبر إلى أسد الدين. وبعث العاضد لوقته يحرضهم على قتله فبعثوا إليه برأسه، وأمر العاضد بنهب دوره فنهبها العامة.وجاء أسد الدين لقصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. وخرج له من القصر منشور من إنشاء القاضي الفاضل البيساني، وعليه مكتوب بخط الخليفة ما نصه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، فتقلد ما رآك الله وأمير المؤمنين أهلا لحمله، وعليك الحجة من الله فيما أوضح لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، وأسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. ثم ركب أسد الدين إلى دار الوزارة التي كان فيها شاور،

وجلس مجلس الأمروالنهي وولى على الأعمال، وأقطع البلاد للعساكر، وأمن أهل مصر بالرجوع إلى بلادهم ورمها وعمارتها. وكاتب نور الدين بالواقع مفصلاً وانتصب للأمور. ثم دخل للعاضد ، وخطب الأستاذ جوهر الخصي عنه وهو يومئذ أكبر الأساتيذ فمال: يقول لك مولانا نؤثر مقامك عندنا من أول قدومك، وأنت تعلم الواقع من ذلك، وقد تيقنا أن الله عز وجل أدخرك لنا نصرة على أعدائنا فحلف له أسد الدين على النصيحة وإظهار الدولة. فقال

الأستاذ عن العاضد الأمر بيدك هذا وأكثر. ثم جددت الخلع واستخلص أسد الدين الجليس عبد القوي. وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة واستحسنه واختصه. وأما الكامل بن شاور فدخل القصر مع أخوته معتصمين به، وكان آخر العهد به وأسف أسد الدين عليه لما كان منه في رد أبيه، وذهب كل بما كسب، والله تعالى أعلم.

وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح الدين

ثم توفي أسد الدين شيركوه آخر جمادي الأخيرة من سنة أربع وستين لشهرين من

وزارته. ولما احتضر أوصى أحد حواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له: "الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا، وصار أهلها راضين عنا فلا تفارقوا سور القاهرة، ولا تفرطوا في الأسطول " ولما توفي تشوف الأمراء الذين معه إلى رتبة الوزارة مكانه مثل عز الدولة الباروقي، وشرف الدين المشطوب الهكاري، وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي وشهاب الدين الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وجمع كل لمغالبة صاحبه. وكان أهل القصر وخواص الدولة قد تشاوروا فأشار جوهر بإخلاء رتبة الوزارة، وإصطفاء ثلاثة آلاف من معسكر الغز يقودهم قراقوش، ويعطي لهم الشرقية إقطاعا ينزلون بها حشداً دون الإفرنج من يستبد على الخليفة بل يقيم واسطه بينه وبين الناس على العادة. وأشار آخرون بإقامة صلاح الدين مقام عمه والناس تبع له، ومال القاضي لذلك حياء من صلاح الدين وجنوحاً إلى صغر سنه، وأنه لا يتوهم فيه من الإستبداد ما يتوهم في غيره من أصحابه، وأنهم في سعة من رأيهم مع ولايته فاستدعاه وخلع عليه، ولقبه الملك الناصر. واختلف عليه أصحابه فلم يطيعوه وكان عيسى الهكاري شيعة له، واستمالهم إليه إلا الباروقي فإنه إمتنع وعاد إلى نور الدين بالشام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر، وكان نائباً عن نور الدين ونور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسار، ويجمعه في الخطاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية. وما زال صلاح الدين يحسن المباشرة ويستميل الناس، ويفيض العطاء حتى غلب على أفئدة الناس، وضعف أمر العاضد. ثم أرسل يطلب أخوته وأهله

من نور الدين فبعث بهم إليه من الشام. واستقامت أموره وأطردت سعادته، والله تعالى ولي التوفيق

واقعة السودان بمصر:

كان بقصر العاضد خصي حاكم على أهل القصر يدعى مؤتمن الخلافة فلما غص أهل الدولة بوزارة صلاح الدين داخل جماعة منهم، وكاتب الإفرنج يستدعيهم ليبرز صلاح الدين لمدافعتهم فيثوروا بمخلفه. ثم يتبعونه وقد ناشب الإفرنج فيأتون عليه. وبعثوا الكتاب مع ذي طمرين حمله في نعاله فاعترضه بعض التركمان واستلبه، ورأوا النعال جديدة فاسترابوا بها فجاؤا به إلى صلاح الدين فقرأ الكتاب ودخل على كاتبه فأخبره بحقيقة الأمر فطوى ذلك وإنتظر مؤتمن الخلافة حتى خرج إلى بعض قراه متنزها وبعث من جاء برأسه، ومنع الخصيان بالقصر عن ولاية أموره وقدم عليهم بهاء الدين قراقوش خصياً أبيض من خدمه وجعل إليه جميع الأمور بالقصر وامتعض السودان بمصر لمؤتمن الخلافة. واجتمعوا لحرب صلاح الدين وبلغوا خمسة آلاف وناجزوا عسكره من القصر في ذي القعدة من السنة وبعث إلى محلتهم بالمنصورة من أحرقها على أهليهم وأولادهم فلما سمعوا بذلك إنهزموا وأخذهم السيف في السكك فاستأمنوا وعبروا إلى الجيزة فسار إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين في طائفة من العسكر فاستلحمهم وأبادهم والله أعلم.

منازلة الإفرنج دمياط وفتح إيلة

ولما استولى صلاح الدين على دولة مصر وقد كان الإفرنج أسفوا على ما فاتهم

من صده وصد عمه عن مصر وتوقعوا الهلاك من استطالة نور الدين عليهم بملك مصر فبعثوا الرهبان والأقسة إلى بلاد القرانية يدعونهم إلى المدافعة عن بيت المقدس وكاتبوا الإفرنج بصقلية والأندلس يستنجدونهم فنفروا واستعدوا لامدادهم. واجتمع الذين بسواحل الشام في فاتح خمس وستين وثلاثمائة وركبوا في ألف من الأساطيل وأرسلوا لدمياط ليملكوها ويقربوا من مصر. وكان صلاح الدين قد ولاها شمس الخواص منكبرس فبعث إليه بالخبر فجهز إليها بهاء الدين قراقوش، وأمراء الغز في البر متتابعين، وواصل المراكب بالأسلحة والإتاوات وخاطب نور الدين يستمدّه

لدمياط لأنه لا يقدر على المسير إليها خشية من أهل الدولة بمصر، فبعث نور الدين إليها العساكر أرسالاً ثم سار

بنفسه وخالف الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام فاستباحها وخربها.وبلغهم الخبر بذلك على دمياط، وقد إمتنعت عليهم، ووقع فيهم الموتان فأقلعوا عنها لخمسين يوماً من حصارها. ورجع أهل سواحل الشام لبلادهم فوجدوها خراباً. وكان جملة ما بعثه نور الدين في المدد لصلاح الدين في شأن دمياط هذه ألف ألف دينار سوى الثياب والأسلحة وغيرها. ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين في منتصف السنة يستدعي منه أباه نجم الدين أيوب فجهزه إليه مع عسكر وإجتمع معهم من التجار جماعة وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج الذين بالكرك فسار إلى الكرك وحاصرهم بها. وجمع الإفرنج الآخرون فصمد للقائهم فخاموا عنه وسار في وسط بلادهم، وسار إلى عشيرا، ووصل نجم الدين أيوب إلى مصر، وركب العاضد لتلقيه. ثم سار صلاح الدين سنة ست وستين لغزو بلاد الإفرنج، وأغار على أعمال عسقلان والرملة. ونهب ربط غزة ولقي ملك الإفرنج فهزمه، وعاد إلى مصر. ثم أنشأ مراكب وحملها مفصلة على الجمال إلى أيلة فألفها وألقاها في البحر، وحاصر أيلة براً وبحراً، وفتحها عنوة في شهر ربيع من السنة، واستباحها وعاد إلى مصر فعزل قضاة الشيعة، وأقام قاضياً شافعياً فيها. وولّى في جميع البلاد كذلك. ثم بعث أخاه شمس الدولة توران شاه إلى الصعيد فأغار على العرب وكانوا قد عاثوا وأفسدوا فكفهم عن ذلك والله تعالى أعلم.

الخطبة العباسية بمصر

إقامة الخطبة العباسية بمصر

ثم كتب نور الدين بإقامة الخطبة للمستضيء العباسي وترك الخطبة للعاضد بمصر فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين، وفي باطن الأمر خشي من نور الدين فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك، ولم تسعه مخالفته، وأحجم عن القيام بذلك. ورد على صلاح الدين شخص من علماء الأعاجم يعرف بالخبشاني ويلقب بالأمير العالم فلما رآهم محجمين عن ذلك صعد المنبر يوم الجمعة قبل الخطيب ودعا للمستضيء ، فلما كانت الجمعة القابلة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد

والخطبة للمستضيء، فتراسلوا بذلك ثاني جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.وكان المستضيء قد ولي الخلافة بعد أبيه المستنجد في ربيع من السنة قبلها. ولما خطب له بمصر كان العاضد مريضاً فلم يشعروه بذلك. وتوفي يوم عاشوراء من السنة. ولما خطب له على منابر مصر جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره ووكل به بهاء الدين قراقوش، وكان فيه من الذخائر ما يعز وجوده مثل حبل الياقوت الذي وزن كل حصاة منه سبعة عشر مثقالاً، ومصاف الزمرد الذي طوله أربعة أصابع طولا

في عرض، ومثل طبل القولنج الذي يضربه ضاربه فيعافى بذلك من داء القولنج، وكسروه لما وجدوا ذلك منه فلما ذكرت لهم منفعته ندموا عليه، ووجدوا من الكتب النفيسة ما لا يعد. ونقل أهل العاضد إلى بعض حجر القصر ووكل بهم، وإخرج الأماء والعبيد وقسمهم بين البيع والهبة والعتق. وكان العاضد لما اشتد مرضه استدعاه فلم يجب داعيه، وظنها خديعة فلما توفي ندم، وكان يصفه بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه والإنقياد. ولما وصل الخبر إلى بغداد بالخطبة للمستضيء ضربت البشائر وزينت بغداد أياماً وبعثت الخلع لنور الدين وصلاح الدين مع صندل الخادم من خواص المقتفي، فوصل إلى نور الدين وبعث بخلعة صلاح الدين وخلع الخطباء بمصر والأعلام السود، والله تعالى أعلم.

الوحشة بين صلاح الد ين ونور الدين

قد كان تقدم لنا ذكر هذه الوحشة في أخبار نور الدين مستوفاة وأن صلاح الدين غزا

بلاد الإفرنج سنة سبع وستين، وحاصر حصن الشوبك على مرحلة من الكرك حتى استأمنوا إليه، فبلغ ذلك نور الدين فاعتزم على قصد بلاد الإفرنج من ناحية أخرى فارتاب صلاح الدين في أمره وفي لقاء نور الدين وإظهار طاعته، وما ينشأ عن ذلك من تحكمه فيه فأسرع العود إلى مصر، واعتذر لنور الدين بشيء بلغه عن شيعة العلويين ليعتزله نور الدين، وأخذ في الاستعداد لعزله. وبلغ ذلك صلاح الدين وأصحابه فتفاوضوا في مدافعته ونهاهم أبوه نجم الدين أيوب وأشار بمكاتبته والتلطف له مخافة أن يبلغه غير ذلك فيقوى عزمه على العمل به، ففعل ذلك صلاح الدين فسالمه نور الدين. وعادت المخالطة بينهما كما كانت، واتفقا على إجتماعهما لحصار الكرك فسار صلاح الدين لذلك سنة ثمان وستين، وخرج نور الدين من دمشق بعد أن تجهز. فلما إنتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك، وبلغ صلاح الدين خبره إرتابه ثانياً. وجاءه الخبر بمرض نجم الدين أبيه بمصر فكر راجعاً. وأرسل إلى نور الدين الفقيه عيسى الهكاري بما وقع من حديث المرض بأبيه، وأنه رجم من أجله فأظهر نور الدين القبول، وعاد إلى دمشق، والله تعالى أعلم.

وفاة نجم الدين أيوب

كان نجم الدين أيوب بعد إنصرف ابنه صلاح الدين إلى مصر أقام بدمشق عند نور الدين

، ثم بعث عنه ابنه صلاح الدين عندما استوثق له ملك مصر فجهزه نور الدين سنة خمس وستين في عسكره. وسار لحصار الكرك ليشغل الإفرنج عن اعتراضه كما مر ذكره. ووصل إلى مصر وخرج العاضد لتلقيه، وأقام مكرماً. ثم سار صلاح الدين إلى الكرك سنة ثمان وستين المرة الثانية في مواعدة نور الدين وأقام نجم الدين بمصر، وركب يوماً في مركب وسار ظاهر البلد، والفرس في غلواء مراحه وملاعبة ظله فسقط عنه، وحمل وقيذاً إلى بيته فهلك لأيام منها آخر ذي الحجة من السنة. وكان خيراً جوادا محسناً للعلماء والفقراء، وقد تقدم ذكر أوليته، والله ولي التوفيق.

استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب

كان قراقوش من موالي تقي الدين عمر بن شاه بن نجم الدين أيوب، وهو ابن أخي صلاح الدين فغضب مولاه في بعض النزعات، وذهب مغاضباَ إلى المغرب ولحق بجبل نفوسة من ضواحي طرابلس الغرب. وأقام هنالك دعوة مواليه، وكان في بسائط تلك الجبال مسعود بن زمام المعروف بالبلط في أحيائه من رياح من عرب هلال ابن عامر، وكان منحرفاً عن طاعة عبد المؤمن شيخ الموحدين، وخليفة المهدي فيهم فانتبذ مسعود بقومه عن المغرب وأفريقية إلى تلك القاصية، فدعاه قراقوش إلى إظهار دعوة مواليه بني أيوب فأجابه ونزل معه بأحيائه على طرابلس فحاصرها قراقوش وافتتحها ونزل بأهله وعياله في قصرها.ثم استولى على قابس من ورائها، وعلى توزر ونفطة وبلاد نفزاوة من أفريقية،وجمع أموالا جمة، وجعل ذخيرته بمدينة قابس، وخربت تلك البلاد أثناء ذلك باستيلاء العرب عليها. ولم يكن لهم قدرة على منعهم. ثم طمع في الاستيلاء على جميع أفريقية ووصل يده بيحيى بن غانية اللمتوني الثائر بتلك الناحية بدعوة لمتونة، من بقية الأمراء في دولتهم. فكانت لهما بتلك الناحية آثار مذكورة في أخبار دولة الموحدين إلى أن غلبه ابن غانية على ما ملك من تلك البلاد، وقتله كما هو مذكور في أخبارهم، والله أعلم.

استيلاء نور الدين تول ان شاه بن أيوب على بلاد النوبة ثم على بلاد اليمن

كان صلاح الدين وقومه على كثرة إرتيابهم من نور الدين، وظنهم به الظنون يحاولون ملك

القاصية عن مصر ليمتنعوا بها أن طرقهم منه حادث، أو عزم على المسير إليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن. وتجهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى ملك النوبة. وسار إليها في العساكر سنة ثمان وستين، وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خرجاً ولا في البلاد بأسرها جباية. وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن. فاقتصر على ما فتحه من ثغورهم، وعاد في غنيته بالعبيد والجواري. فلما وصل إلى مصر أقام بها قليلا، وبعثه صلاح الدين إلى اليمن، وقد كان غلب عليه علي بن مهدي الخارجي سنة أربع وخمسين، وصار أمره إلى ابنه عبد النبي، وكرسي ملكه زبيد منها. وفي عدد ياسر بن بلال بقية ملوك بني الربيع.وكان عمارة اليمني الشاعر العبيدي وصاحب بني رزيك من أمرائهم، وكان أصله من اليمن. وكان في خدمة شمس الدولة ويغريه به فسار إليه شمس الدولة بعد أن تجهز، وأزاح العلل، واستعد للمال والعيال. وسار من مصر منتصف سنة تسع وستين، ومر بمكة وانتهى إلى زبيد. وبها ملك اليمن عبد النبي بن علي بن مهدي فبرز إليه وقاتله فانهزم وانحجر بالبلد. وزحفت عساكر شمس الدولة فتسنموا أسوارها وملكوها عنوة واستباحوها، وأسروا عبد النبي وزوجته. وولى شمس الدولة على زبيد مبارك بن كامل ابن منقذ من أمراء شيزر كان في جملته، ودفع إليه عبد النبي ليستخلص منه الأموال فاستخرج من قرابته دفائن كانت فيها أموال جليلة. ودلتهم زوجته الحرة على ودائع استولوا منها على أموال جمة.وأقيمت الخطبة العباسية في زبيد، وسار شمس الدولة توران شاه إلى عدن وبها ياسر بن بلال، كان أبوه بلال بن جرير مستبداً بها على مواليه بني الزريع، وورثها عنه ابنه ياسر، فسار ياسر للقائه فهزمه شمس الدولة، وسارت عساكره إلى البلد فملكوها، وجاؤوا بياسر أسيراً إلى شمس الدولة فدخل عدن وعبد النبي معه في الإعتقال، واستولى على نواحيها، وعاد إلى زبيد. ثم سار إلى حصون الجبال فملك تعز، وهي من أحصن القلاع، وحصن التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون. وولى على عدن عز الدولة عثمان بن الزنجبيلي، واتخذ زبيد سبباً لملكه. ثم استوخمها، وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً

صحيح الهواء للسكنى فوقع إختيارهم على تعز، فاختط هنالك مدينة واتخذها كرسياً لملكه. وبقيت لبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكره في أخبارهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة عمارة ومقتله

كان جماعة من شيعة العلويين بمصر منهم: عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر،

وعبد الصمد

الكاتب، والقاضي العويدس، وابن كامل، وداعي الدعاة، وجماعة من الجند وحاشية القصر، اتفقوا على استدعاء الإفرنج من صقلية وسواحل الشام، وبذلوا لهم الأموال على أن يقصدوا مصر فإن خرج صلاح الدين للقائهم بالعساكر ثار هؤلاء بالقاهرة، وأعادوا الدولة العبيدية. وإلا فلا بد له إن أقام من بعث عساكره لمدافعة الإفرنج فينفردون به ويقبضون عليه. وواطأهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين، وتحينوا لذلك غيبة أخيه توران شاه باليمن، وثقوا بأنفسهم وصدقوا توهماتهم ورتبوا وظائف الدولة وخططها. وتنازع في الوزارة بنو رزبك وبنو شاور. وكان علي بن نجي الواعظ ممن داخلهم في ذلك فأطلع صلاح الدين هو في الباطن إليهم. ونمي الخبر إلى صلاح الدين من عيونه ببلاد الإفرنج فوضع على الرسول عنده عيوناً جاؤه بجلية خبره، فقبض حينئذ عليهم. وقيل إن علي بن نجي أنمى خبرهم إلى القاضي فأوصله إلى صلاح الدين. ولما قبض عليهم صلاح الدين أمر بصلبهم، ومر عمارة ببيت القاضي وطلب لقاءه فلم يسعفه، وأنشد البيت المشهور:

عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص هو العجب

ثم صلبوا جميعاً، ونودي في شيعة العلويين بالخروج من ديار مصر إلى الصعيد، واحتيط على سلالة العاضد بالقصر، وجاء الإفرنج بعد ذلك من صقلية إلى الاسكندرية كما يأتي خبره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

وصول الإفرنج من صقلية إلى الاسكندرية

لما وصلت رسل هؤلاء الشيعة إلى الإفرنج بصقلية تجهزوا، وبعثوا مراكبهم مائتي أسطول للمقاتلة فيها: خمسون ألف رجل، وألفان وخمسمائة فارس، وثلاثون مركبا للخيول، وستة مراكب لآلة الحرب، وأربعون للأزواد. وتقدم عليهم ابن عم الملك صاحب صقلية، ووصلوا إلى ساحل الاسكندرية سنة سبعين. وركب أهل البلد الأسوار، وقاتلهم الإفرنج، ونصبوا الآلات عليها. وطار الخبر إلى صلاح الدين بمصر، ووصلت الأمراء إلى الاسكندرية من كل جانب من نواحيها. وخرجوا في اليوم الثالث فقاتلوا الإفرنج فظفروا عليهم. ثم نجاءهم البشير آخر النهار بمجيء صلاح الدين

فاهتاجوا للحرب وخرجوا عند اختلاط الظلام فكبسوا الإفرنج في خيامهم بالسواحل وتبادروا إلى ركوب البحر فتقسموا بين القتل والغرق ولم ينج إلا القليل. وإعتصم منهم نحو من ثلثمائة برأس رابية هنالك إلى أن أصبحوا فقتل بعضهم وأسر الباقون، وأقلعوا بأساطيلهم راجعين، والله تعالى أعلم.

واقعة كنز الدولة بالصعيد

كان أمير العرب بنواحي أسوان يلقب كنز الدولة، وكان شيعة للعلوية بمصر، وطالت أيامه واشتهر. ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد اقطاعا بين أمرائه. وكان أخو أبي الهيجاء السمين من أمرائه، واقطاعه في نواحيهم فعصى كنز الدولة سنة سبعين، واجتمع إليه العرب والسودان. وهجم على أخي أبي الهيجاء السمين في إقطاعه فقتله. وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز، وبعث معه جماعة من الأمراء، والتف له الجند فساروا إلى أسوان، ومروا بالصعيد فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فاستلحموهم. ثم ساروا إلى الكنز فقاتلوه وهزموه، وقتل واستلحم جميع أصحابه، وأمنت بلاد أسوان والصعيد، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام بعد وفاة العادل نور الدين

كان صلاح الدين كما قدمناه قائما في مصر بطاعة العادل نور الدين محمود بن زنكي. ولما توفي سنة تسع وستين، ونصب ابنه الصالح إسماعيل في كفالة شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وبعث إليه صلاح الدين بطاعته، ونقم عليهم انهم لم يردوا الأمر إليه. وسار غازي صاحب الموصل بن قطب الدين مودود بن زنكي إلى بلاد نور الدين التي بالجزيرة وهي: نصيبين والخابور وحران والرها والرقة فملكها. ونقم عليه صلاح الدين أنهم لم يخبروه حتى يدافعه عن بلادهم. وكان الخادم سعد الدين كمستكين الذي ولاه نور الدين قلعة الموصل، وأمر سيف الدين غازي بمطالعته بأموره قد لحق عند وفاة نور الدين بحلب، وأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية المستبد بها بعد نور الدين فبعثه ابن الداية إلى دمشق في عسكر ليجيء بالملك الصالح إلى حلب لمدافعة سيف الدين غازي فنكروه أولا وطردوه.ثم رجعوا إلى هذا الرأي، وبعثوا عنه فسار مع الملك الصالح إلى حلب ولحين دخوله قبض على ابن الداية وعلى مقدمي حلب، واستبد بكفالة الصالح، وخاف الأمراء بدمشق، وبعثوا إلى سيف الدين غازي ليملكوه فظنها مكيدة

من ابن عمه. وامتنع عليهم وصالح ابن عمه على ما أخذ من البلاد فبعث أمراء دمشق إلى صلاح الدين، وتولى كبر ذلك ابن المقدم فبادر إلى الشام وملك بصرى. ثم سار إلى دمشق فدخلها في منسلخ ربيع سنة سبعين وخمسمائة. ونزل دار أبيه المعروفة بالعفيفي وبعث القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري إلى ريحان الخادم بالقلعة أنه

على طاعة الملك الصالح وفي خدمته، وما جاء إلا لنصرته فسلم إليه القلعة وملكها.واستخلف على دمشق أخاه سيف الإسلام طغركين، وسار إلى حمص، وبها والٍ من قبل الأمير مسعود الزعفراني. وكانت من أعماله فقاتلها وملكها، وجمر عسكراً لقتال قلعتها. وسار إلى حماة مظهرا لطاعة الملك الصالح، وارتجاع ما أخذ من بلاده بالجزيرة. وبعث بذلك إلى صاحب قلعتها خرديك واستخلفه. وسار إلى الملك الصالح ليجمع الكلمة، ويطلق أولاد الداية. واستخلف على قلعة حماة أخاه. ولما وصل إلى حلب حبسه كمستكين الخادم، ووصل الخبر إلى أخيه بقلعة حماة فسلمها لصلاح الدين. وسار إلى حلب فحاصرها ثالث جمادى الأخيرة، واستمات أهلها في المدافعةعن الصالح. وكان بحلب سمند صاحب طرابلس من الإفرنج محبوسا منذ أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين فأطلقه كمستكين على مال وأسرى ببلده. وتوفي نور الدين أول السنة وخلف ابناً مجذوماً فكفله سمند واستولى على ملكهم. فلما حاصر صلاح الدين حلب بعث كمستكين إلى سمند يستنجده، فسار إلى حمص ونازلها فسار إليه صلاح الدين، وترك حلب.وسمع الإفرنج بمسيره فرحلوا عن حمص ووصل هو إليها عاشر رجب فحاصرقلعتها، وملكها آخر شعبان من السنة. ثم سار إلى بعلبك وبها يمن الخادم من أيام نور الدين فحاصره حتى استأمن إليه، وملكها رابع رمضان من السنة، وصار بيده من الشام: دمشق وحماة وبعلبك. ولما استولى صلاح الدين على هذه البلاد من أعمال الملك الصالح، كتب الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فأنجده بعساكره مع أخيه عز الدين مسعود، وصاحب جيشه عز الدين زلقندار. وسارت معهم عساكر حلب، وساروا جميعا لمحاربة صلاح الدين.وبعث صلاح الدين إلى سيف الدين غازي أن يسلم لهم حمص وحماة، ويبقى بدمشق نائبا عن الصالح فأبى إلا رد جميعها، فسار صلاح الدين إلى العساكر ولقيهم آخر رمضان بنواحي حماة فهزمهم وغنم ما معهم. واتبعهم إلى حلب وحاصرها، ورحل عن حلب لعشرين من شوال. وعاد إلى حماة، وكان فخر الدين مسعود بن الزعفراني من الأمراء النورية، وكانت ماردين من أعماله مع حمص وحماة وسلمية وتل خالد والرها. فلما ملك أقطاعه

هذه اتصل به فلم ير نفسه عنده كما ظن ففارقه. فلما عاد صلاح الدين من حصار حلب إلى حماة سار إلى بعلبك، واستأمن إليه وإليها فملكها، وعاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود، وأقطع حمص ناصر الدولة بن شيركوه، وأقطع بعلبك شمس الدين بن المقدم ودمشق إلى عماد، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه

.

واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح وصاحب الموصل وما ملك من الشام بعد انهزامهما

ثم سار سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة إحدى وسبعين بعد انهزام أخيه وعساكره، واستقدم صاحب كيفا وصاحب ماردين، وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع من السنة فشتى بها حتى ضجرت العساكر من طول المقام. وسار إلى حلب فخرجت إليه عساكر الملك الصالح مع كمستكين الخادم، وسار صلاح الدين من دمشق للقائهم فلقيهم قبل السلطان فهزمهم واتبعهم إلى حلب. وعبر سيف الدين الفرات منهزما إلى الموصل، وترك أخاه عز الدين بحلب. واستولى صلاح الدين على مخلفهم، وسار إلى مراغة فملكها وولي عليها. ثم إلى منبج وبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي وكان حنقا عليه لقبح آثاره في عداوته فلحق بالموصل، وولاه غازي مدينة الرقة.ثم سار صلاح الدين إلى قلعة إعزاز فحاصرها أوائل ذي القعدة من السنة أربعين يوماً وشد حصارها فاستأمنوا إليه فملكها ثاني الأضحى من السنة. وثب عليه في بعض أيام حصارها باطني من الفداوية فضربه، وكان مسلحا فأمسك يد الفداوي حتى قتل رقتل جماعة كانوا معه لذلك ورحل صلاح الدين بعد الاستيلاء على قلعة إعزاز إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح. واعصوصب عليه أهل البلد واستماتوا في المدافعة عنه. ثم ترددت الرسل في الصلح بينهما وبين صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين فانعقد بينهم في محرم سنة اثنتين وتسعين، وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن رد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح بوسيلة أخته الصغيرة، خرجت إلى صلاح الدين ثائرة فاستوهبته قلعة إعزاز فوهبها لها، والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية

ولما رحل صلاح الدين عن حلب، وقد وقع من الاسماعيلية على حصن إعزاز ما

وقع، قصد بلادهم في محرم سنة إثنتين وتسعين ونهبها وخربها، وحاصر قلعة مصياف، ونصب عليها المجانيق. وبعث سنان مقدم الإسماعيلية بالشام إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين بحماة يسأله الشفاعة فيهم، ويتوعده بالقتل فشفع فيهم وأرحل العساكر عنهم. وقدم عليه أخوه توران شاه من اليمن بعد فتحه وإظهار دعوتهم فيه، وولى على مدنه وامصاره فاستخلفه صلاح الدين على دمشق، وسار إلى مصر لطول عهده بها أبو الحسن بن سنان بن سقمان بن محمد. ولما وصل

إليها أمر بإدارة سور على مصر القاهرة والقلعة التي بالجبل دورة تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي. واتصل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وكان متولي النظر فيه مولاه قراقوش، والله تعالى ولي التوفيق بمنه.

غزوات بين المسلمين والافرنج

كان شمس الدين محمد بن المقدم صاحب بعلبك، وأغار جمع من الإفرنج على البقاع من أعمال حلب فسار إليهم وأكمن لهم في الغياض، حتى نال منهم وفتك فيهم. وبعث إلى صلاح الدين بمائتي ألى جر منهم وقارن ذلك وصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن فبلغه أن جمعا من الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم بالمروج فلم يثبت وهزموه، وأسر سيف الدين أبو بكر بن السلار من أعيان الجند بدمشق، وتجاسر الإفرنج على تلك الولاية. ثم اعتزم صلاح الدين على غزو بلاد الإفرنج فبعثوا في الهدنة وأجابهم إليها وعقد لهم، والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة صلاح الدين بالرملة أمام الإفرنج

ثم سار صلاح الدين من مصر في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين إلى ساحل الشام لغزو بلاد الإفرنج، وانتهى إلى عسقلان فاكتسح أعمالها ولم يروا للافرنج خبرا فانساحوا في البلاد وانقلبوا إلى الرملة فما راعهم إلا الإفرنج مقبلين في جموعهم وأبطالهم وقد افترق أصحاب صلاح الدين في السرايا فثبت في موقفه واشتد القتال وأبلى يومئذ محمد ابن أخيه في المدافعة عنه وقتل من أصحابه جماعة وكان لتقي الدين بن شاه ابن اسمه أحمد متكامل الخلال لم يطر شاربه. فأبلى يومئذ واستشهد، وتمت الهزيمة على المسلمين. وكان بعض الإفرنج تخلصوا إلى صلاح الدين فقتل بين يديه وعاد منهزما، وأسر الفقيه عيسى الهكاري بعد أن أبلى يومئذ بلاء شديدا. وسار صلاح الدين حتى غشيه الليل. ثم دخل البرية في فلّ قليل إلى مصر، ولحقهم الجهد والعط!ش، ودخل إلى القاهرة منتصف جمادي الأخيرة. قال ابن الأثير: ورأيت كتابه إلى أخيه توران شاه بدمشق يذكر الواقعة

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد فتكت فينا المثقفة السمر

ومن فصوله لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر انتهى وأما السرايا التي دخلت بلاد الإفرنج فتقسمهم القتل والأسر وأما

الفقيه عيسى الهكاري فلما ولي منهزما، ومعه أخو الظهير ضل عن الطريق، ومعهما جماعة من أصحابهما فأسروا. وفداه صلاح الدين بعد ذلك بستين ألف دينار، والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة حماة

ثم وصل في جمادي الأولى إلى ساحل الشام زعيم من طواغيت الإفرنج، وقارن وصوله هزيمة صلاح الدين. وعاد إلى دمشق يومئذ توران شاه بن أيوب في قلة من العسكر، وهو مع ذلك منهمك في ملذاته فسار ذلك الزعيم بعد أن جمع فرنج الشام، وبذل لهم العطاء فحاصر مدينة حماة، وبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين مريضاً. وشد حصارها وقتالها حتى أشرف على أخذها وهجموا يوماً على البلد وملكوا ناحية منه فدافعهم المسلمون وأخرجوهم، ومنعوا حماة منهم فأفرجوا عنها بعد أربعة أيام، وساروا إلى حارم فحاصروها. ولما رحلوا عن حماة مات شهاب الدين الحارمي، ولم يزل الإفرنج على حارم يحاصرونها، وأطمعهم فيها ما كان من نكبة الصالح صاحب حلب لكمستكين الخادم كافل دولته. ثم صانعهم بالمال فرحلوا عنها. ثم عاد الإفرنج إلى مدينة حماة في ربيع سنة أربع وسبعين فعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها، وخرج العسكر حامية البلد إليهم فهزموهم، واستردوا ما أخذوا من السواد، وبعثوا بالرؤس والأسرى إلى صلاح الدين وهو بظاهر حمص منقلبا من الشام، فأمر بقتل الأسرى، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض ابن المقد م ببعلبك وفتحها

كان صلاح الدين لما ملك بعلبك استخلف فيها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم جزاء بما فعله في تسليم دمشق، وكان شمس الدولة محمد أخو صلاح الدين ناشئا في ظل أخيه وكفالته فكان يميل إليه، وطلب منه أقطاع بعلبك فأمر ابن المقدم بتمكينه منها فأبى. وذكره عهده في أمر دمشق فسار ابن المقدم إلى بعلبك وامتنع فيها، ونازلته العساكر فامتنع، وطاولوه حتى بعث إلى صلاح الدين يطلب العوض فعوضه عنها. وسار أخوه شمس الدين إليها فملكها، والله تعالى ولي التوفيق.